

بدل الاشتراك عن سنة
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ نمن العدد الواحد
الاعوانات
يتفق عليها مع الادارة

الحرية

مجلة أسبوعية للادب والعلم والفن

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها الشئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع عبد المزي رقم ٣٦

التبة الخضراء - القاهرة

ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة السادسة

« القاهرة في يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ١٣٥٧ - ٢١ مارس سنة ١٩٣٨ »

العدد ٢٤٦



١٣٥٧



أهل هلال
الحرم والسلام
المسكين يكاد يفقد
من قيوده ويتحطل
من نظمه؛ فكأنما
ارتد إلى عهوده
الأولى يترصد
القرائن في ألقاف
الشجر وأجواف
الحفر، ويتعقب

الطرائد في بطون الأودية ومخارم الجبال، ثم يشتد عليه سلطان
النرائز المهلكة فيستنشي رُوح الحياة فلا يجده، ويلتمس ظل
الأمان فلا يدركه، ويتغنى غناء النفس فلا يناله
هذه أوروبا العالمة الغاملة القوية، قد استحال بنو آدم فيها

الفهرس

صفحة	
٤٤١	السام المجرى ... : أحمد حسن الزيات ...
٤٤٣	عبرة الهجرة ... : فضيلة الأستاذ محمد مصطفى الرافي
٤٤٤	البحث عن غد ... : الأستاذ عباس محمود العقاد ...
٤٤٧	خطرات الفك في صدور الشباب ... : الأستاذ مصطفى عبد الرازق بك
٤٤٨	سر المنظمة ... : الأستاذ توفيق الحكيم ...
٤٥٠	رعاية الطفولة في الاسلام ... : الآفة أسماء فهمي ...
٤٥٢	الهجرة ... : الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني
٤٥٤	جد العرب والاسلام .. : الأستاذ عبد الرحمن شكرى ..
٤٥٧	محمد يرجع ا ... : الأستاذ عبد النعم خلاف ...
٤٥٩	طريق الجهاد (قصيدة) : الأستاذ محمد عبد النني حن ..
٤٦٠	الحكومة الاسلامية الأولى : الأستاذ علي الحقيف ...
٤٦٥	مؤامرة في بيت الرسول : الأستاذ محمود غنيم ...
٤٦٩	يسر الاسلام ... : الأستاذ عبد المزي الزيات ...
٤٧٠	بين الفك واليقين ... : الأستاذ أحمد خاكي ...
٤٧٤	ابن دليق السيد ... : الدكتور محمد مصطفى زيادة ...
٤٧٦	الاسراء (قصيدة) ... : الأستاذ أحمد الطرابلسي ...
٤٧٨	قالت لهم إلى الحديث فقلت لا : الأستاذ أحمد الشايب ...
٤٨٢	عفة بن نافع ... : الأستاذ محمود الحقيف ...
٤٨٦	قبل أتيان الفجر ... : الأستاذ محمد سعيد العريان ...
٤٩٠	البيئة الاسلامية ... : الأستاذ محمد أحمد الفسراوي
٤٩٣	التصوير التوضيحي في المخطوطات الاسلامية : الدكتور أحمد موسى ...
٤٩٨	تقية الباعلي ... : الأستاذ ه. ر. جب ...
٥٠٠	مظاهر الحكم في مصر : الدكتور حسن ابراهيم حسن
٥٠٢	التصوف الاسلامي ... : الدكتور ويولد نيكسون ...
٥٠٤	عمار بن ياسر ... : الأستاذ كامل محمود حبيب ...
٥٠٧	ابن البناء المراكشي ... : الأستاذ قمرى حافظ طوفان ..
٥٠٩	هجرة معلم (قصيدة) ... : الأستاذ علي الطنطاوي ...
٥١٨	خالد بن الوليد وأبو حمص : السيد محي الدين الدرويش ...

إلى هياكل صناعية ، تتحرك بالبنزين ، وتسير بالقيادة ، وتعمل بالحياة ، وتهلك في السبق ، حتى أوشكت أن تصطدم فتتحطم أين الروح الذي كان يحياها ؟ وأين النور الذي كان يهديها ؟ رجعا إلى مصدرها الإلهي في الشرق يوم تجبعت لحواري المسيح ، وتكررت لخلائف محمد ، وبنت الأخلاق على قواعد الاقتصاد ، والديمقراطية على استبداد الأحزاب ، والسلام على طغيان القادة . فكان من ذلك فجيعتها الأليمة في سلامها ونظامها وخلقها ، لأن مطامع الاقتصاد لا يقوم عليها خلق ، ونوازع الأفراد لا يثبت بها نظام ، ونوازي القواد لا يدوم عليها عهد ؛ حتى عصبة الأمم التي جمعت فيها أوروبا ما بقي لديها من هدى الأنبياء وحكمة الفلاسفة ، دفن أشلاءها هتلا في النسا ، بعد ما قطع أوصالها الدتشي في الحبشة ! ! خال أوروبا اليوم كحال الضواري الأوابد ، تتباعد بالأثرة ، وتتداني بالخدعة ، وتتدافع بالقوة ؛ ثم أعوزتها الأنياب والأظفار فجعلت مصانع التجارة مسالخ ، وصهرت أجور العمال أسلحة . وأخذ الساسة والطغاة يتجاربون بالزئير فوق المنابر ، فلاؤوا الصدور بالرعب ، وزعموا البيوت بالقلق ، وسمموا الحياة بالهلم ، وزعموا من قلوب الناس طمأنينة العيش وحرية التصرف ولذة التملك ، فاقبلوا عبداً مسخرين لهذه النظم الطاغية ، لا يجدون سلاماً في الأرض ، ولا يعتقدون نبياً في السماء !

أخطر ببالك أم التمدن الحديث ، فهل تجد غير صولة تناهض صولة ، ودولة تبلم دولة ، وأنظمة عراها تغير الإنسان فهي تُحتَضَر ، وأخرى هدى إليها الضلال فهي تُنتظر ؛ والشعوب بين أنصار هذه وأنصار تلك مواد تهلك في التجارب ، وأموال تنفق في الأهبة ، وأرواح تزهق في الصراع ، وآمال تذهب مع الرجح ؟

دع هذا العالم المجهود البائس وجُلْ جولة بالفكر في بلاد العالم الإسلامي ، فهل تجد إلا السلام في المجتمع ، والوئام في الأسرة ، والكيانة في النفس ، والرضا في العيش ، والثقة في الحاكم ، والأمل في الله ؟ ذلك هو الفرق بين نظام يضعه الخالق ونظام يضعه

الخلق . وذلك هو الفرق بين مجتمع يعيش بالروح ، ومجتمع يعيش بالآلة . وذلك هو المفهوم من دين سماه الله الإسلام ^(١) ، وجعل تحية أهله (السلام) ، وقرن فيه الصلاة دائماً بالسلام ، وعرف أهله بأنهم (الذين يعيشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)

- ذلك هو معنى الإسلام وذلك هو مبدؤه . وتستطيع أنت بأيسر الفهم أن ترجع أصول الإسلام وفروعه إلى تحقيق هذا المعنى وتطبيق ذلك المبدأ ؛ فالصوم والصلاة سلام الفرد . والحج والزكاة سلام المجتمع ؛ والسنن والأنظمة والآداب التي انشعبت من هذه الأصول دستور ثابت خالد يحقق لهذا الإنسان ، طريد العدوان وعبد الطغيان ، أحاديث أحلامه ، وهواجس أمانيه ، من الأخوة التي يعم بها النعم ، والمساواة التي يقوم عليها العدل ، والحرية التي تخصب فيها المدارك ؛ لأنه دستور لم يوحه الجوع ولا الطمع ، وإنما أوحاه الذي خلق الموت والحياة ، وجعل الظلام والنور ، وأوجد الفساد والصالح ، ليدرأ قوة بقوة ، ويصلح نظاماً بنظام ، وينقذ إنساناً بإنسان

إن الإسلام بشرعته السمحة ، وسياسته الحكيمة ، قد أزال الفروق ، وعدل المقاييس ، وألف القلوب بالبر ، وشفى الصدور بالتعاون ، فلا يمكن أن يعيش في ظله نظام هادم ولا نملة مفرقة . إفتتحوا ثغوره للنظم الحراء التي تشيع القزع هنا ، وتثير الحرب هناك ، فسترونها نقد جارفة وفود النور الخاطفة ، ثم لا تلبث أن تقع من دون ذراه المنية ، مهيضة الأجنحة ، ناسلة الريش ، لا تقوى على زفيف ولا حفيف ! وفي تركية الدليل الحاسم ، فإن بينها وبين الشيوعية جواراً وصدافة وعلاقة ؛ ومع ذلك لم تستطع الشيوعية — على فجورها وجرائها — أن تقتحم على الإسلام غيبه .

إن في الإسلام من ديمقراطيته واشتراكيته وأخوته مناعة على كل شر ، ومثابة لكل جنس ، ومودة لكل دين . فانتصاره انتصار للعقل ، وانتشاره انتشار للعدل ، وسيادته سيادة للسلام !

جرح الزبانية

(١) الإسلام معناه السلام ، ولذلك جعل مقابلاً للجهل وهو الجهل . ويؤيد هذا المعنى تلمس الرسول (ص) للسلطانة من سلم الناس من لسانه وهذه

عَبْرَةُ الْهَجْرَةِ

لِإِمَامِ الْمُسْلِمِينَ الْأَسَازِ الْأَكْبَرِ
الشيخ محمد مصطفى المراغي
شيخ الجامع الأزهر



يذكرنا كرم
النساء والمرضى
وما فيها من
نعمى وبؤس ،
وشدة ورخاء ،
واقبال وإدبار -
تقلب الأحوال
وتبدلها في هذه
الحياة . ويذكر
كل أحد من الخلق
بطل حقيقته من

صحف الأجل ، وبالخاتمة التي لا ممدى عنها ، وفي ذلك عبرة .
« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات
لأولي الأبصار »

ويذكرنا إمام الهجرة خاصة بأكبر حادث في تاريخ الإسلام
له أجل الأثر في انتصاره ، وفيه أكل عبرة :

شريف من أشرف قومه ، وقومه من أشرف الأقوام ؛
ورجل قوى الخلق ، حلو الشوائب ، فصيح اللسان ، قوى البيان ،
كامل الإنسانية ، مهذب الطبع ، رضى النفس ، شجاع مؤيد بالوحى
الإلهي وقوة الحق - يتيو به وطنه ومكان مولده ، فيهجّر أرضاً
سُحلت فيها قناعاته ، ويفارق دياراً عرفها وعرفته ، ومشاهد حلت
لنفسه واتصلت بها ، وأهلاً وإخواناً أعزاه .

رجل هذه صفاته ، وتلك مكاتبه ، يضيق له صدر القوم ،
ويتفكر له الناس ، ويكيدون له حتى يخرجوه ! رجل هذه صفاته ،
يفارق دياره وأهله ؛ ولولم يكن صاحب دعوة إلى الحق وإلى
غير ما ألفه الناس وأخذوه عن الآباء والأجداد ، لكان المحجب

إلى النفوس ، والمرموق بالأبصار ، والمغدى بالأهل والولد . لكن
الحق أزعج الباطل فلم يطق صبراً ، ودفع أهله إلى قتله أو إخراجهم ؛
« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ،
ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » ؛ وغطى على القلوب
فأفسد على العقل ملكة التقدير « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا
قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين »

هذا موضع العبرة

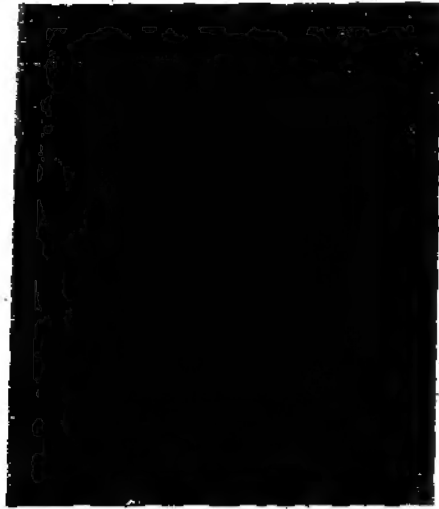
وليس من غرضنا أن نلم بتاريخ الهجرة وما لابسها ، فذلك
معروف في السير ، كذلك ما لاقاه النبي صلى الله عليه وسلم ،
وما أصاب صحبه المتقين من جهد البلاء ، وجهل الجاهل ،
وكيد الكائدين ، لا يغيب أكثره عن أكثر المسلمين

الأجسام الإنسانية معرضة للأمراض كسائر الكائنات
الحية ؛ وقد تعطل الأمراض وظائف الأعضاء أو تضعفها . ومن
الأمراض ما هو خاص ببعض البلاد أو بعض البيئات . وحال
النفوس الإنسانية لا يختلف عن الجسوم : تنساب بالجهل ، وبالغنى ،
وبالفقر ، وبالحرص على لذات الدنيا من مال وراء وجاه وعزة ،
وبالحقد على أصحاب النعم موروثه ومكتسبة ، وبحب الانتقام
والإسراف فيه ، وبحب ما هو موروث عن الآباء والأجداد من
مال وعقار وصفات وخلال وعقائد وتقاليده

مثل هذه النفوس المريضة لا يسهل تحولها من الشر إلى
الخير ، ولا يسهل قبولها الحق وهي بحاجة إلى دافع قوى بصبره ،
قوى بحجته ، فيه من الناعة الخلقية ما يقوى به على احتمال الأذى
والسكروء في نفسه وذويه ، وعلى احتمال ما يرى به مما يستفز الحليم ،
ويستنفذ صبر الكريم ، ويعجب له الرجل المادي ، ويعدده ضعيف
الطبع شذوذاً وخروجاً عن المألوف . نجمت هذه الأمراض في
قريش فاستعصى العلاج وتخير الحق ، ولم يكن أمامه إلا أن يتخذ
إلى التلة والاستكانة ، أو يفر بنفسه من عنت الباطل إلى أن يجد
السييل وبعد العدة لئلازلته ؛ فليست هذه البيئة مما يتفقد إليها ضياء
الحق بالدليل والحجة ، بل هي في حاجة إلى السيف يضرب الرقاب
ويقلق الهام ، وإلى أسنة الرماح تصل إلى القلوب فتشعرها بوجوب
التنبه والإصغاء إلى صوت الحق . تلك أسباب الهجرة . وقد ترك
النبي صلى الله عليه وسلم هذه البيئة للوبوء خوف أن يحتقن الحق

البحث عن غتك

للاستاذ عباس محمود العقاد



الفرزيون اليوم
ممنبون بالبحث في
مسائل الشرق من
جوانبه كافة: من
جانب السياسة،
لأن نهضة شعوبه
تضطرم إلى
حسان حساب
والمداول عن خطة
استغلاله والسيطرة

عليه؛ ومن جانب الدين، لأنهم حارون في شئونهم الروحية
يلتمسون الهداية من مهبط الأديان، أو يقابلون بين سلطان
الدين عليه وسلطان الآراء الحديثة عليهم؛ ومن جانب التجارة،
لأن العلاقات التجارية بين الدول الكبرى لا تستغنى عن أسواق
الشرق ومنايع الثروة فيه؛ ومن جانب السياحة والرحلة واستكشاف
مواقع التاريخ القديم، وكل جانب تتحول إليه عناية الباحثين في
مسألة عامة

ومن الباحثين الصحفيين الشغوفين بالسائل الروحية « روم
لانداو » صاحب كتاب « الله محبة مناصرة »، وصاحب هذا
الكتاب الذي عنوانه « البحث عن غد »، وموضوعه استطلاع
أحوال الشرق القريب من جانب الدين والنهضة النفسية إن صح
أن نطلق عليها هذا الاسم تمييزاً لها من النهضة العلمية البحث
والنهضة الصناعية الاجتماعية التي تقابل نظيرتها في الأنظار الغربية
حضر إلى مصر وتحدث فيها إلى رجالات الفكر والسياسة
ولخص هذه الأحاديث في كتابه، وسنعرض لها جلياً، ونبدأ بنقل
حديثه مع رئيسي الجامعتين الأزهرية والمصرية، حيث قال بعد
تمهيد طويل للحديث مع صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ

في مهده، ورجاه أن يجعله متنفساً في أرض حرة تحضنه، وأن يجد
له قوة تعينه، حتى يجين الأجل المضروب، ولكل أجل كتاب
هاجر وتم له ما أراد، إذ فتح الله له فتحاً ميبناً وأعطى دينه
وأعلى كلمته ونصر جنته، ودانت له تلك القبائل التي ناصبته
المدا، ولم يرض إلا بعد أن رضى الحق وانتصر، وبعد أن
انتصر غفر. فهو خادم الحق وأمينه، وناصره ومعينه، لا يرى أن
نفسه له، ولا أن أهله له، ولا أن شيئاً في الحياة له، بل كل شيء
عنده وفي مقدوره للحق وفي سبيل الحق. ولم يكن السيف في
يده إلا مشروط الجراح يتر به ما فسد من الأعضاء، ولم تكن الأستة
إلا الأبر التي يزل بها الطبيب مكان الماء ليخرج أذاه. وليس
بدعاً من الحوادث حادث الهجرة وما لا يسه إذا عرض على مقاييس
العقول واعتبر الناس بسنن الاجتماع وهديه. ولا تزال هذه
السنة مستمرة في هذه الحياة؛ ولا زالت تعمل عملها وتحدث
أثرها. والعاقل من يعتبر. « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا
في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وقد سار النبي صلى الله عليه وسلم على هذه السنن، وامتاز
بأكمل ما امتاز به الأنبياء وكبار السادة إلى الحق من اليقظة والحكمة،
وتخير الأوقات والأمكنة، واختيار الأصحاب والأنصار. ولم ير
الاكتفاء بالحجة والبرهان في مواضع لا تنفع فيها الحجة ولا يتنع
البرهان، بل أعمل الحجة وأدار الرأي وطلب القوة في مظاهرها.
لذلك كانت الهجرة، وبذلك أدرك ما أراد. فظهر الإسلام
ويسط ظله على أمم قوية كثيرة المدد والممدد، وحول أولئك
الأميين إلى أمة هدى وولاء عدل وحقها نفس وساسة يفخر
التاريخ بهم، وعلماء تروى آثارهم ويتحدث الناس بطيب أخبارهم،
وأساءة للإنسانية وجرواحها تتفجر منهم ينابيع الرحمة ويضمون
نظم الإسلام وقواعد الاجتماع. رفعوا قدر العالم بعد أن أنكروه،
وجعلوا العقل هادياً ومرشداً، والقرآن إماماً. لم يخونوا أمانات
الله ورسوله فأحيى الله حياة طيبة، وأعد لهم مكان صدق عند
ملك مقتدر

« يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما
يحكيكم، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه إليه تحشرون.
يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم
وأأنتم تعلمون »

محمد مصطفى المراغي

مصطفى المراغى وقد زاره في بيته بجولان :

« سألنى : هل تبحث عن المسائل الدينية أو مسائل ما وراء الطبيعة ؟ ولما كان الفارق بين هذه وتلك ليس بالفارق العظيم في نظرى أجبت بـ « من الروغان : كلاهما ؛ إلا أننى أشد عناية بما وراء الطبيعة »

فقال الشيخ العلامة : قليلة المحصول ، قليلة المحصول جداً وكانت لهذه الكلمة دلالتها ، لأنها تشير إلى طبيعة الإسلام العملية كما تنبث في أكبر دعاته بين المصريين

ومع على بعض العلم بأساليب المناقشة الشرقية لاحظت على الأستاذ المراغى أنه يقتضى عن الجواب في كثير من الأحيان ، وأن أسلوبه أسلوب رجال السياسة ؛ وناهيك بهم إذ يكونون شرقيين مع ذلك ، وعلى خبرة بالواقف المضلة ، وحرص من التورط في التصريح ، فهو في البيئة الغالبة على فقهاء الإسلام لاسمراء وعدت أقول : لقد سمعت أن الشبان عندكم يجنحون إلى نزعات « التفكير الحر » ويحاولون أن يزيدوا القراية بين الدين والعلم . فهل صحيح ما سمعت ؟

فقال الشيخ : « لا أظن الشبان المصريين أقل تديناً اليوم من أمس ؛ إذ ليس في القرآن ما يمارض الحقائق العلمية ، ولا تناقض بينهما في شيء »

وأردت أن أخوض فيما هو أصرح وأجرأ مما تقدم فسألت : ألا ترى أن العنصر الروحي — أو النبيي المتصل بما وراء الطبيعة — هو أهم العناصر في الديانات ؟

قال الشيخ في سكينة ولطف : من ذا الذى يعلم كنه الله وكنه الروح ؟ إن بعض أستاذتنا يتحدثون عن السادة كائناً حقيقة ، وبعضهم يتحدثون عنها كائناً وهم أو فرض مفروض ؛ وليس من يعلم الصواب علم اليقين ، فإن القرآن لا يفصل بين القولين ، ولكنه يحكم حكمه في أمور شتى كأمر الزواج والوارث والماملات

فسألته : وماذا تقولون في قبول العلماء لنظرية قدم المادة ؟ ولا ريب أن الأستاذ المراغى لم يكن يتوقع قط أننى علمت شيئاً عن هذه القضية ، إلا أنه لم يظهر الدهشة ، ولم يد عليه إلا قليل من مفارقة السكينة التي لزمته حتى الساعة كائناً قناع لإخفاء ما وراءها من قلة الاكتراث . فقد انبعت الحياة من خلالها وقال :

« إنك لم تقع على الخبر الصحيح في هذه القضية ، فليس هناك إلا أن عالمك كتب رسالته في علم الأصول ليحبر فيها عن رأيه وما انتهى إليه اجتهاده »

فبادرت قائلاً : ألم يكن صاحب الفضيلة وأعوأه من العلماء مرجع الامتحان في هذه القضية ؟

فابتسم الشيخ المراغى وهو يقول : « إن رأيك كهذا قد كان يحسب من الزندقة قبل خمسين سنة ، وما كان أحد يجسر على تقديمه في جامعة إسلامية . فإعظم التفبر في أطوار الزمان ! نحن اليوم أدنى إلى الحرية والسباحة »

واستطرد الكاتب إلى أسئلة وأجوبة من هذا القبيل ، انتهى منها إلى المذاهب الاجتماعية والشطط في الدعوات الفكرية ، وسجل رأى الشيخ الأكبر أن الوقاية من جميع ذلك إنما هي الدين وتعليم الإسلام على أصوله

أما حديثه مع صاحب المال أحمد لطفى السيد باشا فقد مهد له بوصف الأستاذ وملابسه الإفرنجية الأنيقة ومعيشته المصرية ، ثم استمله بهذا السؤال :

« ما هي أكبر رسالة ثقافية قامت مصر بأدائها في أيامكم خلال القرون الأربعة التي خضعت فيها للحكومة التركية ؟ »

فأجاب وأصابه النجيلة تعبت بحبات المسبحة الماجية : « إنما هي عمل الجامع الأزهر في جميع الكتب الفقهية »

فقلت : ألا ترون أن حصر رسالة ثقافية تؤديها الأمة في عمل واحد لا يتجاوز جمع الموضوعات الفقهية خليق أن يشير إلى شيء من ضيق النطاق ؟

فرفع لطفى باشا حاجبيه هنيهة واضطرنى بذلك أن أعقب على ما أسلفت مستدركا :

« إن كثيراً من الغربيين يزعمون أن تفكير العرب تفكير « تجریدی » ... فإذا كانت البعيرة القومية لا تخرج في مدى القرون الأربعة ثمرات ثقافية غير الفقه والشريعة فهذا الزعم ليس بالمخالف كل المخالفة للإنصاف فيما يلوح لأول نظرة »

فسألنى : ماذا تمنى بالتفكير التجريدي ؟

قلت : إن التفكير الانجليزى مثلاً واقى عمار للحوادث ، لأنه يناقش كل حادثة كما تعرض في حينها ، وهو من ثم تقبض

الفروض النظرية والمباحث الجدلية . أما تفكير العرب فهو رهن بالقواعد الرسومية والنظريات المألومة ؛ ويلوح عليه أنه شبيه بهندسة البناء العربية ، لا يحتوى صورة من صورة الحياة للآلة في بنية الإنسان وملامح وجهه ، وكل ما فيه هندسة وتناسق خطوط ... »

قال لطفي باشا وهو يشفع كلامه بإقتسامه معتدرة :

« آسف لأننى لا أستطيع مجاراتك في حكمك . قالدى يبدو لى أن الفكر العربى أشد إيماناً في الواقعات من الفكر الأوروبى . وهذه شريعتنا الدينية التى استشهدت بها على نزعتنا التجريدية تناول شؤون الحياة اليومية ولا تقتصر على مسائل اللاهوت والأخلاق كما هو الحال في الشريعة المسيحية ؛ وهى تفيض بالوصايا في أمور المعيشة والزواج والميراث وما شاكل ذلك . وأحسب أننا أقرب إلى معرفة الحقيقة حين ندرس « نخبة » الأمة كما تمثل في ديانتها . فكيف ترى « النخبة المسيحية » تصور السماء والفردوس ؟ إن سماء المسيحيين هي نعيم غير دى أشكال ، أو هي شيء لا يسمعك أن تراه ولا تقع عليه الميرون ، بل شيء لا يسمعك أن تحيط به في الخيال . أما المسلمون فكيف تراهم يتخيلون السماء ؟ إنها دار حقيقة فيها اللين والتمل والمسجد ، وفيها الأزهار والأشجار والخور العين ، وهي كلها حقائق ومشاهدات ... أفليس هناك معنى ملحوظ لاتفاق النخبة الدينية بين المسيحيين والمسلمين في « ميدان سلبى » حين يتكلمون عن الجحيم ؟ في هذا الميدان رسم المسيحية نفسها صورة مشهودة هي صورة التيران والنقط الغالى وعذاب الأجساد

قال الكاتب : فأحججت من الجهر بملاحظة سنحت لى تلك اللحظة ، وغروها أن المبالغة في تمثيل الخيال تقترن عادة بالقصور في ملكة البناء والانشاء الواقعية ، وآثرت أن أسأل :

ألا تزال الديانة قوة فعالة في الحياة المصرية ؟

فأجابنى الباشا : « فعالة على الأرجح في عالم الاسلام أعظم من فعلها في عالم المسيحية ، لأن شرائعنا كلها قائمة على القرآن ؛ ومن العسير في البلاد الاسلامية أن تفصل بين الدين والحياة اليومية »

قلت : على أننى قد أخبرت أن الشبان المصريين يهجرون

عقائد آبائهم جنوباً منهم إلى البدع الغربية
قال : أعجب لو صح ذلك ... فلعلهم لا يشنون المساجد ولا يشهدون صلوات الجمع ، ولكنهم على الجملة متدينون ، وربما كان منهم أناس من الدارسين للفلاسفة الغربيين قد ألدوا في الدين إلا أنهم شذوذ قليل

فسألته : أبغى المصريون عتابة ما بما وراء الطبيعة أو بالأسرار الخفية والسبعات الصوفية ؟

قال : « ذلك نادر في « فلسفتنا الحاضرة » . غير أن فلسفتنا وأدبنا لا يزالان في مفتتح الحياة ؛ ويذنبى ألا تنسى أن أربعة قرون من الحكم التركي قد عطلت ثقافتنا وتركنا نحاول من جديد . فانتقلت إلى حديث الجامعة العربية وسألته : « وهل بعد انقضاء السيادة التركية أو السيادة الانجليزية بهتم المصريون بالجامعة العربية ؟

فرد الباشا جازماً : أما سياسياً فلا ، لأن الفوارق بين الشعوب العربية المختلفة جد كبيرة ؛ أما من الوجهة الثقافية فهي ممكنة ، وهي على ازدياد في جوانب الشرق الأدنى ؛ ولكنها ليست بالسياسية ، لأن الجامعة العربية من حيث هي نزعة سياسية اختراع تجسم في الصحافة الانجليزية على ما أذكر ، ولا يمحصرنى اسم صاحبه وإن كنت أرجح أنه مراسل للتمس كان يرأسها من التمس قبل أربعين سنة

وتنقل الحديث في بعض الموضوعات الثورية ثم سأل الكاتب : ما ظنك في حقيقة ما يقال من أن الوطنية المصرية توسد ما بين المصريين وسائر العالم ، وتجهت في إبدال كل مصرى بكل أجنبي ؟ أتؤمن بإمكان هذه العزلة ؟

قال الباشا : الحق أننى لا أؤمن بذلك ؛ ولعل محدثك قد أخطأوا التقدير ، فإن الوطنية عندنا لا تجوز على الثقافة . ونحن إذا اكتفينا بمن هم عندنا من الأساتذة الأجانب فسبب ذلك قلة المال . إن الأستاذ الانجليزى يكلفنا من ثمانمائة إلى تسعمائة جنيه في العام ، وليس ذلك باليسور لنا إلا فيما ندر

وانتهى الحديث بعد تعقيب موجز في هذا الموضوع ، واستعود إلى سائر الأحاديث وإلى التعقيب عليها في مقال قال

عباس محمود العقاد

من زكريات الماضي

خطرات الشك في صدور الشباب

للمستشار الشيخ مصطفى عبد الرزاق بك

أستاذ الفلسفة بكلية الآداب

قضيت صدر
النهار في غمول من
أثر البرد الذي نالني
وكدت آوى إلى
مضجى مريضاً ،
ولكنني طاردت
الضعف وتكلفت
القوة واشتغلت
ساعة مع زميل لي
فرنسي، ثم اشتغلت
من بعده وحدي .

وزارني بعد الظهر ثلاثة من أصدقائي المصريين فقطعتنا زمناً
في الحديث والسمر ، وذهب عني شيء من الفتور فنهضت للخروج
معه . على أن الطقس كان ذا رطوبة وإن لم يكن كثير البرودة .
وانصرف اثنان منهم وبقى ثالثهم معي فقال : إني سأحدثك بأمر
عقيدتي لتعلم موطن القوة والضعف منها . أما الإيمان بالله فقد
وصل عندي إلى حد الاذعان الذي لا ترتزله ريبة ؛ وأما الرسل
فما أراهم إلا رجالاً من صفوة أممهم وهبوا أنفسهم كبيرة ، وعقولا
راجحة ، فعملوا على إسماع الناس وتقريبهم من الخير ، ووضعوا
لذلك قوانين هُندوا إليها كما يهتدي الحكماء إلى وضع قواعد
لإصلاح المجتمع الإنساني أو إلى كشف ما خفي عن غيرهم من
أسرار الكون

ولما رسخ في يقينهم أن ما وصلت عقولهم الصافية إليه هو
الحق ، قالوا إنه من الله وسموه وحياً ؛ وكأنما قولهم هذا من باب
ثقة العالم بعلمه ، ولكنه لا يجعل آراءهم وما جاءوا به بنجوة من
تحخيص القول ، ولا يمنحهم من الثقة فوق ما يكون لإخوانهم
الحكماء المصلحين في كل زمان

سمعت قوله كله بإصغاء تام ولم أقطع عليه الطريق في حديثه

ولا أظهرت له إنكاراً ، ولم يئسني عدوله عما أعتقد الحق من
عدوله إليه ، ذلك بأنه يتكلم بروية ، ويعبر عما في نفسه ، ويدل
بالحجة القائمة عنده ؛ ومن كان هكذا عظم الرجاء في عرفانه للحق
إذا سطع له برهانه

أخذت أولاً في اختبار إيمانه بالله لأذهب به من طريق
الترتيب الطبيعي فوجدته لا يخالف في شيء مما أثبتته الأديان لله
وجعل أساساً للإيمان ، ثم انتقلت به إلى أمر الآخرة فقال إنه
في شك منها ولم يعطها حظها من النظر . فقلت له إن الإيمان
بالحياة الثانية ينبغي أن يكون موضع بحثك قبل أن تصل إلى
الرسالة ؛ وبسطت له ما تهدي إليه الفطرة ويدركه بادي النظر من
وجود دار جزاء ينال فيها المحسن ثواب إحسانه ، ويسأل فيها
السيء عن إساءته . ومن أيقن بأن الله حكيم لزمه بالبداهة أن يقر
بأن الناس لم يخلقوا سدى — أخصيتهم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم
إلينا لا ترجعون — عند ذلك قال إنه لا بد لي من فضل تفكير
في هذا . وهبني أذعنت له فإذا تقول في الرسلين ؟ فقلت له ما عندي
من أدلة الحاجة إلى الرسالة التي ينبغي أن تكون من عند الله ، لأن
كثيراً من تاليم الرسل لا يستقل العقل البشري بها . وقد جاء
كل رسول ببينة تؤيد دعواه أنه مرسل من عند الله . وإليك
مجزئة محمد عليه الصلاة والسلام وهي القرآن الكريم ، فهل ترى
أن بشراً يقدر على مثله ؟ ونازعني في ماسقته إليه من الأدلة
ونازعته ، حتى سكنت فسكت عنه ، وتركته إلى نفسه يمرض عليها
أدلة المخالف وراجع أدلتها هي . وأرجو أن أعود إليه مرة أخرى
فيكون الحق قد مهد لنفسه سبيلاً إلى قلبه . وإني وإياه لطلاب هدى .
ولوددت أن يادر شبابنا يطلب اليقين إذا تلجلج الشك في
صدورهم ، فإن ذلك أحرق بأن يقتلع الشبه قبل رسوخها .
وفلان ... أمثلهم في هذا وإن كان يغلبه الشباب حيناً على
الغضب لرأيه إذا شاء مجادله أن يظهر بالقلبة عليه «

هذه صورة من صور الحوار الذي كان يجري أحياناً بين
شباننا طلاب العلم في أوروبا في صدر هذا القرن عند ما كانت
تسرب إلى نفوسهم الفضة زعرات الشك في العقائد ، وكانت
زعرات الشك في العقائد يومئذ تشتعل في أوروبا اشتعالاً

وقد يكون في نشر هذه الصورة عبرة لشباب اليوم
ولسنا ندرى كيف يفعل شباب اليوم حين تنسرب زعرات
الشك إلى عقائدهم مصطفى عبد الرزاق

سِرُّ الْعِظَةِ

لِلْإِمْتِنَانِ تَوْفِيْقُ الْحَكِيمِ



ينبني لمن أراد
أن يدرك سر عظمة
النبي أن يتخيل
رجلاً وجيداً
فقيراً تمكنت من
قلبه عقيدة فنظر
حواله فإذا الناس
كلهم في جانب ،
وإذا هو بمفرده
في جانب . هو
وحده الذي يدين
بدين جديد ، بينا
الدنيا كلها : أهله

وعشيرته ، وبلده وأمته ، والفرس والروم والمهند والصين وكل
شعوب الأرض لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود .
هذا موقف النبي ، وهذا موقف العالم : رجل حاطل من كل
قوة وسلاح ، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان ، أمام عالم
تدعمه قوة العدد والمدة ، وتؤازره حرارة عقيدة قديمة شب
عليها وورثها عن أسلافه ، واتخذت لها في قرارة نفسه
وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم .
فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع
مكانها غرساً جديداً . والعالم القديم هو ذلك الساون القوي
لنلك الشجرة المتينة ، يذود عنها وتأتي كرامته أن يفرط في
ورقة منها . إنها إذن « مبارزة » بين فرد أعزل ، وبين عصر
بأسره بزجر غضب : عصر زاخر بأسلحته ورجاله ، وعقائده
وقهائمه ، وعلماؤه ومشاهيرهم ، وتقاليده ومأسيه ، ومجده وتاريخه...
هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبي...
على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدي وزمي « القفاز »

وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامى
العجاج : « أن أترك أيها العالم دينك القديم واتبعني » . ذلك
الصوت الذي لا جواب عليه إلا أسخريه طويلة وقهقهة عريضة...
وليست المعجزة كذلك في مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى ، إنما
المعجزة حقيقة هي أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من
هذه الحركة الخيفة ظاهراً منتصراً ؛ فإذا هذا العالم المتبدك كله يبحث
عند قدميه منكس الأسلحة ، وقد اهتلت سجنه خشوعاً طويلاً ،
وقهقهته سلاة عميقة كيف ربح هذا الرجل الواقعة ؟ ما وسائله ؟
هل كانت له خبط وأساليب وقوة من شخصه مكتنه من النصر ؟
أو أن الله هو الذي نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل
في الانتصار ؟ عقيدتي دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير

وهنا معنى الاسطفاء ، فالله يختار من بين البشر عظيماً له
كامل يحتمل عبء الرسالة ، ويوحى إليه بالمقيدة ثم يتركه يجاهد
في سبيلها . فالتنبي ليس آلة تحركها يد الله في كل خطوة ؛
إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس
بالوسائل التي يراها الرسول كفيلة بإلغاء الغاية . فالله لا يريد نشر
الأديان بين البشر إلا بالوسائل البشرية . فهو لا يتدخل بقدرة
الموتى فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزواج
والأمطار ؛ ولكنه يحب دائماً أن يخفى بين « الدين » وبين
« الناس » حتى يتغلغل الذين من تلقاء نفسه في نفوسهم بحال
نوره وحده ؛ ولكن أعين الناس لا ترى في كل الأحيان ؛ فهم
يمشون في أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء في أغوار المحيطات .
هنا تبدأ متاعب النبي ؛ وهنا تبدو عظمتهم ؛ وهنا تظهر للمعجزة
الحقيقية وهي إبراء الأعمى ، لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان .
فهو الذي يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده : نور الدين
الجديد الذي أتى به . وهنا ينبني التساؤل : كيف استطاع النبي أن
يرى الناس ما يرى ، وأن يفهمهم بما جاء به ؟ . الجواب بسيط :
حياء النبي وخلقه . إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده . إنما يؤثر
فيها الفعل والمثل . إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً لا يسى إلى غنى
ولا إلى ملك ؛ وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويمجوع أياماً ،
وأن كل تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة ، وأن كل
ذلك الهوان الذي يتأله من سفهاء القوم وأكابرهم ... وأن كل

نور الدين . هنا صفتان لازمتان : الصبر والثبات ، فإن المأقية في الحرب لمن صبر وثابر . وإن أمامه غلصاً جديداً ، هو الشك الذي يقوم الآن في رؤوس الناس . فإن كان حقيقة رجلاً عظيماً فليقتل هذا الشك بعفوه . وما هو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمة طامية . ولقد جاهد الرسول فعلاً في كل لحظة من لحظات حياته ، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التي في قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً . وهنا كان النصر الأخير ، وتمت المعجزة . وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم في قبضته ، ويخضعه لفكرته ، ويطبعه إلى أبد الآبدين بخاتمه ، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد .

نور الدين الحكيم

ذلك الجهاد الذي ملأ به حياته بأكلها إنما هو في سبيل « العقيدة » التي يقول لهم عنها : منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكاً على شرط أن يتركهم على دين آبائهم ، فرفض المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً : « أن يؤمنوا معه بفكرته » ؛ عند ذلك أدرك أولئك القوم جميعاً أن الأمر جد لا هزل ؛ وأنهم أمام رجل لا كسل الرجال ؛ وأن الأدب الذي لا يفريه في الحياة شيء ، ولا يعيش إلا من أجل فكرة ، لا بد أن يكون قد أبصر في هذه الفكرة جلالاً لم يصروه هم . « فكرة » لا تقوم بتتاع من أمتة هذه الدنيا الرخيصة ، و « جمال » يضحي في سبيله خير ما في الحياة . أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون ملياً . وثبت لمن كان قد ارتكب في أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقاً يعمل لنفسه . إنما هو رجل صادق مخلص ، لا مطمع له من تلك المطامع التي يسعى إليها الناس في هذه الدار . عند ذلك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه ... فوسيلة النبي الأولى وخطوته التي نزل بها الميدان هي إقناع هذا الخضم صاحب من الخلق أنه مجرد عن النيات الدنيوية . وهنا كانت قوته ؛ فإن أمضى سلاح في يد رجل يريد أن يقارع البشر ، هو أن يواجه البشر بيد خالية من أغراض البشر .

ولكن هذا لا يكفي . فالناس قد تقتنع بأمانة النبي ، وقد تستمع إلى ما يقول ، ولكنها لا تستطيع أن تنفذ في يوم وليلة كل ما فيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد . إن صدر الجماهير كصدر المحيط السيق ذي الماء الكثيف ، يدفع إلى سطحه كل جسم غريب ، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شيء ذو وزن ، بعد زمن وجهه . وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها . فما أدرهم أن هذا الكلام الجميل الذي جاء به هذا النبي ذو الحديث الطلي ليس إلا بضاعة زائفة ووهماً خلافاً لعب بلب هذا الرجل ؟ ولم لا يكون هذا الرجل الأمين للمساكين فريسة مرض ومس ؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ ، أو يلتقون بكنوزهم ويقبضون حبله ومسه . لقد وضعت المسألة إذن وضماً آخر ، وانخفضت الحرب ميداناً جديداً . ما ذا يصنع النبي ؟ لا بد له من أن يبتدئ ضباب الشك الخيم على الأذهان حتى يصل إليها

أول كتابه عن

صدر أخيراً

جمال الدين لا فخرنا

باعت

النهضة الفكرية في الشرق

لمؤلفه الأستاذ

محمد سيدهام مذكور

وهو أول كتاب عني بوجه خاص بكل ما أحاط بتاريخ وحياة وأعمال وآثار السيد جمال الدين في كل قطر وبلد بأسلوب سلس متين . وقدم له فضيلة الأستاذ مصطفى عبد الرازق بك وقرظه الأساتذة : شلتوت والشافعي والأسمر ...

ويقع الكتاب في ٢٦٠ صفحة من القطع الكبير

وعلى الصور التاريخية للسيد جمال في مواقفه المختلفة

وهو مطبوع على ورق أبيض مصقول

ويطلب من جميع المكتبات المشهورة

الثنى ١٠ قروش صاغ

رعاية الطفولة في الإسلام

للتربية الفاضلة الأستاذة
أنسمة قهيجي



درج أكثر
الناس في قياس مجد
الأمم وحضارتها
بمقاييس شتى أهمها
النبوغ في الفنون
والعلوم، أو ارتقاء
النظم والقوانين،
أو التفوق الحربي
ووفرة النسي
واتساع الملك
وقلما جملوا

رقى الأمة الوجداني وتغلغل مبادئ الرحمة والإحسان فيها من
أول مقاييس الرقي الهامة . وما دامت هذه الناحية لا تأتي من
الدراسة والعناية ما يرجح كفتها ، ويرفع قيمتها ، لتكون الحجر
الأساسي في بناء الحضارة ، فيستظل العالم ولا شك بعيداً عن
روح السلام والوئام

ولقد كان للحضارة الإسلامية أوفر الحظ من مبادئ المطف
والإنسانية التي تجلت في نواح عدة من الحياة ، فظهرت مثلاً في
معاملة المسلمين لسكان البلاد التي خضعت لسلطانهم مما أنشأهم
عدة أجيال مذلة الفتح ، كما ظهرت في معاملة الرقيق والمرأة ،
وتجلت في الرعاية المظيمة التي كان يمايل بها الأطفال . على أن
تلك الناحية الخطيرة التي يجب أن تعتبر بحق المقياس الأول للرق ،
لم تتل كل ما تستحق من الاهتمام ، فلم تأخذ مكانة المقاييس الأخرى
بعد . وعلى ذلك فليس أنسب من أن ننتهز فرصة حلول العام
المهجري الجديد لندرس ناحية من نواحي الرق الوجداني عند
المسلمين في العصور الماضية ، فتعرف اهتمامهم بشئون الأطفال ،
وتربيتهم للنشء ، لنسبر غور مبادئ الرحمة فيهم
لم يكن الاهتمام بشئون الأطفال مقصوراً على الدين الذي

حرم قتل الأبناء خشية الإملاق ، وصان حقوق اليتامى
وأموالهم ، ووضع القوانين للحضانة ، وقيد سلطة الأب على
أبنائه ، ورفع مكانة الأمة إذا أنجبت ولداً لسيدها فأصبحت
بسبب وليدها في مأمن من البيع والشراء ؛ بل إن موضوع
تربية الطفل ووجوب تعهده بالرفق والعناية لاقى أكبر الاهتمام
من كتاب المسلمين ومفكرهم . وإن روح الرقي لتبدو واضحة
قوية في كل ما كتبوا . والواقع أن الشاعر العربي الرقيق الماطفة
لم يكن هو وحده الذي عبر بوضوح عن هذه النزعة الإنسانية
إذ قال :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا نعيش على الأرض
بل إن الفيلسوف والمربي علما الموضوع بنفس الروح . فلقد اهتم
بهذه الناحية نفر من أشهر مفكري الإسلام مثل ابن سينا
والغزالي والمبدرى وابن خلدون . وسنشير إلى بعض آرائهم
تسجيلاً لناحية من نواحي الرقي الوجداني الذي تمتاز به الحضارة
الإسلامية عما سبقها من الحضارات كالحضارتين الأغريقية
والرومانية

فإن سينا يجعل أساس التربية مراعاة ميول الأطفال
واستعدادهم ، حتى لا يُرهق الأطفال بأعمال يصعب عليهم أداؤها
لأنها لا تجري مع رغبتهم . وعلى ذلك فإن سينا يحترم الميول مهما
كانت متواضعة . كذلك عالج هذا الفيلسوف مشا كل التأديب بطريقة
يتجلى فيها الحزم المزوج بالرفق ، فرأى أن يجنب الصبي معائب
الأخلاق بالترهيب والترغيب ، والابتسامة والابتسامة ، والإعراض
والإقبال ، وبالجد مرة وبالتوبيخ مرة أخرى ، ما كان كافياً ؛ فإن
احتاج للاستئمانه باليد لم يحجم عنها . وليكن أول الضرب قليلاً
موجماً كما أشار به الحكماء من قبل ، بعد الإرهاب وبعد إعداد
الشفعاء . وهكذا لا يجعل ابن سينا القسوة والضرب أول وسيلة
للتأديب ، بل هو لا يلجأ إلى الضرب إلا إذا فشلت الوسائل الأخرى
ولقد حدد علماء المسلمين عدد الضربات التي توقع على الطفل بثلاث ،
كما عيّنوا المواضع التي يحدث فيها الضرب حتى لا يتعرض
الطفل للأذى

والغزالي الذي يعتبر حجة الإسلام ، والذي كان لأرائه أكبر
الأثر في تفكير المسلمين في العصور التالية ، يتكلم عن الطفولة
بمطف ورقة لا حد لها . فهو يصف الطفل بأنه « أمانة عند والديه ،

كذلك لم تكن رعاية الأطفال مقصورة على المفكرين والمشتغلين بالتربية، بل قام المحسنون بإنشاء الماهد الخيرية لتعليمهم وحمايتهم . وكثير من الكتب الإسلامية تفيض بذكر الكتائب التي بنيت لتعليم البنات والمساكين وإطعامهم وكسوتهم . ولقد ساهمت المرأة المسلمة بقسط وافر في هذا الميدان، إذ يذكر المقرئ في كتابه المخطوط أسماء كثير من النساء اللاتي قمن ببناء الكتائب وحسن عليها الأموال والأموال لتعليم أبناء الفقراء كتاب الله . وكثيراً ما كان يبنى الكتاب بجانب المدرسة والبيارستان مما سهل بطبيعة الحال حضور الأطفال على المعلم والعلاج

ويبلغ من عناية المسلمين بأمر الأطفال أن كلف رئيس الشرطة بتفقد أحوال الكتائب لمنع تعليم البنات الصغار أشعار الفرام والمجون مما قد يكون له أثر البىء في أخلاقهن، ولحماية الأطفال مما قد يصيبهم من قسوة المعلمين . وهكذا لم تقف الدولة موقفاً سلبياً في أمر تربية الأطفال

من كل ما تقدم يتبين لنا مقدار تغفل مبادئ السطف والإنسانية في ناحية من أهم نواحي الحياة الإسلامية . على أن تقديرنا لمبادئ هذه الرحمة المتجلية في الاهتمام بالأطفال لا يجعلنا ننقض الطرف عن أن المسلمين لم يستخذوا الوسائل الكافية لحماية الطفولة ولسد حاجتها في النواحي المختلفة، فلم يكن لديهم مثلاً قوانين تحمي الأطفال من محاولة بعض الأعمال التي قد تعوق نموهم، وتحديد السن التي لا ينبغي تشغيل الأطفال قبل بلوغهم إليها؛ كما لم يحددوا سنّاً لبداية الزواج، فكانت الفتاة تزوج في سن مبكرة، وترهق بواجبات الأمومة والزوجية وهي لم تزال بعد طفلة . كذلك لم تتوفر المنشآت الخيرية التي تكفي لسد حاجات الفقراء وذوى الحاجات . على أن ذلك النقص في وسائل العلاج لا يقلل من قيمة مبادئ السطف والإنسانية التي بنى عليها الإسلام، ولا تخفي روح الإحسان التي تفيض بها الحضارة الإسلامية، والتي ظهرت في ميدان الرفق بالأطفال وإذا كان الغرض الأول من دراسة نواحي الحضارات الغابرة هو تفهم نواحي حياتنا الراهنة والوقوف على مقدار تقدمنا أو قصورنا، فأما لا تبال أن نشعر بالخزي من أنفسنا عند ما نستعرض أعمال السلف وتقارنها بجهودنا البتييل على رغم ما لدينا من وسائل

وتلقه الطاهر جوهره نفيسة ساذجة ... » ومن ثم يجب على ولي أمر الطفل أن يقوم بإرشاده بأمانة وإخلاص . وهو يجب مراعاة شعور الطفل فيقول : « إن الطفل المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بحياة وتمييزه »، كما يرى : « ألا يؤخذ الطفل بأول هفوة، بل يتناقل عنه ولا يهتك سره، ولا سيما إذا ستره السبي واجتهد في إخفائه »؛ كما ينصح للمربي : « أن ينظر في مرض المريض وفي حال سنه ومزاجه وما تحتله نفسه من الراحة ويبني على ذلك راحته »

والمبدري الذي عاش بمصر في القرن الثامن للهجرة يحمل حلة شمواء في كتابه (مدخل الشرع الشريف) على مؤدبي عصره، وينتق على أولياء أئفد الأطفال أنهم يقسون على الصبيان فيضربونهم بمصا اللوز اليايس وبالجرید . ويصر على أن يأخذ المعلم الأطفال بالرفق ما أمكن . ولكن إذا اضطر المربي إلى أن يضرب السبي على تركه الصلاة متى بلغ السن التي يميز ذلك، فلا بأس أن يضربه ضرباً غير مبرح، ولا يزيد على ثلاثة أصوات شيئاً إلا في حالات نادرة جداً . وهنا يحدد عدد الأصوات بعشرة، وهو الحد الأقصى . ولا ينسى المبدري أن يذكر المربي بتفاصيل عدة لا يخرج مرماها عن مراعاة المسلمين لشعور الأطفال . فهو ينصح المؤدب مثلاً ألا يسمح للتلاميذ أن يحضروا غداءهم معهم إلى المكتب، أو يعملوا نقوداً لشراء ما يرغبون من الطعام، حتى لا يتألم الطفل الفقير الذي لا يمكنه بجارة الوسرين في مظاهر يصرم . وعلى ذلك فهو يفضل أن يرجع الأطفال أجمون إلى منازلهم للغداء

ويرى المبدري أيضاً أن يلعب الأطفال لعباً جميلاً بعد انصرافهم من المكتب حتى تذهب عنهم آثار التعب والملل، وحتى يستأنفوا دروسهم بشوق واهتمام

ولقد عقد ابن خلدون في مقدمته الشهيرة فصلاً في أن الشدة على التلمين مضرة بهم، ولا سيما في أصغر الولد . وذكر أن كل من كان مرباه بالسف والقهر من التلمين أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعا إلى الكسل، وحمل على الخبث والكذب، وفقدت معاني الإنسانية فيه ... وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها السف

الهجرة للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني



يبدو لي من
مراجعة السيرة
النبيه الشريفه
أن الهجرة إلى
المدینه لم تكن
عفوًا ولا كانت
من وحى الساعة،
وإنما كانت خطة
محكمة التدبير طال
فيها التفكير بمد
أن تنجح إليها

الدهن اتجاهًا طبيعيًا أعانت عليه الحوادث

وكان النبي عليه الصلاة والسلام في أول الأمر يشير على
السلمين الذين ضاقوا ذرعًا بما كانت قريش تنزله بهم من الأذى

وتجارب ومعرفة. وعلى الرغم من مرور كل هاتيك السنين لم تقدم
غير خطوات قليلة في ميدان الرقى بالأطفال. فتلاثة أرباع أطفالنا
إما مصابون بداء الجمل والأمية وهو أسل كل شقاء، وإما جياع
حفاة عراة تنوح بهم الطرقات، وإما مرضى بأدواء شتى بسبب
إهمالهم وحرمانهم حتى من ماء الشرب النقي. وأخشى كثيرًا أن
نظهر في مؤخرة الأمم في الحضارة والرقى إذا اعتبرنا مقياس
التقدم الحقيقي هو مبلغ تغفل مبادئ المطف والانسانية التي تقل
مظاهرها لدينا لسوء الحفظ

وفي ضوء هذه المآسى، ولشعورنا بما قدمنا وما أخرنا، يبدو
لنا الماضي هفليًا حقًا، فتتجه إليه بالعجاب وخشوع، وتحدث عن
آثاره حينًا من الدهر نشعر بمدى من راحة المترف بالفضل
المقر بالذنب

أسماء فريسي
الأستاذة بمعهد التربية. درجة صرف في التاريخ
ودرجة الأستاذة في التربية من إنجلترا

أن يتفرقوا في الأرض، ويتصح لهم أن يذهبوا إلى الحبشة ليأمنوا
الفتنة عن دينهم ويرتاحوا من العذاب الفليظ الذي كانت قريش
تصبه عليهم حتى يأذن الله بالفرج. وأكبر الظن أنه كان يريد أن
يؤمن هؤلاء السلمين على دينهم من ناحية، وأن يحمل قريشًا على
التوجه من طاعة هذه الهجرة الأولى إلى الحبشة عسى أن تنفي
إلى الاعتدال والموادة. ومن الثابت على كل حال أن قريشًا
أزجتها هجرة بعض السلمين إلى الحبشة فبشت إلى التناحي
برسولين منها ومعهما الهدايا ليقنعوا برد هؤلاء المهاجرين إلى مكة،
ولكن لا أظن أنه كانت لهذه الهجرة إلى الحبشة غاية أبعد من
ذلك، فإذ كانت أكثر من معاذ إلى حين، وتدير أبحاث إلى الحاجة
لا اشتدت الحنة بالسلمين، وتلوح لقريش بإمكان المون والمدد من
هذه الناحية. على أن بمد الحبشة واختلاف أهلها وأمتها ودينها
ثم الثورة التي ما لبثت أن شبت على التناحي وكان من أسبابها
إيواؤه السلمين والمطف عليهم — كل هذا كان من شأنه أن
يصرف عن الحبشة ويدعو إلى التفكير فيما هو أصلح منها

واختلف الحال في مكة أيضًا إلى حد ما بمد أن أسلم عمر
ورفض الاستتار والاستخفاء، وشرع يناضل قريشًا ويدفع السلمين
إلى الصلاة في الكعبة نفسها، وأسلم رجال غير قليلين من قريش،
فصارت لحاجة قريش في تمذيب السلمين وتقتيلهم كما كانت تفعل
غير مأمونة العاقبة. نعم ظلت قريش تؤذى السلمين وتسمى إليهم،
ولكن السلمين كثروا وصار محمد يمرض نفسه على القبائل وإن
كان لم يفز بطائل كبير ولا كفت قريش عن مساءاتها إليه

وقد كبر الشأن واتسعت رقعة الأمل، ولكن التفكير في
أمر قريش وفي الراحة من عنتهم وفي الوسائل للتؤدية إلى نشر
الدين بأسرع مما ينتشر في واجبًا ملحًا، ولا سيما بمد أن حوصر
المسلمون في الشعب، وتقتضت الصحيفة، ومات أبوطالب وخديجة،
وازداد أذى قريش، وردت القبائل عما كان يدعوها إليه من
الدخول في الإسلام؛ وتوالت السنين على هذا الحال، فكان من
الطبيعي أن يفكر النبي عليه الصلاة والسلام في غرض حاسم يفرج
الكرب ويزيل الحنة ويفسح مجال الأمل ويوطد الأمر. وأحسب
أن من الطبيعي والمقول أن يفكر في يثرب أول ما يفكر، وأن
تكون هذه أبرز ما يبرز وأول ما يخطر على البال وأسبق ما يرد
على الخاطر، فقد كانت يثرب طريقه في الزمن السالف أيام كان

يسهل في التجارة ، ولم تكن طريقه فقط بل كانت له بها علاقة تجارية أيضاً ؛ وله فيها عدا ذلك بمض ذوى القربى ونمى بهم أحوال جده من بنى النجار ؛ ثم إن أباه عبد الله بن عبد المطلب مدفون فيها ، وقد كانت أمه في حدائقه تزور هذا القبر في كل عام ، وكانت تستصحب ابنها معها . وقد شاء القدر أن تمرض أمه وهي عائكة من إحدى هذه الزيارات وأن تموت وتدفن في الطريق بين مكة ويثرب . فإنا من شك في أن يثرب كان لها نوبة بقلبه وعلوق نفسه فأبسه أن ينسى طفولته وشمه وأباه الذين هناك وأمّه الزائدة في الغلاة على طريقها

وقد كان النبي صلوات الله عليه يمرض نفسه على القادمين من يثرب كما كان يمرض نفسه على رجال القبائل الأخرى ، فأسلم أولاً من الأوس واحد ، ثم أسلم من الخزرج نفر استجابوا لدعوته وحدوثه بما بين الأوس والخزرج من المداوة التي تبها اليهود فيهم ليظفروا بهم ويتحكموا فيهم . وكان اليهود قد نجحوا في إيقاد نار الفتنة بين هاتين القبيلتين ، ولكنهم نجحوا في أمر آخر لم يكونوا يقصدون إليه ، فقد كان اليهود وهم أهل كتاب يذمون إلى الأوس والخزرج ما هم فيه من الوثنية والشرك . ويحدثونهم عن دينهم وكتابهم ، فتركوا في نفوسهم أثراً روحياً لم يكن لثله وجود في أهل مكة . وقد عرف النبي عليه الصلاة والسلام هذا كله وعرف أيضاً أن الفريقين المتعادين — الأوس والخزرج — قد فطنوا إلى ما هم فيه من الشر ، وانهوا إلى أن يجمعهم الله بعد طول المداوة ، وأدرك أن دعوته خليفة أن تلقى هناك من حسن الاصفاء وطيب القبول ما لا تظفر بمثله في مكان آخر وبلد غير يثرب . وقد صدق ظنه وفتحت القلوب في يثرب لدعوته ؛ ولم يحض إلا عام واحد حتى جاءه رجال من يثرب يبايعونه البيعة التي تعرف ببيعة العقبة الأولى على ألا يشركوا ولا يسرفوا ولا يزونا ولا يكذبوا ولا يعصوا الله . وبما يدل على قيمة هذه البيعة أن النبي احتاج أن ينفذ إلى يثرب من يقرئ المسلمين بها القرآن ويملهم ويثقفهم في الدين . وكانت هذه فاتحة ميمونة لا تنتشر الإسلام في يثرب على صورة جديدة وفي نطاق واسع

وكان مقام المسلمين في يثرب طيباً محموداً لا أذى فيه ولا مشقة ، فغير معقول ألا يفكر النبي في اتخاذ يثرب مهجراً للمسلمين الذين يماون الأوس في مكة ، ولذفسه أيضاً إذا كان لا بد من ذلك ولا معدى عن ذلك ... إن التفكير في ذلك هو

تفكير يمت عليه ويوحى به واجب الدفاع عن النفس . يدل على ذلك أن النبي في العام الثاني — لما قدم مكة عشرات من مسلمي يثرب — لقيهم واقترح أو طلب أن يقدم مع مسلمي يثرب حلفاً دفاعياً لرد عدوان المشركين . وقد تم له ما أراد وعقدت بيعة العقبة الثانية وهي أول تدبير عملي في سبيل الدفاع عن النفس . وقد أزعج خبرها قريشاً جداً فاضطربت وأشفقت وذميت تسمى تستوثق من الخير ، فإن صحة الخير معناها ذهاب كل أمل في التئلب على النبي ... وقد بلغ من جزعهم من هذا الحلف وحجة تقديرهم لمواقبه المحققة أن قريشاً انتمرت بالنبي تريد قتله ودبرت ذلك فعلاً وأحكمت التدبير كما هو معروف مشهور ، فأدى ذلك إلى التجهيل بهجرة النبي نفسه

وقد كانت الهجرة في سبيل الله والدفاع عن النفس ولكنها أدت إلى أمور شتى . فقد كان النبي في مكة حسبه أن يبقى أذى قريش ويتجلبد ويصبر على عنهم واضطهادهم ، فلا هاجر لم يبق لشل هذا الصبر مسوغ ، ولا بالمسلمين إليه حاجة ، وقد كثروا وصارت لهم قوة من جوع الأنصار والمهاجرين معاً . ففى وسعهم أن يردوا الأذى بالأذى ويقابلوا المدوان بالمدوان . ثم إن كثرة المسلمين في يثرب جعلتهم جماعة يجب فضلاً عن تثقيفهم في الدين تنظيم أمورهم والنظر في مصالحهم وإقامة علاقاتهم بتسيرهم على قواعد مرضية . وقد بدأ التشريع الإسلامى بعد الهجرة ، وبدأت كذلك الحروب باللسان ثم بالسلاح ، وبدأ الترض لتجارة قريش . ولا حاجة بنا إلى التفصيل فانه تاريخ معروف ؛ ويمكن أن نقول إن الهجرة أتاححت للمسلمين أن يكونوا أمة ، وأن ينتظموا كما تنتظم الأمم ، وأكسبتهم مركزاً تسمى لهم بفضل أن يتحكموا في مكة اقتصادياً وحربياً أيضاً ؛ وقد انتهى الأمر بالفعل بفتح مكة وإعلاء كلمة الله

ويكنى للدلالة على ما كان للهجرة إلى يثرب من قيمة في التاريخ الإسلامى أنه لما أريد بعد ذلك تأريخ الحوادث أشار عمر ابن الخطاب رضى الله عنه باتخاذ عام الهجرة مبدأ لهذا التاريخ . والواقع أن هذه الهجرة كانت هى الباب الذى فتحه الله للنشر الدين وإعلاء شأنه والقضاء على الشرك والكفر ، وجعل من العرب أمة لها في العالم مقام وفي حياته أثر . ولو أن الهجرة كانت إلى الحبشة لما أثمرت شيئاً من هذا ، ولخرج الأمر على كل حال من جزيرة العرب ، ولكن الأراجيح ألا ينتقل العرب إلى حال أخرى .

مَجْدُ الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ

لِلْأَسْتَاذِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ شَكْرِي



في سنة ١٩٠٩ كنت في جامعة من جامعات إنجلترا، وكانت أحد أساتذتنا في الجامعة قد دعاني إلى وليمة أعدها إلى كادعونه إلى مثله؛ وكانت هذه الدعوات عادة الأساتذة والطلبة، فجلسنا إلى مائدة الطعام ولم يمتنعنا من الحديث فيما هو عملنا ومبحثنا

وهو التاريخ كما تفعل كل طائفة، فإن الناس لا يمتنعون حتى في مباحثهم وأوقات راحتهم عن الحديث في أعمالهم اليومية. ولما

ولو أنها كانت إلى اليمن مثلاً لكان الأقلب أن نبقى مكة بمزول عن الإسلام، ولكن المدينة كانت على طريق التجارة إلى الشام، فألقى يستولي على الأمر فيها يتسلط على مكة ويتحكم في حياتها كما حدث بالقمل

ولاشك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يفكر في المدينة من زمان طويل قبل أن يقصد إليها، فقد كان كل شيء يدهو إلى ذلك: حنين قلبه ومصلحة المسلمين في الدفاع عن أنفسهم أولاً ثم في التغلب على مكة والقضاء على شرك قريش. ولعل من الدلائل على طول التفكير وأنباء النفس وعلى الإيحاء أيضاً أن النبي كان أول الأمر يتجه في الصلاة إلى المدينة جاعلاً قبلته المسجد الأقصى، فلما انتهى هذا الدور جعل الكعبة قبلته في الصلاة فوجه المسلمين صوب مكة حتى استولى عليها

أبراهيم عبد القادر المازني

حاشية — لا أحب أن يفهم أحد أن اتخاذ الكعبة قبله كان القصد منه الإيحاء إلى المسلمين بالإيحاء إليها والرغبة في الاستيلاء عليها، فما أريد أكثر من أن تحويل القبلة إلى الكعبة كان هذا بعض نتائجها (المازني)

كان الإنجليز أمة تجار وتكثر في إنجلترا الدكاكين فقد اشتقوا في أنفسهم عبارة يعبرون بها عن هذه الظاهرة. فكلما تكلمت طائفة في أمر من أمور أعمالها اليومية قالوا إن حديثهم كان دكاناً أو عن الدكان حتى ولو كانت الطائفة من المشتغلين بالعلم وليس لهم دكان

فأخذنا في الحديث عن التاريخ والحضارات، وكان أستاذنا صاحب الدعوة قد عودنا الصراحة في القول والتفكير والبحث، فكان لا يمتنع رأيه في أمور حضارتنا كما كنا لا نمتنع رأينا عنه في أمور قومه وتاريخهم وحضارتهم. وكانت المناقشة لا تمتد إلى الوقار والأدب. فقال الأستاذ إن التاريخ يدل على أن مظاهر الرحمة في الحضارات والدول الأوربية قديماً وحديثاً كانت أعظم من مظاهر الرحمة في الحضارات والدول الشرقية، وقال إن هذا يدل على أن الحضارات الأوربية قديماً وحديثاً أرقى من الحضارات الشرقية، وكان الأستاذ يعرف حوادث تاريخ الشرق والغرب في القرون الوسطى لأنه كان أستاذ تاريخ تلك العصور فذكر لنا قصة رجل خرج على الرشيد فظفر به الرشيد ومثل به تمثيلاً شنيعاً، ثم ذكر قصصاً عن سلع بعض الفاطميين أسرى من أسراهم وهم على قيد الحياة. فقلت يا أستاذ: هذا تنميم كبير، ولا يتفق مثل هذا التنميم مع العلم الذي يتقضى فروق الزمان والمكان واختلاف طبائع الناس وحكاهم وتباين آرائهم وميولهم النفسية؛ وذكرت له كيف أن سيدنا علي بن أبي طالب (رضه) عندما أسأبه عبد الرحمن بن ملجم أوصى قبل موته ألا يمثلوا بقاتله. وذكرته بالتمثيل الشنيع الذي كان حظ من يحاول قتل أمير أو ملك من ملوك أوروبا في تلك العصور؛ وذكرت له قصصاً من قصص عدل الخلفاء الراشدين وأخرى من قصص حلم معاوية للدلالة على اختلاف الطبائع وسموها، فذكرت فيها ذكرت قصة المرأة التي لم تجد قوت هياها وكيف بكى عمر بن الخطاب (رضه) من خشية الله عندما سمع سباحها واستفاتها، ووصفت اهتمامه وخدمته لها وهو خليفة وحاكم من كبار حكام الدنيا؛ وذكرته بتقريب الإغريق وهم منبع النور والرحمة والعلم والحضارة في أوروبا إلى آلتهم بالصحايا البشرية في عصر من أزمى عصورهم وهو عصر حربهم مع الفرس، فقد أسروا أولاداً سفاراً من بيت

الأمارة في فارس قد قدموا نحايالهم كي تمنحهم النصر. وذكرته بالرومان وما جره ازدرائهم للحياة البشرية من الفظائع، وقلت إن القسوة ليست مقصورة على الشرق، وليست الرحمة مقصورة على الغرب؛ وذكرته بفظائع الأشراف والأمراء في قلاعهم في المصور الوسطى وما نال اليهود وغير اليهود من أهوال؛ وذكرته بجرائم عصر إحياء الملوم وهو من المصور الأوربية الزاهرة وأساس حضارتها الحديثة؛ وأشارت إلى محاكم التفتيش وتمثيلها بضحاياها؛ وذكرته بالفظائع الدينية والسياسية في عهد أسرتي تيودور وستوارت، وقبلها في عهد أسر بلا تاجت ويورك ولانكستر؛ وذكرته بفسوة القانون الذي كان يشق الطفل الصغير الجائع من أجل لقمة، وبمغالة رجال القانون في أوروبا في المصور الوسطى مغالة أدت بهم إلى محاكمة الحيوانات المعجم وشنقها أو إعدامها أو التمثيل بها بعد محاكمة طويلة ذكرتها بقول الشاعر العربي وهو يسخر من حاكم أحمق:

أفاد لنا كلباً بكاب ولم يدع دماء كلاب المسلمين تضيق
وذكرته بالويل والهلاك وكأنا نصيب كثير من النساء اللواتي كن يهمن بالسحر في أوروبا حتى في المصور القرية المتحضرة.
ثم ذكرته بما كانت عليه أوروبا من القسوة والهمجية بينما كانت مظاهر الرحمة والنور تنبعث من أسبانيا العربية. وذكرته بما كان يرتكب في الحروب الدينية في أوروبا من قسوة لا حد لها وتمثيل شنيع؛ وذكرته باستعباد الأطفال والنساء في المصانع قبل التشريع الحديث؛ وذكرته بأسبانيا وما صنعت مع العرب واليهود، وما ارتكبه في ممتلكاتها الأمريكية مع الهنود المحر من فظائع تشعر منها الأبدان، وما فعله المخاطرون الأوروبيون في جزر المحيط الهادى من قسوة، وما فعله رجال بعض الدول الأوربية — حتى في عصرنا هذا — مع السكان الأمنين في أوقات الحروب من قسوة وتعذيب وتقتيل وتمثيل. قال الأستاذ: كل هذا لا شك فيه، ولكن كان الحكم في أوروبا إذا فعلوا شيئاً مما ذكرت يمدون في شعوبهم من يجرؤ على قدم؛ أما في الشرق فلا. فذكرت له كيف كان الواعظ يدخل على الخليفة فيقرعه حتى يبكي كما فعل أحدهم مع هرون الرشيد، وذكرت كيف أن من القضاة من كان يزهد في منصب القضاء وإن أودى من أجل رفضه. قال الأستاذ: ينبغي إلى أن الحكم على حياة أمة من الأمم حكماً عاماً من حيث مظاهر

الرحمة أو القسوة فيها من الصعوبة بمكان، أو لعله ليس من المستطاع؛ لأن المؤرخين لم يكن ميزانهم للحضارات وقياسهم لها بميزان الرحمة ومظاهرها فلم يحصوها كلها، ولو فعلوا لاستطعن أن يحكم بإحصائهم. قلت: إذاً لا نستطيع أن نقول على التعميم إن مظاهر الرحمة في الحضارات الأوربية كانت دائماً أكثر من مظاهرها في الحضارات الشرقية أو العربية الإسلامية. قال الأستاذ: ربما كان الأمر كما تقول، ولكن العرب أصلهم قوم بدو، والرحمة في كثير من الأحيان لا تصل إلى قلوب البدو، لطبيعة أرضهم الجرداء القاسية وصوصة نيل الرزق، فأعنتهم أرضهم القاسية بقسوتها. ولعلك تذكر غارات القبائل بعضها على بعض حتى بعد الإسلام، وما كان يحدث في تلك الغارات في بمض الأحياء من قتل النساء والأطفال. ولعلك تذكر أيضاً كيف كانوا يملكون الحجاج الذين يقصدون مكة. ومن أجل هذه الطباع فبهم دخلت الحدود في الإسلام لتكبح جماح البدو، وأريد تطبيعها في بلاد طبيعة أهلها وطبيعة أرضها غير هذه الطبيعة. ومن أجل شدة الحر في بلاد العرب وإطلاق البدو أنفسهم على سبيلها دخل في الإسلام رجم الزاني ثم نقل إلى بلاد أخرى. قلت: يا أستاذ فرض على الحاكم أن يدرأ الحدود بالشبهات، وذكرت له قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبي بكر، وكيف أنه جعل يتلمس الشبهات في شهادة الشهود حتى نجى الرجل من حد الزنى، وذكرته أن التميز من عقوبات الإسلام، وذكرته بما يفعله الناس في أمم أوروبا وأمريكا إذا قصر القانون أو استبطلوه، فإنهم يحتفظون التهم وماقبونه أقصى عقاب، وقد يتلون به أشنع تمثيل؛ وقد يكون الرجل بريئاً مما نسب إليه. وذكرته بما تفعله أحدث الدول الأوربية إذا اضطرب جبل الأمن في بقعة شرقية. وقلت له إن الحدود لم تمتع انبعاث مظاهر الرحمة والنور في أسبانيا العربية بينما كانت أوروبا غارقة في بحر من ظلمات الجهل والقسوة، ويشهد بذلك كثير من المؤرخين الأوربيين

وإلى هنا انتهى حديثي مع ذلك الأستاذ الجامعي بعد أن ذكرته بأن سوء ظن الأمة بالأمة، وأهل الفارة بأهل قارة أخرى، هو من قبيل سوء ظن الإنسان بإنسان آخر لا يعرفه أو لا يعرف عنه إلا القليل، وهي ظاهرة في النفس الإنسانية عامة

وقد ظهر أثر العرب في التحاق أبناء الأغنياء الأوربيين بمدارسهم ، وكانوا يتجشمون الأسفار من أجل ذلك . وقد تعلم في مدارس العرب بعض رجال الدين المسيحي ومنهم البابا سلفستر ؛ ونشر العرب مبادئ الفروسية وأخلاقيها وسجاياها من شهامة ونجدة ظهرت في بدء عصر الفروسية ، وكان لهم أثر في تكوين آداب اللغات الأوربية الحديثة ، فظهر أثرهم في شعراء الرومانس والتروفر والتروبادور كما ظهر في آراء المصلحين الدينيين وفي رحلات الكشف

والمؤرخ (ما كاب) رأي يتفق ورأيه الديني وهو أن الحضارة العربية في الأندلس لم يقض عليها الترف والتنعم والضعف ، وإنما قفى عليها التمسك الديني من جانب الأسبان المسيحيين بعد أن أضفها التمسك من جانب المராيطين والوحديين وإن صدوا الأسباب عنها زمناً . ولا يقصر هذا المؤلف وصفه على الحضارة العربية في الأندلس ، بل يصف الحضارات العربية في بقاع أخرى ولم يكن العرب وحدهم بناة هذا المجد وهذه الحضارة ، بل اشترك في بنائها الأمم التي اعتنقت الإسلام وتعلمت اللغة العربية حتى صارت لغة لها

عبد الرحمن شكرى

يحتوى فيها العالم والجاهل والفطن والنبي والمنصف والظالم أقول إن هذه الظاهرة هي سبب ما نراه من نكران بعض المؤرخين الأوربيين لفضل العرب على الحضارة الأوربية أو تهوينهم أمر أثر العرب في تلك الحضارة ، فبعضهم لا يقرون للعرب إلا بأنهم كانوا غنطرة عبرت عليها علوم الحضارة الأغريقية الرومانية إلى الحضارة الأوربية الحديثة ، وبعضهم يقول إن الحضارة الأوربية كانت نامية لا محالة حتى لو أن أوروبا لم تتأثر بالحضارة العربية . ويقول إن العرب لم يكونوا كل مصادر الحضارة الأغريقية ، وإن المصادر الأخرى الأوربية كانت أجدى وأنفع وألصق . وبما يؤسف له أن بعض الشرقيين قد جاروا هؤلاء في دعواهم من غير تقص ولا بحث عميق

إن الحضارة الأوربية كانت حقيقة نامية لا محالة لأسباب داخلية في تاريخها ؛ ولولا استمداد الأوربيين للتأثر بالحضارة العربية ما أمكنهم قبولها ؛ واستمدادهم هذا يدل على بدء نمو الحضارة فيهم ؛ ولكن هذا لا ينفي أنهم تأثروا بالحضارة العربية تأثراً كبيراً . ولا تزال للمركة الكلامية قائمة بين من يمجّد أثر العرب في الحضارة الأوربية ومن يقلل من أثرهم من المؤرخين . والفرق الثاني ينظر إلى الصوب وينقل عن الحسّنات ، فينظر مثلاً إلى إضاعة بعض علماء العرب وقتهم وجهدهم في محاولة كشف إكبر الحياة أو حجب الفلاسفة ، وينقل كشوفهم المديدة وفضلهم على العلوم الحديثة على اختلاف أنواعها ، فيغفل فضلهم في نقل الورق إلى أوروبا ، ولولا ما أجدى اختراع الطابع ونمذجتها ، ولا كانت للحضارة الحديثة مظاهرها الشاملة ؛ وينقل ما نقلوه إلى أوروبا من المنوعات والنسوجات والمزروعات المختلفة ، وما أعطوهم من غنرات مثل الأسطرلاب وبيت الآبر والمعدة ؛ وينقلون فضلهم على الطب والتشريح والفلك والعلوم الرياضية وأنواع الهندسة والكيمياء ، كما يقلل أثرهم وقوتهم في وسائل الري وإعداد المدن بوسائل الراحة والرفاهية والنظافة كما فعلوا في إسبانيا وغيرها . وينقل أثرهم في العلم والتعليم وكيف انتشر التعليم والاشتغال بالعلم انتشاراً لم يكن له مثيل . وقد أقر المؤرخ دريير في كتاب (نحو الفكر الأوربي) بهذا التمسك ضد الحضارة الإسلامية كما أقر به ما كاب في كتاب (مجد إسبانيا العربية) .

قريباً :

توفيق الحكيم

في كتابه الجدير

عصفور من الشرق

قصة روائية كبرى تضع الشرق وجهاً لوجه أمام الغرب ، متجريدن عاريين ... من بطالهما يجد المفتاح المفقود لمر الشرق وروحه ...

يطلع الآن بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر في طبعة محدودة ، احجزه من الآن بالمكتبة التي تاملها

الى موجع الجامعة المصرية

محمد يرجع !

للأستاذ عبد المنعم خلاف



محمد يرجع
ويعمل عمله من
جديد في نفوس
الشباب ويناديهم
إليه ليربهم في
المهد التي أنشأ
فيه نفوس أبوتهم
الأولى

وهم يلبون
نداءه سراعاً ،
خفافاً وثقالاً ،

وفي طليمتهم ملك ... لأنهم أدركوا بيداه الشباب وإحساسه
بمحاجات زمانه أنه نداء لا يمكن أن يعلو عليه لفؤ أو يحجبه نجيب
وقد سارت إليه جماعات منذ سنوات تسمعه ينطق في القرن
العشرين جديداً عجيباً غريباً كما كان جديداً عجيباً غريباً منذ
ألف وثلاثمائة

يبدأن أدعى جماعة إلى الالتفات إليها هي هذه الجامعة الجامعية
التي يحدوها عقل « أمين » وروح « غرام » وخلق « العبادي »

لقد افتتحت الجامعة حياتها بروح تمرد وثورة على محمد ...
ولكن من هذا الذي يقالب محمداً ولا يُنلب، ويحتك بروحه ولا
يمغطس ويجذب ؟ لقد استطاع روح الحق الذي تمثل فيه أن
يكب كل عنيد على ذقنه ساجداً ، ويأخذه إليه طائفاً أو كارهاً .
وقد عودنا تاريخ دعوته أنها تنمو حين تقاوم ، وتبدو حين تحجب
ألم ينزُ التثار دياره ، ويخربوا آثاره ، فغزا قلوبهم ودوخ
ردوسهم ؟

ألم يرد الصليبيون محوه فجاء خرافاتهم وضلالاتهم وفتح
أعينهم على مبادئ الحياة الجديدة ؟
ألم يعزم المستعمرون على تكبيل أهله بالقيود الأبدية فأضرم
من ناره على الحديد فأساله ، وأذاب أغلاله ؟
ألم يحاول المخدوعون الخالون أن يهدموه في نفوسهم ونفوس
أمتهم فإذا به يعلو ويعلو فيخفق أصواتهم ويحطم معاولهم ثم
يضطرم أخيراً إلى البناء فيه ؟

من معجزات الاسلام أنه عزته اليوم تبني على أيدي أحرار
الفكر الذين أعلنوا في كل مناسبة أنهم يؤمنون بحرية البحث .
وكان القدر يقول للناس : هؤلاء الذين تظنونهم سبب شكوككم
قد آمنوا فأمنوا

ومن العجيب أيضاً أن الحج الذي هو منطقة كثير من
التعبدات والرموز يكون أول مظاهرة روحية عملية تقوم بها
الجامعة العقلية !

والأعجب أن تنبت الفكرة في الجامعة لا في الأزهر !
حدث عظيم في طريقنا إلى الحياة القوية لا ريب !

حج مبرور من بُناة العقل إلى أرض الروح . الروح الذي
لم يجدوه في الدفاتر والخاير فراحوا يبحثون عنه في الصحراء ...
الكتاب الكبير المسطور بالمال الخالدة والكلمات الصامتة التي
قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شاب مثلهم ففهم بها
خبر السماء وطلسم الوحي

لا أستاذية ولا « دكترة » ولا مخابر ومناير ، وإنما هناك
هياكل خالدة عاصرة أبدأ بالنجوم ، ومخارب يسجد فيها الصباح
والمساء ، ومنصات تقف عليها الطبيعة صامتة متجردة لا تلشع
« بالروب » ولا تهز ذقتها كما يهز العلماء لحام حين يلقون الدروس !

عشتم أياماً في التاريخ ، على هامش الحياة ، في مركز الأرض ،
في مهد الإنسان ، في حضن الأم الوالدة ، في مكان الخائر ،
في البدايات

التفتت إليكم الجبال والرمال والآثار التي تعزف محمداً وأنخاب
محمد من الشباب ، إذ كنتم أول فوج عجيب زارها في القرن
العشرين ، ففرقت أن الزمان يتمخض عن شيء

« الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض »
فيجب أن تبدأ الإنسانية عهداً جديداً

وحقيق على من رأى معالم البدء والنهاية من جهاد الرسول
الأعظم أن ينقل صورها إلى كل نفس ، وأن يحافظ على حياتها
دائماً في قلوب الناس وأفكارهم حتى لا يطمسها جهل أو غفوق
ومسألة المسائل أماننا وأمانكم أن تؤمن وأن نعلم وأن نعمل .

فأعمالنا لذلك عمل النفعين الذين يدركون شقاء الناس
والملاج الذي في موارد الرسول الأعظم

ليس يفتينا علم ولا فلسفة إنما لم يكن لنا إيمان ... لأن العلم
والفلسفة من مخلوقات الانسان .. ولين يبعد الانسان ما قد خلق
ويصدق به ... أما الإيمان فهو الكثر الخفي الذي نتفق منه سرّاً
وجهرّاً ولا يفقد ، فنحن به في غي دائم لأننا منه في فيض دائم .
وقد تحطم الإنسانية بالعلم ، وقد تهذى بالفلسفة وتفرق بها
شيئاً وقبائل ، ولكنها تبقى دائماً بالإيمان وتلتقي في قنوسه ورحابه
فزاوجوا بين ثلاثة الأغاني هذه وأخرجوا منها معنى الحياة
الخالدة للإنسانية الفانية التي تأتي إلى الدنيا ولا تعرف لماذا أتت ..
وتعطي إلى الأخرى وهي تحسب أن كل تاريخها في الأرض قبر
من القبور ...

أشبعوا الكائنات الإنسانية الثلاث التي أشار إليها
« برندانوسل » .. أشبعوا « كفاية الاعتقاد » بالدين ، وكفاية
الإنبات « بالعلم » ، « وكفاية التأمل » بالفلسفة حتى توجدوا
النفس الكاملة

وتلك رسالة الجامعة وهي تدركها لا ريب .

« بنسداد » هبة المنعم ممدوف

أعظم مؤلفات
الاستاذ الشامسي
كتاب
الاستاذ الصالح

مكتبة الورع ، شارع الفلكي (بازار الورع)
دمشق ، مكتبة العربية مشرفة

ناقلهم الخطا على مواقع أقدام رسولكم الأعظم وتلاميذه
الأبطال ... فأحاطت بهم الأرواح والأطياف لتتظرباعهم الريح
الجديد وتربها ، وتعمل سحرها فيها

سيكون لكم في التاريخ الجديد ما كان لتقباء « بيمة العقبة »
في التاريخ القديم ، يا تقباء الجامعة . فافهموا ما يشير إليه الزمان

وقفتم في مركز الدائرة التي يغيب المسلمون على محيطها
بالاعتقاد في الله الواحد ، وبالسواوة في الشرع الواحد ، وبالأخوة
في الدين الواحد ، وحياء المسلمين في الشرقيين والمغربيين تحيط بكم
من جميع الآفاق ساجدة بصعد إلى الله الأعلى كلها الطيب وعفوها
الطاهر ... ونسافر إليكم نظراتها مخرقة الحجب والمندود حتى
تري في النيب ما ترون في الشهادة ...

تجردتم عن الخيط من الثياب وعن الزينة والنمومة والقطرية
وخرجتم نساء كشمساً غيراً طالت أظفاركم وتهللت شعورككم ، وكل
منكم فاحل ضامر في استغراق روي عميق ، فكلت المادة طاهر
الخلق ... إنه مشهد « سينماي » جميل تمثلون به حياة الأنبياء ..
فصلوات الله عليكم :

نقل الله لكم ناس الدنيا جميعها لتسمعوا النشيد الخالد يرتلونه
مجتمعين بلغة « الكتاب » لغة الأمة الأمية الخالصة ... ولتعرفوا
معنى التوحيد الذي أراد الإسلام أن يطبع الإنسانية عليه ...
ولتروا الأحلام الكبيرة التي طافت بمقول الفلاسفة ، حقائقي
وأجساداً نمشي على الأرض في « المدينة الفاضلة » الآمنة ...
أم القرى

هل يمكن أن يخرج مثل هذا أكبر فنان ؟ لا فالواقع هنا
أكثر من الخيال ، فلا حاجة إلى الكلام أو الأصابع ...

رأيتهم بدء النور في « غار حراء ... » ، وبدء المحنة في شهاب
مكة ... وبدء الفرج في « غار ثور » ، وبدء الأمل في « بدر »
وبدء البذل في « أحد » ... وبدء النصر في « الحديبية » ،
وبدء الوحدة في مكة

ورأيتهم نهاية النبوات ، وخاتمة الرسالات تسكن أشباراً من
الأرض الفاحلة بدءاً من صاحبة في آفاق المشرق والمغرب والشمال
والجنوب « بالكلمة العليا » التي قام عليها صلاح العالم ، وبأن

ذكرى الهجاء

طريق الجهاد

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

— قم باسم ربك للجهاد وناضل —

واصدع بصوت الحق صوت الباطل
لا رهبتك من قریش عصبة
أترك منازلهم واخل ديارهم
دعهم يثيرون القلوب سخائم
ويجربون عليك كل مستفهم
مهمات ما لحقوا بمدك بطالع
(الشرك) لم تفتح لديك شراكة
يوماً ولم تقفر لديك بطائل..

— يا أيها الواعي رسالة ربه —
قوم بهذا السيف ركن للنحنى
واهجم على الباغي بغير تهجم
وأضئ سبيل المشركين ولتهم
واطلع كما طلع الربيع مبشراً
وانشر على الدنيا السلام وقل لها
واجمع من الشمل المفرق أمة
قامت إلى (كسرى) تلك بناءه
ومشت (قيصر) في علاه كأنها
البرئ سيال الأباطح حافل —

— آذاك قومك فاحتملت لأجلهم —
وصبرت والدنيا تهون لصابر
يا أوسع الدنيا العريضة فكرة
من كان في الله الكريم جهاده
عاداك أهلك في الديار وأسرفوا
نفسوا عليك بأقنص مشبوبة
عنت الجورج وسوءة المتحامل
وحملت والبلوى تخف لحامل
أبيض صدرك بالخيال الزائل؟
لم يعنى من عبده الحياة يكاهل
واستنجد الخذل بالمتخاذل
تغلى بنار الحقد غلى سراجل

عادوك لما كنت أكل عقدم والناس أعداء للثال الكامل
إضرب بسيف الله كل منافق ***
واصدع بأمر الله إن سبيله وضح العالم مستقيم الداخل
واظهر فإن الله جارك في الوعى وسهام قوسك في الزحام القابل
لا تحش من تلك المجموع فإنها عند اشتباك الأمر جد قاتل..

— يا أيها الهادي بذلت على رضى —
والنصر عاقبة الكريم الباذل
وضحت دلائل من هداك وضوأت
(وقريش) سائرة بغير دلائل
يمشون في الجهل القديم وقيدهم وظلامه كالمائر الشاقل
ما ضر لو تبعوا خطاك وأخذوا السلم في الربع الأمين الآهل؟
لكنهم رجعوا إلى أجنادهم.. واستعصموا منهم بركن مائل..

— يا أيها المعصوم حسبك قومة —
الله مالتى الهدى من جاهل
مالت (قريش) إلى الهوى وتآخرت

— وأسما جاهلها الكبير لعاقل —
كان «الإله» بها صناعة ناحت ووليد أئمة وطعمة (١) آكل؟
عميت محجبات البيان وأشككت وتشابه الصوال بالمتصاول...
وطنى على أرض الجزيرة جارف كالسيل في إثر الغمام الماطل
غطى على «قيس» فأغطش ليلها واجتاح ما أبقى الزمان (برائل)
فوضى.. فاسعدوا برأى صالح فيهم ولا ظفروا بحكم عادل

— جاهدت لله الكريم فلم تفلح —
لهوى ولم تمنح لرأى باطل
حتى إذا آذاك قومك لم تجد غير الرحيل فكنت أشرف راحل
يوم بدأت به الحياة جديدة لله واستأقنتها من قابل...
(الفتح) جاءك فيه بين أسنفر

— (والنصر) جاءك فيه تحت عوامل (٢) —
ذكرى سنحيتها لعل طريقها يهتدى الشباب إلى الطريق الخافل

مدرسة للتصويرة الثانية محمد عبد الغنى حسن

(١) كان يهتدى عباد الجاهلية صنع صنما من العجوة ثم أكله... ١٠٠

(٢) العوامل جمع عامل وهو قائم الرمح

الحكومة الإسلامية الأولى

للاستاذ الشيخ علي الخفيف
مدير المصاحف

دعا النبي صلى
الله عليه وسلم إلى
ربه . فبدأ دعوته
في مكة حيث نشأ ،
ومكث بها داعياً
ثلاث عشرة سنة
تبعه فيها السابقون
الأولون من
الؤمنين وهم قليل .
فأوذوا في أنفسهم
وأموالهم وفتنوا
في دينهم ، وحيل



بين الدعوة وبين ظهورها ونشرها ، كما منع الناس من أن يطرق
الحق آذانهم أو تصل الله كرى إلى قلوبهم . وكان ذلك بأيدي
أولى القوة والحماية ، وبأعين أهل الحكم والولاية . وكان المؤمنون
يومئذ فئة قليلة لا يملكون قوة ولا يستطيعون دفاعاً ولا يجدون
أمناً ولا عدلاً . فلم يجدوا سبيلاً لحياتهم إلا الهجرة من ديارهم
هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهاجر إليها
المؤمنون من قبله ومن بعده يبتغون فضلاً من الله ورضواناً
وينصرون الله ورسوله ، فغلبوا على الحب والسمة بين إخوانهم
وحلفائهم من الأوس والخزرج الذين آزرهم ونصروهم وأشركوهم
في ديارهم وأموالهم ، وعقدوا معهم أخوة كوثت منهم جميعاً جماعة
لها من الأمرة توادها وتراحمها وتماطفها واجتماعها على زعيم
رهوف بها حريص عليها ، وفيها كل خصائص الدولة من التماسك
والنصرة والخضوع لنظام واحد ، والسمي إلى غاية مشتركة ،
والاختصاص بوطن معلوم

لقد كانت الهجرة النبوية بداية لعهد جديد افتتح به العالم
طريق كاله الإنساني ، وحياته المفكرة ، ونظيره المستقل ؛ فتغيرت
لذلك وجهة الأمن ، وتبدل مجرى الحوادث ، وبدأ التاريخ فصلاً

جديداً لتطور فكري منشؤه البحث والنظر ، وانقلاب اجتماعي
أساسه المساواة والتعاون ، واكتشاف ديني غابته تركية النفس
وتكامل الخلق . ولم يكن للهجرة ذلك الأثر إلا لأنها هبات
للمسلمين قيام دولة إسلامية قامت بنشر الدعوة وحمايتها وإيصالها
إلى من كان محجوباً عنها . ثم دافعت عن كل من حان بها ، فإذا
الناس يهذيها مهتدون ، وبنودها مستضيئون ، وبهذه مقلدون ،
وبآثارها متمنون

بدأت هذه الدولة يوم أن دخل النبي (ص) المدينة
المنورة ، واستقر بها زعياً للأوس والخزرج ومن هاجر إليهم
من قريش ومن لأزهم من مسلمي العرب ، فنالت منهم
جماعة متحدة جعلت المدينة مقراً لها ووطناً ، واتخذت أوامر
النبي (ص) ونواميه نظاماً وحكماً ، فكانت منهم دولة يحكمها
الرسول له فيها سلطان الحكومة كاملاً ؛ فهو صاحب الولاية
العامّة ، وهو مصدر التشريع ، وله القضاء وإليه التنفيذ ،
يدبر الشؤون ويقود الجيوش ، ويحجي الأموال وينفقها في
وجورها وبرزعها على مستحقّيها ، ويعقد العهود ويقوم على الوفاء
بها وينبذ إلى من نقضها ، ويحمل الناس على الخطئة المثل ويهديهم
صراطاً مستقيماً

وكانت هذه الشؤون على عهد الرسول قرية الغور بسيطة
التركيب رقيقة الحاشية قليلة السدود محدودة المكان ترجع في
بساطتها ورقتها إلى ما ألفوه يومئذ من معيشة بدوية ، واعتادوه
من عادات قطرية ، وتوارثوه من تقاليد طبيعية ، إذ كان
نظام الحكم مستمداً من نظمهم المألوفة عندهم المعروفة لديهم ،
ولكن استمداده لم يتجاوز الصور والأوضاع إلى ما كانت تحويه
تلك النظم الجاهلية من هضم الحقوق الضعفاء ، وظلم للأبرياء ، وأخذ
بالشبهات ، وتصديق بالخرافات ، واعتماد على الترهات ، بل كان
خالصاً من الظلم ، نقياً من الدنس ، بريئاً من العيب ، صالحاً لزمانه ،
ملائماً لأهله ، كفيلاً بتحقيق مصالحهم وتوفير طمأنينتهم وسد
حاجاتهم . ذلك بأن أمره كان إلى الرسول يتلقى فيه وحى ربه ،
ويهتدى في ترتيبه وتديره بهدي ، ويجهتد في تكميله بحكمته
ونظره ، حسبما تقتضيه المصلحة والحاجة ، وعلى ضوء ما يدمو إليه
التطور الجديد وتهدي إليه الحوادث

وتذهب ربحكم» وقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ،
واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته إخواناً » وأمن بها فقال رسول الله : « لو أنفقت
ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم »
وقال عليه السلام : « المسلمون يد على من سواهم »

٤ - الثوري : حض الإسلام عليها فأمر بها نبيه بقوله :
« وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » ، ومدح بها
المؤمنين إذ وصفهم بها فقال : « وأمرهم شورى بينهم »

٥ - النصيحة : ويدخل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر : وقد عني بأمرها الإسلام فجعلها من الدين ، قال عليه
الصلاة والسلام : الدين النصيحة ، قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال لله
ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم . ولعن الله بني إسرائيل لأنهم
كانوا لا يقتضون عن منكر فعلوه ، وقال لبئس ما كانوا يفعلون .
وقال عليه السلام : إن الله يرضى لكم ثلاثاً ثم ذكر منها : أن
تناصحوا من ولاة الله أمركم

٦ - الثأون : فقد أمر به الكتاب فقال : « وتعاونوا
على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان »

على هذه القواعد التي تقيم الحكم على أساس متين وتكفل له
تحقيق أكل غايته قامت حكومة الرسول (ص) في المدينة المنورة
وفيما جاورها من الأماكن القريبة . ولبساطتها وقلة التفرع في
شؤونها وبمدها عن التشعب وعدم سعة أرضها كان أمر تديرها في
جميع نواحيها إليه صلى الله عليه وسلم مباشرة . وساعد في ذلك أن
أصحابه كانوا لأوامره مطيعين ، ولأقواله حافلين ، وبأفعاله مقتدين ،
ينشدون العدل ويطلبون الحق ، يرون سعادتهم في طاعته وترسم
آثاره ، وشقاءهم في مخالفته وتنكب طريقه

وكانت الولايات على عهد الرسول تكاد تنحصر في قيادة
الجند وولاية الصلاة والتعليم ، وولاية الصدقات والأموال ،
وولاية القضاء والمظالم ، وولاية التشريع

فأما قيادة الجند فكانت إليه . يدعو إلى الجهاد ويعبئ
الجيش ثم يقوده بنفسه ، ويشرف على تربيته وخطبته ، فإذا
لم يخرج معه جهد إلى بعض أصحابه في ذلك ممن عرف بالكفاية
في الحروب والحنق بقنوتها والبصر بمكائدها . ولم يكن

من ذلك يتبين أن نظام الحكومة الإسلامية الأولى لم يكن
نتيجة خالصة لتطورات حكومية سالفة ، ولا أثرًا لتورثات ماضية ،
كما لم يكن فكرة أفضت إليها أزمات استعصى حلها ، أو حاجات
تتطلب قضاؤها ، أو اختلاف في طرق الحكم لم يفته إلا بانكشافها ،
وإنما كان هدياً نبوياً وتوفيقاً إلهياً أخذ من النظم المألوفة
والتقاليد الموروثة ما لاءم الفطر واصلح على الزمن وأوصل إلى
الغاية ، ثم نقي منها الفاسد الخبيث مما سار الأهواء وأورثته المطامع
والشبهوات ، ولم يعلُ فيما ابتدعه من ترتيب ووضعه من أسس
ومبادئ عن مستوى الزن ومدارك العامة من أهله واستمدادهم
الاجتماعي وبيئاتهم الحاضرة ، بل راعى في تشريعه جميع ما يلابسهم
ويتصل بهم من ثقافة وتربية وعادات ووطن ودين اختيار لا إعلانه
كلمته ونشر دعونه ، وكذلك راعى الزمن وسيرة الحوادث وتقلباتها ،
والجماعات وتطوراتها ، والحاجات وتغيراتها

لهذا جاءت أسس الحكومة الإسلامية قواعد كلية ومبادئ
عامة جديدة لا يلبسها الزمن ، ومستقيمة لا يقومها التطور ، ومثبتة
لا تتأثر منها الحوادث ، صارمة صريحة سالحة لكل أمة ، ملائمة
لكل زمن ، قائمة في كل مكان . وهذه بعض تلك القواعد نكتفي
بذكر أهمها لأن استيعابها لا يتسع له المقام ولا يناسب الحال :

١ - العدل : أمر الإسلام بأقامته وكرره الأمر به في سور
شتى فآية يذكره كقوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » ،
وقوله : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وآية
بالنهي عن الظلم وكرامة أهله كقوله : « إن الله لا يظلم مثقال
ذرة » ، إن الله لا يحب الظالمين » ، وقوله عليه السلام : « إن الناس
إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم بعقاب
من عنده »

٢ - المساواة : قرر الإسلام مبدأ المساواة في قوله تعالى :
« إنما المؤمنون إخوة » وقوله : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من
ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند
الله أتقاكم » وقوله عليه السلام : « المسلمون كأنتان المشط »
وقوله : « المسلمون متكافؤ دماءهم ويسمى بذمتهم أدناهم »

٣ - التآلف والوحدة : دعا الإسلام في أكثر من موضع
إلى الوحدة وعدم الفرقة ، فقال تعالى : « ولا تنازعوا فتقشوا

ما كان يجمع منها على عهده وحاجة المسلمين إليه وقيامهم جميعاً بالدفاع والنزول . ولم تكن موارد هذه الأموال يومئذ تنمى الصدقات والتناثم والجزية ؛ وكانت مصارفها ما بينته الكتاب الحكيم في قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والنامين وفي سبيل الله وابن السبيل) وفي قوله تعالى : (واعلموا أن ما غنبتكم من شيء فإن الله نحسه والرسول ولدى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) .

وأما ولاية القضاء والظالم فكانت إليه في المدينة المنورة وما جاورها من الأماكن ، إذ لم تكن الخصومات كثيرة إلى الدرجة التي تدعو إلى الاستمانة بغيره . ولم تكن مع ذلك خصومات حقيقية ، بل كان أكثرها لا يمدو أن يكون اشتباهاً في وجه الحق ، فإذا بينه عليه السلام بعد الترافع إليه فما أسرههم إلى الرضا والتنفيذ دون حاجة إلى دافع أو ملجئ . على أنه عليه الصلاة والسلام لم يستغنى عن معاونة غيره في الحوادث التي تتطلب الانتقال ، وفي البلاد النائية التي فتحها الله عليه كالبين والبحرين ومكة وغيرها ، فولى فيها ولاية جمع لهم بين ولاية القضاء والصلاة والصدقات والحرب ، وربما فرق بينها حسبما تدعو إليه الظروف والمصالح

وأما ولاية التشريع فكانت له وحده لأنه إنما أُرسل ليشرح للناس دينهم ويهديهم إلى ربهم ، ويسلك بهم طريق سعادتهم وفلاحهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، لا ينطق فيه عن هوى ، وإنما يصدر فيه عن الوحي ينزل به الروح الأمين على قلبه فيقرؤه على الناس قرآنًا مبينًا ، أو يحديثهم به حديثًا نبويًا ، أو يسلمهم إياه بفعل يأتيه أمامهم فيقتدون به ؛ فإن لم يكن وحي صدر عن البحث والنظر ينتهيان إلى استنباطه الحكم المطلوب معتمداً في ذلك على ما استقر في نفسه من روح الوحي وما يُرآه من مصالح الناس . وليس لغير الرسول أن يتولاها ، وليس له إلا الاجتهاد في تفهم النصوص وتطبيقها على الحوادث ، وإذا صدر منه ما أقره النبي كان شرعاً بإقراره عليه السلام لا بصدوره من صاحبه ؛ غير أن ما كان يليه الرسول أو يأتيه لم يكن كله ديناً بل كان للدنيا منه كثير ؛ وما شرعه في النوع الأول يجب اتباعه

له عليه السلام جيش خاص يقوم بذلك دون بقية المسلمين ، بل كان جميع المسلمين جنداً محاربين لا ينفق من الخروج إلا من أقمده الرض أو الضعف المذبح ، أو لم يجد نفقة ، وكان في ذلك حزنهم وعظيم كربهم ، حتى أنزل الله تعالى قوله : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله يها على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) . كذلك كان ينفق من الخروج من عهد إليه بممل عام في المدينة أو لحقته ضرورة لانفكاك منها ، على أن يكون له سهمه في التناثم . وكانت نفقاتهم في أموالهم وأرزاقهم من مال الله الذي آتاهم أو في أموال المحسنين منهم ممن كانوا يخرجون من بعض أموالهم لهذه الأغراض . ولم يكونوا محصورين في ديوان لعدم الحاجة إلى هذا الإحصاء لأنهم كانوا جميعاً محاربين ، ولم تتخذ سجلات الجيوش إلا في عهد عمر رضي الله عنه

وأما ولاية الصلاة والتعليم فكان عليه السلام يؤمهم في المدينة ويعني بتعليمهم دينهم وإرشادهم أشد عناية ، لأن ذلك كان من أهم أغراض الرسالة . كان يعلمهم بنفسه ، يقوم بذلك في المسجد ، وفي كل مجلس يجلسه ، وفي كل مقام يقومه ، في الحضر والسفر ، والسلم والحرب ؛ وكان يحض المعلم من أصحابه على أن يعلم الناس ، ويشجع من قام بذلك بقيامه على حلقته في المسجد . وكان يستعين في ذلك بأمثل أصحابه يرسلهم إلى الجهات النائية أو القبائل التي دانت بالاسلام ليؤموم ويرشدوهم ويعلموهم القرآن وأحكام دينهم . ومن عنايته صلى الله عليه وسلم بالتعليم أن جعل فداء المسر من أسرى بدر إذا كان قارئاً كاتباً تعليم عشرة من غلمان المدينة

وأما ولاية الصدقات والأموال فكانت جبايتها إلى من يختارهم من أصحابه السالين بأحكامها ، يجمعونها من أهلها في بلادهم المختلفة ويحضرون بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيوزعها لوقتها دون أن يدخر منها شيئاً . ولما لم تكن لهذه الأموال على عهده خزائن لحفظها ولا مجالات لقيدها ، وإنما وجد ذلك بعد وقته صلى الله عليه وسلم . وذلك يرجع إلى قلة

ولا يجوز فيه تغيير ، وما اتبعه في النوع الثاني يصح أن يتأله التغيير والتبديل تبعاً لتطور الزمن وتغير الناس واختلاف العادات ، لأن الشأن فيه أن يسير مع الصلحة ويتقيد بالمنفعة ، فجاز أن ينسحب للبحث وأن يتقبل الخلاف . وكثيراً ما عدل الرسول عن رأيه إلى رأي أصحابه ، وغير من رأيه حين اقتضت المصلحة التغيير . وقد ولي عليه السلام كثيراً من أمور الدنيا بحكم ولايته العامة فسلك فيها سياسة دعت إليها حاجات حاضرة وعادات قائمة ومصالح يومئذ مطلوبة ، فإذا ما انتهت تلك الحاجات وتغيرت تلك المصالح وتطورت تلك العادات كان على المسلمين من بعده أن يغيروا فيها تبعاً لذلك ؛ وقد حصل منهم ذلك فعلا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم في كثير من النظم

هذه هي أهم الولايات على عهد الرسول ولم تقتصر أعمال الحكومة في عهده عليها بل تجاوزتها إلى كثير من الأعمال التي دعت إليها الحاجة واقتضاها ضبط الأمور وتنظيم العمل مثل الكتابة ، والمحاسبة ، والترجمة ، وحفظ الختم ، وحفظ السر ، والممس بالليل والحراسة فيه ، فكان لكل هذه الأعمال عمال من أصحابه يقومون بها تحت رقبته وإرشاده

كان عليه الصلاة والسلام للرجوع في كل هذه الأعمال يقوم على تديريتها وتصريف شؤونها بما يوحى إليه في ذلك من ربه أو بما يهديه إليه رأيه بعد بحث ونظر ومشورة يختص بها أولى الرأي والبصيرة من صحابته كحمزة بن عبد المطلب وأبي بكر وعمر وعلي وغيرهم ؛ فكان عليه السلام يستشيرهم في كثير مما بين من الأمور التي لم ينزل عليه فيها كتاب ، وبخاصة ما كان منها متصلاً أو متعلقاً بالفتوى والدفاع ، فاستشار الأنصار يوم بدر في قتال المشركين ، فقال له سيد الأوس سعد بن معاذ : « والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضه منك » . وأخذ برأي الحباب بن المنذر الأنصاري حين رأى ينزل عند أدنى ماء من بدر فقال له : « أهذا منزل أنزلك الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر أم هو الرأي والحرب والمكيدة » فقال له عليه السلام : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » فقال : « يا رسول الله ليس لك هذا بمنزل ، فأنهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله » فقال عليه السلام : « قد أشرت بالرأي » ثم استشار أصحابه في أسري بدر

وأخذ برأي من أشار عليه بقبول الفداء فمات به الله في ذلك وأقره . واستشارهم في إطلاق زوج ابنته زينب ورد قلايتها التي أرسلت بها فداء إليها . واستشارهم في غزوة أحد أقيم بالمدينة حتى يلقى المدو على أبوابها أم يخرج إليه ، وكان يرى المقام ، ولكنه أخذ برأي الجبهة منهم . واستشارهم في طريقة الدفاع عن المدينة يوم الخندق . ولو أردنا أن نعدد ما استشار فيه عليه السلام أصحابه لطال بنا القول وما أحصينا أكرهه ؛ وإن ذلك ليكنفي في أنه عليه السلام وهو الرحي إليه المعصوم كان يعتمد في حكمته على مشورة أصحابه يبحث معهم الأمر ، يحزبهم ويناقشهم فيه حتى ينتهوا فيه إلى الحق ، فلا يكون لأحد بعد ذلك خلاف . وذلك ما أدبه به ربه عز وجل بقوله : « وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » . وكان عليه السلام إلى هذا عادلاً لا يميز بين أصحابه ولا يكرم عليه من بينهم قريب لقربة أو ذو جاه لجاهه ، بل أنه ليسوى بينهم وبينه فيرضى أن يقاد من نفسه . لقد تقدم إليه بعض صحابته يوماً بما يشفاعة في قطع يد امرأة غزومية فقال عليه الصلاة والسلام : أشفاعة في حد من حدود الله ؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها . ولقد أتاه يوماً رجل يتقاضاه ديناً فأغلظ له ، فهم به بعض أصحابه ، فقال عليه السلام : دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً . وقال له أحد الأعراب وقد رآه يقسم بعض التنازع : إعدل . فأجابه بقوله : فبن يعدل إن لم أعدل ؟ رُحبت وخسرت إن لم أعدل . وصر عليه السلام بسواد بن غزوة في غزوة بدر وهو خارج عن الصف فضربه بالقسيب في بطنه وقال له استقم يا سواد . فقال سواد أوجعتني يا رسول الله وقد بمثت بالحق والعدل فأقذن من نفسك . فكشف له الرسول عن بطنه وقال : استقم يا سواد . فاعتنقه سواد وقبل بطنه وقال إنما أردت أن يكون آخر العهد أن يمسي جلدي جلدك ؛ فدعا له بخير

يرى مما ذكرنا أن حكومته صلى الله عليه وسلم كانت شورية ما أمكن أن يكون للمشورة محل ، لأنها كانت في كثير من الأمور تستند إلى الوحي ، ولم تكن عصمة الرسول وما أعطيه من الدرجة الرفيعة لينمى من أن يستشير أصحابه ، وذلك ليعلمهم البحث ويهديهم إلى النظر الصحيح ، وإلى وسائل الحكم الصالح النتج ، ويشعرهم بوجودهم ويمودهم بمحمل تأييدهم وتفكيرهم

وفي ذلك تطيب لنفوسهم وتوفير لمرضايتهم . وقد كانت رياستها إليه وحده بحكم رسالته واختياره من ربه لإظهار دينه ونشر تعاليمه . فلما توفي كان لا بد للمسلمين من أن ينظروا فيمن يخلفه في تلك الرئاسة العامة ، فكان أول من بادر إلى التفكير في ذلك جماعة الأنصار من الأوس والخزرج ، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ، ولم يكدهم يلتئم اجتماعهم حتى وصل نبؤه إلى أبي بكر وعمر فأسرعا إليهم ، وكان بينهم نقاش وجدل فيمن هو أولى بالخلافة . أيليا أحد الأنصار أم أحد المهاجرين الأولين من قريش ، أم تكون شركة بينهم من الأنصار أمير ، ومن المهاجرين أمير ؟

لم يكن القوم يومئذ داعين إلى عصبية ولا طامعين في تغلب وجاه ، ولا نافسين بعضهم على بعض مرا كرمهم ، ولكنهم فوجئوا بوفاة الرسول دون أن يستخلف أو يسن لهم فيه سنناً أو يشرع لهم فيه شرعاً ، يستنبين به وجه الحق ويتبين به الخليفة ؛ فأسرعوا إلى بحث ذلك خشية الفرقة ، ينتفون الحق ، ويتبينون الصواب ، ويستجلون الصلحة ، فإذ إن خطبهم أبو بكر حتى ظهر لهم جميعاً الحق واندفعوا وراء عمر رضي الله عنه مبايعين أبا بكر ، حتى لقد سبقه بعضهم إلى يده وإن كان أسبقهم إلى طلب بيعته . لقد انفقوا في ذلك الاجتماع على أن يكون خليفة بخلف الرسول إمامته ، وعلى أن يكون الخليفة واحداً لا متعدداً ، وعلى أن يكون أبا بكر رضي الله عنه . وما ذاع ذلك حتى كان فيه رضا أولى الرأي من بقية المهاجرين والأنصار ، فأقبلوا على أبي بكر بالمسجد مقبطين مبايعين ، ولم يترث إلا بمض بني هاشم ، تباطأوا ثم بعد ذلك بايعوا ، ولم يكن تباطؤهم ماعداً دون تمام خلافته وأخذ في مباشرة أسبابها في سيره في حكومته على نهج الرسول

ولقد انتفى المسلمون في أمر إقامة الخليفة إلى نتائج قيمة ونعمات سالحة طيبة ، أضاءها الخلف فخرموا طليعتها ، ومنوا بشرور تجنبها وويلات مجافاتها ، فأصابهم ما أصابهم مما هم فيه من الضعف والهوان حتى أصبحوا أمماً مستعبدين أو جماعات متخاذلين

أولها — أن الخليفة نائب عن الأمة وولايته مستمدة من

ولايتها ، وسلطانه فرع من سلطانها ، فقد اختار المسلمون أبا بكر بعد وفاة الرسول من بينهم وأقاموه خليفة عليهم ليسوسهم ويدير أمورهم وفق كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسهتدياً في ذلك بهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وممتضداً بعشورة أولى الرأي منهم ، فهو وكيلهم في ذلك ومعقد نظامهم ورأس وحدتهم ؛ وهو في هذا الأمر كما كان الرسول ، غير أنه لا يأتيه الوحي ولا يزيد في الدين ولا ينقص منه ، ولا يتنازع فيه عن سائر أمته إلا بما قد يجتاز به أي فرد من أفرادها من سمة في العلم وزيادة في الفقه وتعمق في النظر وإجادة في الاستنباط

ثانيها — أن الخليفة لا يكون إلا واحداً حتى لا يكون تمدده مثار خلاف أو فرقة بسبب ما قد يحدث لكل من شيعة تنشيع له أو حزب ينتصر رأيه ، وحتى لا يكون في تصرف الأمور اختلاف بموق دون الاسراع في تديرها وتلافى الأخطار التي قد تتعرض لها الدولة

ثالثها — أن اختيار الخليفة وانتخابه ليس إلا لمن يقدر خطر الخلافة ويزن نتائجها ويعرف ما يجب أن يتوفر في الخليفة من جدارة وأهلية وقدرة وكفاية . وهؤلاء هم أولو الرأي في الأمة المروفون في الصدر الأول بأهل الحل والمقد ؛ أما غيرهم فالشر كل الشر في إيكال ذلك إليهم ، لأنهم يستمعون لكل صيغة ، ويهتدون مع كل نافع ، يخضعون الرأى والسمة ، ويفريهم الطلاء والبحرج ، وتطمعهم الأكاذيب ويمسهم الجاه والثراء . وأهم ما يلاحظ اليوم على المجالس النيابية من عيوب هدم كفاية أعضائها ، ووجودهم إنما يرجع إلى سوء اختيارهم ، وذلك بإيكاله إلى من لا يحسنه

رابعها — خضوع الأقلية في ذلك لرأى الأكثرية حتى لا يتفرق الأمر وينقطع الجبل

وهناك نتائج أخرى لا يتسع المقام لتفصيلها ، ولما فكنت بهذا البيان عسى أن يكون فاتحة بحث جديد في تفصيل أسس الحكم الاسلامي ، ومبدأ اتجاه في إقامة الحكومات الاسلامية اليوم على سنن الحكومة الاسلامية الاولى حتى يعود للمسلمين على أيدي حكوماتهم ما كان لهم أيام حكومتهم الاولى من عزة ومجد وسؤدد .

على الخفيف

الرسول فهم عيون خاسئة ، ورجل منكمسة ، وأفئدة هواه
إيه يا نساء النبي ، وبأسماء المؤمنين ، ما فعلن برسول الله ؟

- ٢ -

عجبا لرسول الله ! تنجي إليه الأموال من كل فج في جزيرة
العرب ، ويضع يده على كنوز خير وقرينة والنضير ، وتنصر
خزائن اليهود في لظى الحروب التي شنها عليهم ، ثم يعود إلينا
صفر اليد ، طلوي البطن ، ونحن نشاركه الطوي ، ونقاسمه ألم
الحرمان ، أيرضيك هذا يا عائشة ؟ وأنت يا حفصة ؟ أحبي يا سودة .
وأنت يا أم سلمة مالك لا تتكلمين ؟

على هذا النحو من الحديث جرت الألسنة في بيت عائشة ،
وقد انمقد المؤمن من أسماء المؤمنين ، وكلهن تأتى إلى نساء من
الترف يرجون أن يسام فيا أفاء الله على رسوله ، بعد أن حملت إليه
الجزى ، ووصلت إليه هدايا أرباب التيجان ؛ فإذا هو يمشي النصار
ذات اليمين وذات اليسار ، ثم يقنع بالعيش الظليل ، والنا كل
الطيف ، وينام بجانب زوجته على بساط من آدم حشوه ليف
أو ليس من حق نساء النبي أن يطمحن إلى ما هو فوق هذا
الستوى من المعيشة ، ويتطلعن إلى لون آخر من ألوان الحياة ؟
ولم لا يفعلن وفيهن بنت أبي سفيان ، وأبو سفيان زعيم قريش ،
وفيهن بنت حبي بن أخطب ، وحبي كبير بني النضير ، وفيهن
غير هاتين ممن كن يرفقن في مطارف النعم ، ويمجرون أذيال الرفق
في بيوت آبائهن ؟ فكيف لا يتبرمن بهذا اللون من الحياة الذي
يعالجنه في بيت رسول الله ؟

ولقد كن يلتصقن له شيئا من العذر لو لم يكن هذا الشظف
من صنع يده ، ووليد زهده ، وغزوفه عن الدنيا ؛ أما والأمراء
ليس كذلك ، فاهن والصبر عليه ؟

لقد اتسمت آفاق معلوماتهن عن الدنيا ، وعرفن كثيرا عن
قيصر في الروم ، وكسرى في الفرس ، والنجاحي في الحبشة ،
والقورس في مصر ؛ وهن يرين أنفسهن تحت أمير تدين له جزيرة
العرب بالطاعة لا يقل خطرا عن هؤلاء الأمراء
وهل المرأة إلا المرأة منذ تحدرت من أعماق التاريخ إلى أحدث
عصور الدنيا والنور ؛ امرأة البدو ، هي هي امرأة الحاضرة ؛
هنا الأول زينتها . هي من ناحيتها تريد أن تساعد الطبيعة التي

مؤامرة في بيت الرسول

روايتنا محمد وعبيد

- ١ -



دنت الردوس من
الردوس ، وحمست الأفواه
في الآذان أن رسول الله
غاضب . ورسول الله غاضب
حقا ، غاضب على نساءه
جميعهن حتى عائشة . وكم
لعائشة من دالة عليه ؛ -
لقد كان يطوف بأبوابهن
أصيل كل يوم ، فما باله
الآن في عزلة تامة لا يطرق
لا حدها من بابها ، ولا يكشف
لها حجابا ؟

طال غضب الرسول ، وطال احتجاجه ، فلم يعد الأمر سرا
يحبس في الصدور ، أو يتناجى به اثنان في عرس ، ولكنه تجاوز
الصدور إلى الشفاه ، والإسرار إلى الإعلان ، والاعتين إلى الجماعة ،
حتى أصبح حديث الأندي في ثرب ، وموضع التكهات
والنخرسات ؛ والنمرة لا تنجلي ، والنهام يتراكم في الأفق ،
واللازمة تشتد ، حتى ترددت على الألسن كلمة «الطلاق» بما تحمل
في طياتها من بشاعة وهول ، وحتى أشيع أنه على وشك الوقوع ،
أو أنه وقع فعلا وقضى الأمر

ولكن أين أبو بكر وعمر ؟ أين كبار المهاجرين والأنصار ؟
ألا يقابلون الرسول فيضموها حدا لهذه النخرسات ؟ كلهم تحده
نفسه بذلك ، ولكنه لا يقدم عليه . إن رسول الله ملء العيون ،
ملء القلوب ، فلا يكلم إلا حين يتسم ؛ ولكنه تابس الوجه
منقطن الأسارى ، فن هو الشجيع الذي ينام بنفسه في هذا
الميدان ؟ لهم أن يخوضوا المامع ، ويقتحموا على اليهود حصونهم ،
ويرووا ذباب سيوفهم من عمام المشركين في بدر ؛ أما أمام

سلحتها بالنعومة والجمال أداتى جاذبية وإغراء لحفظ النسل ، كما
سلحت الزهرة بطيب العرف وألوان الطيف ، حتى تجتذب
الطيور فتكوى رسلاً تحمل حبوب التلقيح

لم يكن بداً إذن من نساء الرسول أن يأتمرن به على هذا
النحو ، حتى إذا دخل عليهن أحطن به إحاطة السوار بالمعصم ،
وانطلقت ألسنتهن في حماس

ولكن سيد الرسل يتمصم بسيد الأخلاق ، ويقابل الأمر
بإتسامة هادئة ، ثم ، ثم لا يفعل شيئاً

— ٣ —

ما بال رسول الله يطفىء في بيت زينب ؟ ألم يأتها نساء عائشة
وسائر زوجاته ومن ينتظرنه على أحر من الجمر ، ويسددن له
الثواني والدقائق ؟

اعتاد الرسول أن يطوف بيوت نساءه فب صلاة العصر ،
ولكنه اليوم يجتنب في بيت زينب زمناً طويلاً ، وعقارب النيرة
تنفت لمابها في نفوس عائشة وصواحبها . وهل تسلم المرأة من
النيرة وإن كانت زوجة رسول ؟

انعقد المؤتمرون في بيت عائشة ، وطرح المسألة على بساط البحث ،
ثم قرر قراراً طابت به نفوس الجميع

لقد تعودت زينب أن تسقى الرسول عملاً ذا رائحة حادة ،
فاضر للتوهمات أن يتخذن من حلاوة هذا السلسل أداة انتقام
مرة ، وسلاحاً بشهرته في وجه الرسول ؟ إيه يا حفصة ! إيه
يا سودة ! إذا انصرف الرسول عن زينب إلى أيتنا فلتبد شيئاً من
الاشتمزاز ، ولتفل إلى أشم ريح منافير^(١) . ونساء الرسول يعلمن
مبلغ حرصه على النظافة ، وعلى طيب نكهة فيه ، ويعلمن أن
الطيب إحدى ثلاث حُسينٍ إليه ، وأن النظافة وتطهير الجسد
حجراً يقوم عليهما دينه الجديد ، فاضرهن أن يستملن هذه
الناحية في هذا الظرف ؟

ثم يتم الرسول طوافه فإذا برائحة المنافير تدخل كل أنف ،
وتخرج من كل فم ، فيحرمه على نفسه ، ثم يكسب له السر

(١) المنافير : طعم حلوحاد الرائحة كرسها كان مألوفاً عند العرب

ولكن سيد الرسل يتمصم بسيد الأخلاق ، ويقابل الأمر
بإتسامة هادئة

— ٤ —

زادت المصائب واحدة بميلاد الطفل إبراهيم ، وارتفعت
مارية الجارية المصرية إلى مصاف زوجات الرسول من الحرائر
المرميات . ها هو ذا يأمر أن يقام لها بيت يتأخم بيوت نساءه ،
بعد أن كانت تقيم بمكان ناء ، وينظر إليها نظرة القرين إلى القرين ،
لا نظرة السيد إلى ملك العبيد . وها هو ذا يندو وروح وطفله
على ذراعه يدله ويتابعه ، وعطر جبينه بوابل من قبلات
لا تستشعر لذتها إلا شفاه الآباء ، ولم لا يفعل ؟ أليس محمد بشراً
قبل أن يكون رسولاً ؟ لقد هدف محمد للسنتين أو نيف عليها
وليس له ابن من صلبه ، ولقد تزوج بعد خديجة غير واحدة فلم
تبشر إحداهن بخصب . وها هو ذا يرى حياته تبدأ من جديد ،
وصفحة طفولته تنشر من جديد في شخص الطفل إبراهيم . فلم
لا تفر عنه بطفله ، ويرفع أمه إلى مقام الحرية من أجله ، ودين
محمد يمتد الرق الذي ورثه سبيله عن القرون البائدة ، ويتشوف
إلى الحرية ويتمحل لها الأسباب ؟

ولكن عقارب النيرة تعاود ديبها من جديد . لقد كانت
كل واحدة من أسبات المؤمنين تشتعي أن تكون أم الغلام ،
فأبت المقادير عليهن ذلك ، ومنحته جارية لا تمت إلى العرب بنسب
لا غرو أن يحدث ذلك في نفوسهن غيرة ، وإن شئت فقل
حفيظة على أم ذلك الغلام . ولعل تلك الحفيظة تجاوزت أم الغلام
إلى الغلام نفسه . ولعلهن أسرفن في ذلك حتى هممن بأمر جلل ،
هممن أن يشككن الرسول في حمة نسبة الغلام إليه حتى أنه
ليدخل به يوماً على عائشة ، فيوجه نظرها إلى ما بينهما من شبه ،
فتهزكت فيها هزة النني والانكار ، بل تصرح بذلك في مواجهة
الرسول ، فلا يسمعه إلا أن يرميها بالنيرة ، ثم ينصرف
يد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد

هذه حفصة تغادر بيت بعلمها إلى بيت أهلها لبعض الشؤون .
وهذا رسول الله في بيت حفصة . وهذه مارية أم الغلام تدخل
عليه ، ثم يكون بينهما ما يكون بين المرء وزوجه ، ولكن حفصة
تمود في وقت كان من الخير ألا تمود فيه ، فتزي مشهداً مريباً ،

أو نصدده هي مريباً ، فتعاتب الرسول قائلة : « لولا هوانى عليك ما فعلتها » ولكن الرسول يهديه من روعها ، ثم يستنذر ، ثم يستنكرها الأمر ، فتصد ، ولكن متى كان للمرأة — وإن كانت زوجة رسول الله — أن تحسك لسانها عن سر إلا كما يسلك الماء الفرايل ؟

أصبح الرسول فإذا سره أذيع من يوم حليلة ، وإذا سائر نسائه يتحدثن به ، ويملقن عليه بما يحلو لهن

وهنا لا يمتصم سيد الرسل بسيد الأخلاق ، ولا يتسم ابتسامته المهادنة ، ولكن يفضب الرجل الحليم ، وتكون القطرة التي طاشت بها الكأس ، والقشة التي قصمت ظهر البعير

لا بد من درس قاس يقف هذا التيار ، ويعيد إلى منزل الرسول صرح السعادة النهار ، ثم ، ثم نكون العزلة

ولكن ، ليت شعري إلى أي حد كان تأثير هذا الدرس في نفوس أمهات المؤمنين ؟

— ٥ —

أرأيت ندامة الكسبي على قومه ؟ أرأيت رسول الله وقد فتر عنه الوحى ثلاث سنوات ، ذهبت فيها نفسه حشرات ، حتى ليكاد يردى نفسه من شهاهن ؟

تلك كانت حال نساء الرسول مدة عزلاته — شهر أو قرابته — بقرعن السن ، ويمضن البتان ، وتنصل كل منهن ، وتلقى إحداهن التبعة على غيرها ، وينحن باللائمة على أنفسهن . ما بالنا نخرج رسول الله ؟ أليكون هذا جزاء نصير المرأة من المرأة ؟

أى والله ما برزت شخصية المرأة ، ولا أخل لها مكانها في المجتمع إلا محمد ، محمد الذي اقتتل المرأة من الهوان الذي تحدر إليها من أعماق التاريخ . لقد حرم وأدها سفيرة ، وجعل لها حق اختيار الزوج كبيرة ، وجعل لها نصيباً من الميراث بعد أن كانت العرب لا نورث إلا من يحمل السلاح ، ويقدر على الكفاح من الرجال دون النساء ، بله الأطفال

أما كانت المرأة عند الأتنيين معدودة من سقط المتاع ، حتى أنها تباع وتشترى في الأسواق ؟ أما كان الأسبرطيون يبيعون

لأى عدد من الرجال الاشتراك في زوجة واحدة ؟ أما كانت بعض طوائف اليهود يمتدون البنت في مرتبة الخادم ، ويميزون لأبيها ييمها ، ويحرمونها الميراث إلا عند فقد الكوثر ؟ أما كانت المرأة تعتبر عند بعض الجاهلية ميراثاً يورث ، حتى أن المرأة لتؤول ملكيتها إلى ابنها بعد وفاة زوجها ؟

كان طيبياً أن يذكر نساء النبي ذلك كله ، وأن يتحدثن مدة عزلة الرسول التي كان وقعها شديداً على أنفسهن . وكيف لا تكون كذلك وقد كان الرسول في بيته نطفاً وحده ، يامل قسامة على أسلوب لم تألفه العرب ؟ هو في بيته مثال الدعة والأريحية كثير التدليل والمداعة لنسائه ، حتى ليحترق عليه بما لا يجترئ به على آبائهن وإخوتهن . قال عمر : « راجعتنى امرأتى في شأن من الشؤون ، فأنهرتها فقالت : هيباً لك يا ابن الخطاب ! ما تريد أن أراجعك في أمر وإن ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان »

كان النبي صاحب النزوات والملاحم ينقلب في بيته ملاكاً وديماً ، حتى أنه ليصلى فيتسلق ظهره الحسن بن علي ، فيطيل سجوده ، حتى يترجل الغلام من تلقاء نفسه . وكان رحباً بنسائه ، حتى أنه لى بعض رحلاته ، ييمض زوجته ، فينذ قائد راحلتهن السير ، فيقول له : « وفقاً أنجشة^(١) بالقدوارير »

هكذا كانت معاملة النبي لنسائه ، فمن لهن بالجلد على جنائهن ؟ ومن الذي يخرجهن من عزلاته ، ويبيدهن إلهن سيرته الأولى ؟ إنه عمر

— ٦ —

ما كان عمر ليسمعه التجلد على عزلة النبي أكثر من شهر ؛ عمر الرجل الصريح ، الشجاع في الحق ، الذي ليس أقرب إليه من حسامه ينتضيه في كل موقف ، والذي تسلل المسلمون إلى المدينة لوإذاً نخرج هو جهازاً نهاراً يقول : من أراد أن تمسكه أمه ، أو يتم ولده فليتبعضى »

أخذ عمر سمته إلى مُستزل الرسول لا يلوى على شيء ؛ حتى إذا كان منه عن كئيب نادى رباحاً غلام الرسول : يا رباح

(١) أنجشة : اسم قائد الراحة ، وهو رجل جيس

استأذن لي مولاك في الدخول ؛ بيد أن الغلام يدخل ثم يعود بلا إذن . فيماود عمر الكرة ، فيعود الغلام بلا إذن ، فيحتاج عمر ، فيفتح المكان داخلا قائلا : يا رسول الله ، إن كنت ظننت أني جئت من أجل حفصة ابنتي ، فوالذي بشك بالحق ، لولا رهنبي إياك لوجأت عنقها ، ولكني أريد أن تضع حداً لتخرصات التخرصين

ثم يلتفت عمر ، فلا يرى غير قبضة من شعر ، وجسد طاهر أثر فيه الحصر ، فيسكي حتى تخضل لحيته ، ولكن رسول الله يهش لعمر ، ويهدي من روعه ، ثم ينادر المكان إلى حجلات أمهات المؤمنين ، ثم يأمر بهن ، فيدخلن واحدة واحدة ، ويبدأ بمائشة :

إيه يا عائشة ! إنه قد أتني إلى قول كريم « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتم تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتكن وأسرحكن سراحا جيلا . وإن كنتم تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للحسنات منكن أجرا عظيما ... الآيات » فأيهما تختارين ؟

أيهما تختار ! وهل يحتاج الأمر إلى الروية وكد الدهن ؟ ما كان لمائشة أن تختار غير الله ورسوله ، وما لغيرها من أمهات المؤمنين أن يخالف عائشة في الاختيار

وبذلك طود بيت النبي صفاؤه وسكوته ، واقشمت عن أفضقه تلك السحابة التي أظلمته روحا من الزمن ، وكان الدرس ناجحا

— ٧ —

وبعد ، فإنما أردت بهذا الفصل أن أعرض لحياة النبي المنزلية ولبعض المشاكل الزوجية التي كانت تعترضه ، ولأسلوبه في معالجة تلك المشاكل ، حتى نعرف محمداً الزوج ، كما عرفنا محمداً القائد ومحمداً المشرع ، وما أكثر عظمة النبي التي تحتاج إلى الدرس والتحريض . على أن الناحية الزوجية ليست أقل خطراً إذا لاحظنا أن حياة الرسول في بيته كانت بمثابة الحجر الأساسي لكل بيت مسلم ، وأن الأمة تتكون من مجموع بيوتها ولعل القاري لا يرتاع لتلك المؤامرات التي كانت تدبر في

بيت الرسول ، فقد تكون هيئة لينة إذا قيس بما اعتيد تديره في بيوت الأمراء من المؤامرات التي تنضج بالسماء ولقد كانت حياة النبي فترة انتقال في كل ظاهرة من ظواهر الحياة العربية ، وكانت المرأة حديثة عهد بالحرية . وقلما يحسن استعمال الحرية من هو حديث العهد بها ، كما يحسنه الناشئ عليها الدارج في محبوبتها

— على أن توفيق النبي في إدارة شؤون بيته لم يكن دون توفيقه في حروبه ؛ ولعل مما يسترعي النظر أن كثيراً من القواد البارزين الذين عرفوا كيف يديرون دفة السياسة في أممهم ، قد عجزوا عن إدارة بيوتهم . ولست أحدثك عن امرأة نوح أو امرأة لوط اللتين ورد ذكرهما في التوراة والقرآن ، ولكني أستطيع أن أذكر لك طائفة من أبطال التاريخ الحديث . ولعل من هؤلاء « نابليون » طاهل فرنسا و « مصطفى كمال » طاهل تركيا

ولعل حكمة الرسول في إدارة شؤون بيته تتجلى بشكل أوضح ، إذا لاحظت أن سقفه كان يظل أمشاجا من الزوجات ، تفصلهن عنه فوارق بعيدة المدى ، كما تفصل بعضهن عن بعض أمثال تلك الفوارق ، فلقد كان فيهن من تصفنه بنيف وأربعين عاما ، ومنهن ثيبات كن تحت أزواج قبله ، وكان يبينهن من اعتنقت الاسلام بعد اليهودية ، ومن اعتنقته بعد المسيحية ، ومن اعتنقته بعد الوثنية ، وكان منهن ابنتا أصفي أسفيائه أبي بكر وعمر ، وابنة أعدى أعدائه أبي سفيان ، إلى غير ذلك من الفوارق التي تجعل إدارة دفة البيت أمراً عسيراً

وإني لأرجو بعد هذا ألا أكون قد تدخلت بين الرسول وزوجاته إلا بمقدار ما صورت العبرة . والحق أني أشعر في قراءة نفسي أن الموضوع وعمر شائك ، ولعل وعورته هي التي حببت إلي اقتحامه ، وإن كنت أخشى أن يقال لي ما قالت « أم سلمة » أم المؤمنين لعمر بن الخطاب ، حينما ذهب إلى بيتها ينحى عليها باللائمة في هذا الشأن فأجابته : « عجباً لك يا ابن الخطاب تدس أنفك في كل شيء ، حتى فيما بين الرسول وزوجاته ! » فكأنما سبت عليه ذنوباً من ماء بارد ، فنادر بيتها ، وانصرف ، يقتلع رجله من الأرض اقتلاعاً

محمود غنيم

« كوم حادة »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِلأستاذ الشيخ عبد العزيز بن باز



لقد يملك
كثرة الناس
المحب من تمام
عظمة الاسلام في
هذا الصدر اليسير
من الزمن وبلوغه
ما بلغ في غير عنف
ولامطاوله بكافئان
هذا المجد كله ولا
معظمه

واست الآن

بصدد ترديد ما أثر التاريخ ولا ما دون المؤرخون في فتوح
الاسلام وانتشاره السريع العجيب في قواصي الأقطار وأدانيها ،
وما كان لأهله في كل مكان من منعة وعزة وسلطان ، فذلك شيء
قد فاضت به الكتب ، واحتفلت بتفصيله الأسفار الضخام ؛
ويحسبني - فيما جردت له هذا الكلام القصير - أن ألفت
القارىء إلى أن أمة يادية جاهلة صائلة يكون منها في هذا الزمن
ما كان من العرب بفضل الاسلام . هذا فتح ، وهذه سيادة ،
وهذا تميم وتميم ، وهذه علوم وفنون وصناعات ، وهذه
حضارة لا تتعلق بأفئالها ألقى حضارات التاريخ !

لعمري ما هنا كله ؟ وكيف كان ؟ وكيف تأتي بهذه السرعة
لدولة الاسلام ؟

الهم إن أوتق يقيني أن صراجع هذا أجمعه إلى ما في هذا
الدين من يسر عظيم

الدين يسر ، وبفضل هذا اليسر كان من دولة الاسلام ما كان !
سنتقول : إن الاسلام ما ساد إلا لأنه حق ، وأقول لك :
وهل ثمة أيسر من الحق أو أعسر من الباطل ؟ ومتى احتاج الحق

في تجليته إلى عنف أو إلى جهد ؟ إن الباطل هو الذي يحتاج إلى
هذا وهذا ، وقل أن ثبت له منهما قرار !

وإذا قيل إن الاسلام دين الفطرة ، فمعنى هذا أنه دين اليسر ،
لأن ما جاء على حكم الفطرة لا عسر فيه ولا مشقة . أما ما جاء
على جهة التكلف والتصنع فذلك الذي يقتضى كثيراً أو قليلاً
من الجهد والعناء

الدين يسر ، وإن هذا اليسر ليس من جميع أقطاره . أرايت
أيسر من دعوته : (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) . وأى شيء
لعمري في هذه الجملة ينشز على الفهم ؟ بل أى شيء فيها يتعثر فيه
الذهن وتضيق عنه مساحة أدنى التفكير ؟

هذا اليسر في هذا الحق الذي ليس وراءه حق ، هو الذي
سلك أقطار الأرض بدعوة الاسلام ، واستفتح لها قلوب الأمم
والجماعات في غير علاج ولا استكراه !

هذه الدعوة اليسيرة الراضخة لقد تفتت بنفسها عن العنف
والاضطرار : (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) . بل
لقد استفتت عن استدراج الناس بفنون الإغراء والاستهواء

وهذه تكاليف الاسلام ، ما قامت فيها مشقة إلا قامت
بازائها رخصة ؛ ولا كان في أحدهما على أحد عسر إلا ذل بين
يديه طريق المذر . وهل بعد ذلك اليسر كله يسر ؟ قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب
أن تؤتى عزاءه » . وقال تعالى في كتابه الكريم : (وما جعل
عليكم في الدين من حرج) صدق الله العظيم

لم يقتض الاسلام أحداً احتمال ما لا طاقة له بإحتماله ، فهذه
تكاليفه ، من استطاع القيام بها ، وإلا تخفف منها في حدود
أحكام الشرع الكريم ، حتى تكفى طاقته ويقسح لها ذروعه ،
ولا يتخرج بها وسعه ، مقبولاً عذره ، مكفولاً عند الله أجره

ولعل من الخير أن أنبه في هذا اللقاه إلى شيء حقيق
بالانتباه : ذلك بأن من القواعد السليمة أن الضرورات تبيح
المحظورات ، (فمن اضطر غير باع ولا عاد فلا إثم عليه) فالتفريط
في غير ضرورة ، والتخفف من أحكام الشرع من غير داع جدي
إثم من الآثام . ومن القواعد الأصولية المقررة أن الضرورة تقدر
بقدرها . ولا شك بعد هذا في أن تتبع الرخص وتلتس الماذير

بَيْنَ الشَّكِّ وَالْيَقِينِ

لِلأُسْتَاذِ أَحْمَدَ خَاكِي



تطلى على العالم
اليوم موجة من
الشك تكاد تجترم
بقية اليقين التي
يحرص عليها
الفلاسفة . وقد
أسرفت الجماهير
في الشك حتى لقد
أصبح هو القاعدة
لكل تفكير ،
وأصبح اليقين
شذوذاً لهذه

القاعدة ؛ وحتى ليكاد الانسان يجزم بأننا نجتاز عصرآ من عصور
المفسطة التي فقدت عندها الماني والأمثلة العليا أكبر قيمتها .
وقد عانت تلك الماني وهذه اللث العليا ما عانت لاختلاف وجهات
النظر بين فريق وفريق ؛ وكل فريق يذهب إلى ما يذهب إليه
لأنه يرضى حاجة ملحة في نفسه ، فهو يتعلق به لأنه يرى فيه
إرضاء لزعامة الجماعة سواء أكانت نبيلة أم ضيعة . وقد أدى
ذلك إلى أن تفضمت قواعد الايمان وحل الشك في كل بيئة
سياسية أو اجتماعية يتذرع به كل مفكر حتى تستوي له الغاية
التي يريد . ولعلنا ان ندرك حاجة العالم اليوم إلى اليقين حتى نبث
أسول الشك ، ولأننا نريد أن نقيم مثلاً أعلى يتألف قلوبنا ، فينبني
أن تعمق البحث في أصل ذلك الاضطراب الذي يصطخب به العالم
والحق أن الشك في العصر الحاضر قد أدرك ما أدرك من
القوة لأنه ليس لبوساً علمية خالصة . فقد ذهب كل فريق إلى
الرأي الذي يرضيه ، لكنه جاهد في إرضاء تفكيره بأن اتخذ من
الملم مسوغاً يصف ويقتوي . وأصبح الشك لذلك علمياً يقوم
على دراسات شتى . ووجد المفكرون والسياسيون في تلك

إنما هو ضرب من الاحتيال للهرب من تكاليف الدين ، وهيمات
لا يتطلى على الله محال !

ومن يسر هذا الدين أنه لم يُقم بينك وبين ربك أية واسطة .
وليس من شك في أن ما تستطيع أن تتناوله بنفسك أيسر عليك
وأدنى إليك مما لا تستطيع تناوله إلا بواسطة غيرك . فإذا زلت
بك القدم ، وقلبك الشيطان في النكر ، أقبلت على ربك ، وسألكه
قبول توبك ، والعفو عما أسلفت من ذنبك ، مطمئناً إلى (أن
الله يفر الذنوب جميعاً) . ليس بك حاجة إلى من يهد بين يديك
سبيل العذرة ، ولا من يمانى لك استخراج العفو والمغفرة

وبعد ، فإن من يسر هذا الدين شدة تساعه ؛ ولا يذهب
عنك أن هذا التسامح إنما كان من أبلغ الأسباب في عظمته
لا يدعوكم الاسلام إلى كراهة ما يصدر عن مخالفك في الدين
لأنه يخالفك في الدين ، بل يدعوكم إلى أن تكفه منه ما يُكره ،
وتُقر منه ما يُحب ويُؤثر ، فهو وأخوك السلم في هذا بمنزلة سواء
ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس حُجبة رومية ،
وقال تعالى في كتابه الكريم : (وطعام الذين أوتوا الكتاب
حل لكم وطعامكم حل لهم) ، ولا ريب في أن لهذا ولهذا دلالة
كان لها أعظم الآثار في نهضة الاسلام !

لم ينفر المسلمون من مخالفهم في الدين ولا في الجنس ، ولم
يحتجز بهم تعصب عن مخالطهم والاتصال الوثيق بهم ، والانفتاح
بكفالاتهم والأخذ عنهم . ولم يكذب يستقيم أمر الله لهم حتى أقبلوا
على علوم من سبقوهم فترجوها إلى لغتهم ، وجعلوا يتروونها
ويشبعون الأذهان فيها ، ويطعمونها على غرار عقولهم ، ويزيدون
فيها ما فتق الرأي والذكاء لهم . كذلك كان شأنهم في الفنون ،
فقد حذقوها أتم الحذق ، وبرعوا فيها أعظم البراعة ، وأداروها
على أذواقهم ، حتى اتسق لهم منها فن خاص ؛ وناهيك بالفن
المربي الذي ما برحت آياته مسطورة على جبين الزمان

أرجو أن تكون قد اطأنت بعد هذا ، إلى أن اليسر في
الاسلام ، كان من أبلغ الأسباب في عظمة الاسلام
عهد العزيم الهنري

على تثبيت رقيم الأشياء . ذلك لأنه علم وصفي يسير في نطاق ضيق من التجارب التي تختلف على عقل الانسان وحسّه . ولأنه علم تجريبي ، فقد عالج حالات شاذة أو غير شاذة من غير أن يقيم معايير يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا . فحينما طنى علم النفس على فلسفة الأخلاق فقدّ العالم كثيرا من الثبات الفلسفية التي كان قد استقر على الايمان بها . واستشرى قادة الفكر لحالة من الشك طافت بنفوسهم حتى أصبحوا يشكّون في مبلغ عقائدهم هم أنفسهم .

وقد كان الفرد ضخمة من فحيا الدراسات النفسية ، لأنه تضاد ثم تضاد أمام دراسة الجماعة حتى لم يصد له إلا المكان الأدنى . ومن المعجز أن فطالب الديمقراطية بما نطالبها به من تقدير المسؤولية إذا كانت قد أنكرت المدرسة الحديثة حدود الفرد هذا الانكار ، وإذن فالبحث بعينه هو أن نهدي بعلم النفس في سيرنا إلى المثل الأعلى ؛ والبحث بعينه هو أن نحاول تأليف غاية نبيلة تتألف أصوله . فعلماء النفس يصفون حالات الجماعة ونفسية الجماهير بما يحكمها من عقلية الرعاع ، وبما يشينها من العقل الباطن غير الفكر . وكان حقيقا بكل ذلك أن يدفع بالعالم إلى الشك ، وأن يززع إيمان الناس في سمو المثل الأعلى . فقد أصبح الفرد يرى نفسه غير الملوم ، لأنه يتخذ من وجوده في الجماعة ذريعة للتركية والتبرؤ .

ولم يفرد علم النفس بين العلوم في إنتاج ذلك الجو المتشكك الذي يكاد يعصف بالفكر الحديث ؛ فالتاريخ وعلم الاجتماع كلاهما يماونه في ذلك . أما التاريخ فقد حاول المؤرخون أن يطبقوا على حوادثهم مقاييسهم العلمية . وما زالوا يفسلون فصوله ويؤصلون أصوله حتى خيل إليهم أنهم قد استخلصوا من محاففه طرفا علمية محدودة . وفي كل ذلك غبن للفرد وتحيف من مكانه ، لأن التاريخ العلمي تنكّر لفلسفة انطلق ، وجاق فكرة السلوك ، وازود عن تقدير الفرد ، وحاول أن يقيم قواعد تستمد سلطانها من الجماعة . وقل مثل ذلك عن علم الاجتماع الذي ينكر مسئولية الفرد ويلاشها في الإرادة العامة ، والذي يخلو من أصول خلقية تنشيء الفكرة ويخرج منها عملا نافعا طيبا ينتجه الفرد

والحق أن علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع كل أولئك علوم

الدراسات مميّتا لا ينضب من القضايا يستدلون بها على ما يعملون مهما نبا عن جادة الخلق القويم . وسنحاول في هذه المجالة أن تفصل تلك الدراسات المتشككة حتى ترى سبيلا واضحة إلى دراسة المثل الأعلى الذي نحاول أن نقيمه في مصر

والشك قد ضرب في أطواء الفكر الحديث حينما حل علم النفس محل فلسفة الأخلاق ، فقد أصبح هذا العلم بعد ذلك موردا يستمد منه كل مفكر قواعد يفسر بها الظواهر العقلية والنفسية . ولقد أقلت الفلسفة قبل ذلك ما أقامت ، يؤمن الناس والعلماء بأصولها ؛ لكنهم لم يقفوا إلا قليلا يحاجون طبيعة الايمان . ولم يكن هؤلاء ولا أولئك يفرقون بين مراتب العقيدة ولا ألوان التفكير ، ولكن حينما أبديت للعالم أصول علم النفس بما تحمته من مباحث التحليل النفسي ، وبما تضمنته من وصف نفسية الجماعة ، وبما فرقت بين العقل الواعي وبين العقل الباطن — حينما أبدى كل ذلك تطرق الشك في قيمة الفكرة ، وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذي كان لها فيما مضى ، بل لقد ذهبت الكثرة من علماء النفس ووراءهم الجبهة من سائر العلماء إلى أن الفكرة شيء والعمل شيء آخر

ويرجع الشك في قيمة الفكرة إلى أن علم النفس الحديث يرى أن الانسان مسير أمام جملة من العوامل التي لا يحكمها العقل بل هي في الواقع مؤثرات ودوافع تدفع بالانسان إلى أعمال أكثرها قد تخرج من سلطان التفكير القويم . وإنما يسير الانسان عند هؤلاء الرغبة والمأطفة والزاج قبل الفكرة والعقل والفلسفة . وقد كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة مسيرا تنتهي ، فهي لا تنتهي عند مجرد التفكير وإنما تمتد إلى العمل والتنفيذ . فالفكرة لها شطران من عقل وسلوك ، ولا يكون لها أثر خلقي حتى تنقلب إلى هذا السلوك . لكن علم النفس حلّ في تاريخ الفكر الحديث محل علم الأخلاق ، فباعد ما بين شطري الفكرة ، وطال الاحساس الضئيل مجردا عن العمل ، وبيان ما بين العقيدة والسلوك . وقد أدى ذلك إلى ذلك التناكر الذي نشهده اليوم بين ظهرا نينا .

وعلم النفس لا يستطيع أن يخلق لنا مثلا أعلى لأنه غير قادر

تجريبية لا خير فيها إذا حاولنا أن نقيم منها مثلاً أعلى ، فهي لن تزيد إيماننا في سمو الفكرة ، ولا عقيدتنا في سيطرة العقل على العمل . وكما أمتنا في دراستها زادتنا شكاً في أصول الخلق وفي فلسفة الحياة . فهي تمايل ظواهر نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، لكنها لا تأتي بجديد في قيم الأشياء ، ولا تخلق ميزاناً عادلاً لحقائق الخلق ؛ وإنما تفيد من هذه العلوم إفادة سلبية لأنها جميعاً تبسط لنا حالات النفس والاجتماع التي ينبغي أن نتجنبها ؛ وهي لا تمحضنا الايمان في فكرة من الأفكار ، لأنها تبسط الشروح التي تؤيد كل فكرة . فمندنا أن الإغراق في دراسة مثل تلك العلوم هو السبب في حالة الشك العلمي التي ملكت مذاهب التفكير على كل مفكر ، وهي التي وجهت كل فرد وجهة من لا يؤمن بشيء هو في نفسه حسن أو جميل نافع ، حتى أصبحت الفكرة الحديثة ضرباً من ضروب السفطة الخادعة . وذلك عندنا هو السبب في التناقض الدريع الذي خلق ذلك النضال الكاذب حول ألقاظ تكاد تخلو من الماني ، وحول ممان لا يدين لها الناس بالولاء

وكما أن فلسفة الخلق قد تلاشت في علم النفس ، فكذلك قد تلاشت الفلسفة السياسية في علم الاقتصاد . ذلك بأن العالم قد أعمته اقتصادياته عن المثل العليا التي أقامها الفلاسفة والحكماء ، وأسرف في اتخاذ مبادئ الاقتصاد إنجيلاً لا يكاد يؤمن إلا به . فكما أن الفرد يرى في أصول علم النفس أن إرضاء النزعات والرغبات فيه شفاء لما يحرز في النفس من ألم محض ، كذلك ترى الجماعات أن في إرضاء رغباتها ونزعاتها الاقتصادية شفاء لما تعانيه من جفوة وشفاء . والاقتصاد كما هو الآن علم المنافسة الحادة على احتكار المادة والتطاحن على الكالليات ؛ وليس يخفف من حدة أي فكرة واضحة عن الماني الأولى ؛ وليس يهتبه من شدته أي قوة دافعة إلى المثل الأعلى . وقد كان الاقتصاد نفسه مميئاً يستمد منه المؤرخون وعلماء النفس ما يرونه من القضايا ليتشككوا في قيم الخلق المام

تلك إذن هي الدراسات التي نفخت روح الشك في المام

الحديث ، وزلزلت اليقين الذي استهدى به الفلاسفة الخلقيون والسياسيون عندما كان العالم أشد من ذلك إيماناً . وقد اضطربت قوائم السياسة والاجتماع والاقتصاد لهذه الحالة المتشككة ، لأن العلماء أنكروا قوة الخلق في الفرد ، وأنكروا كذلك قوة الخلق في الجماعة ، فأدى ذلك إلى حالة من الاستهتار بالمثل العليا يماي منها الغرب ما يماي اليوم . وحينما ينادى الفلاسفة في أوروبا بفكرة السلام ، وحينما يعلنون للملأسخطهم على الحرب ، فليس لنا إلا أن نسخر من كل ذلك ، لأننا نعلم في نفس الوقت أن قادة الفكر عندهم قد سوغوا الحرب بآلاف من الأدلة التي استخرجوها من علم النفس والاقتصاد والتاريخ والاجتماع . وإذا سمعنا بمد ذلك عن العدل والإخاء والمساواة والمحبة فينبغي علينا ألا نؤمن بأن أوروبا شديدة الايمان بكل ذلك ، لأن مذاهب عملية تناقض كل هؤلاء قد شاركت حياة نظمهم الاجتماعية والاقتصادية . وشبت معها وهي ما زالت تدرج في عنقوانها مع المدينة الحديثة والسياسة التي يؤمن بها الجمهرة من الناس قد تأثرت تلك الفلسفة العلمية التي أمتجتها دراسة تلك العلوم . وقد مشت الحضارة الغربية بيننا بما تحملته من كل ذلك ، فاشتعب الناس في مصر قنات متنافرة يلاحون عن مذاهب لا أصل لها في صميم الفكرة . وكانت نتيجة كل ذلك فوضى اجتماعية ضربت بجمراتها في كل وجه من وجوه الحياة عندها . ولن نستطيع أن ندرس المثل الأعلى حتى نقرر المبادئ التي ينبغي أن نلتزمها في حياتنا العقلية والسياسية والاجتماعية ، وحتى تقدر الحقائق التي نمثلها ونستهدى بها . ينبغي علينا أن تقدر قبل كل شيء أصالة الرأي والشرف والصدق في حياة الفرد . وينبغي علينا أن تقدر مبادئ الحرية والنظام والديمقراطية والقومية والمالية في حياة الجماعة . يجب أن يكون ذلك الخطوة الأولى التي نخطوها لتنشئة المثل الأعلى — هل تؤمن بكل هؤلاء ؟ أنؤمن بيمضها ولا نؤمن ببعض الآخر ؟ هل ينبغي أن يكون إيماننا من النوع الفلسفي النعال أم من النوع النفسي الكاذب ؟ كل ذلك يجب أن نقرره قبل أن نقيم بناءنا ، فإذا استوت نفوسنا على الايمان خلقنا فكرة لها أثر في العمل ، وكوونا عقيدة لها سلطان على السلوك

ولعل أول ما ينبغي أن نمي به في هذا السبيل هو تنشئة الفرد .

وإذا قام قادة الفكر منا بوجهون حياتنا نحو قيم خاصة لحقائق الحياة ، فإن الجمهرة وراء هؤلاء القادة سوف يهفون إلى القيم الصحيحة التي تنزل بها الدين . ذلك عندنا نهاية السفطة الخبيثة التي نعانها اليوم ، وذلك تنظيم حياتنا الاجتماعية التي زلزلها الفوضى . والفرد عندنا في كل ذلك أساس ينبغي أن يبدأ به ؛ وتربيته غاية في نفسها ؛ والدين يعترف أول ما يعترف بسمو الفرد وخطره ، ويجب أن نعترف نحن أيضاً بهذا السمو

ولعل الاسلام أكثر الأديان تحديداً لواحيات الفرد وحدوده ؛ ولعله أشد الأديان احتفاءً بخلق مثل أعلى لمجد والجماعة . وفي الاسلام فلسفة خلقية واضحة ليس علينا إلا أن نجعلها ، وفيه أيضاً فلسفة سياسية تمتد على طائفة من المعاني . وإنا ما لبنا عن كل تلك الأصول إيماننا بما حاول الغرب أن يقيمه من مثل عليا . ومثل الدراسات التي طالتنا تسبطن على حياة الغربيين . وإذا نحن حاولنا أن نقيم مثلاً أعلى فعلياً أن نتخذ منها شيئاً ، ولكن علينا ألا نسمح لها بأن تكون أخاذاً مسيطرة

والفلسفتان الخلقية والسياسية أفضل ما ندعو لها ، لكن دراستهما سوف تقتصر على القادة دون العامة ، وعلى المتعلمين دون الجهلاء . ولكن الدين عندنا هو الذي يجمع بين الفلسفتين ، ويوازن بين الفريقين ، ويؤلف بين القلوب ، ويثبت النفوس روحاً فعالة لا تستأني ولا تستريب . وهو بعد ذلك أشد ما نحتاج إليه ليقوم لنا قيماً أخرى غير التي أقامها الغرب ، ومعايير أخرى غير التي فرضها علينا الغرب

أحمد ماضي

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

العدد ١٢ قرشا

وقد أسلفنا أن تلك الدراسات المتشككة قد أنكرت ما للفرد من وزن في حياة الجماعة حتى لقد أصبح الفرد يحتمي في نتائج تلك الدراسات ، فيرى نفسه غير مسئول عن الحالة السيئة التي وجد نفسه فيها ، وإذا كان مثل هذا الاتجاه قد أساء إلى الحياة السياسية والاجتماعية في الغرب ، فإنه يفسد حياتنا العامة نحن أيضاً . وهو عندنا أفدح أثر ، لأن الفرد من نفسه مضطرب مستضعف . فنحن إذن نبدأ بتشعشع الفرد ، لأن التنظيم العقلي عند الفرد أساس للنظام الاجتماعي العام . فبين عقلية الفرد وبين نظام الجماعة صلات تتوحد وتتوافق كلما أحسنت تنشئة الفرد . ولذلك فلا بد لنا من أن نلغنه فلسفة يقيم بها قيماً ثابتة في حياته . فلا بد لنا من أن نكمل الدراسات التجريبية التي ذكرنا بدراسة الفلسفة الخلقية . ولا بد لنا من أن نقيم أساساً خلق الفؤاد من تربيتنا العامة ومن معايير خلقية خاصة تكمل بها دراساتنا في التاريخ والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس

ثم علينا بعد ذلك أن نخفف كثيراً من غلوائنا في تقدير الجماعة ما لها وما عليها ، لأن هذا في نظرنا قد بمت سورة الشك التي أخذت بأكتاف السياسيين والمفكرين في العصر الحاضر . وإذا نحن حاولنا أن نتخذ طريقاً وسطاً بين الفرد والجماعة استطعنا أن نجد خطة مثلى تداول بين الطرفين . ولا مناص هنا أيضاً من أن نضم أصول الفلسفة السياسية إلى أصول الاقتصاد ، وأن نتخذ من ذلك الائتلاف معايير تطبقها على مبادئ السياسة والخلق العام . فإذا نحن خلقنا من كل ذلك فلسفة خلقية أو سياسية عامة كان ذلك كسباً في سبيل المثل الأعلى

وبعد ، فإنا إذا تصفحنا تاريخ العقائد ، وإذا حاولنا أن نستخرج منها فلسفة خلقية أو سياسية ، قلن نجد خيراً من المثل العليا التي تنزل بها الاسلام . وقد بدأ الاسلام والعالم في مثل ما عليه الآن من التيهن والتشكيك ؛ لكنه ما لبث أن فاض نوره على العالم من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض ، وتجمست الفكرة الأولى في نظام خلق الفرد ونظام خلق الجماعة على أكل ما يكون . فإذا نحن حاولنا دراسة المثل الأعلى فعلياً بتلك الرجة إلى المعايير الخلقية التي قامت عليها سيادة المسلمين

ابن دقيق العيد

للدكتور محمد مصطفى زيادة
الأستاذ المساعد بكلية الآداب

يظهر القارى

في تاريخ الممالك

بمصر بشخصية

رجل لا تربط

بغالبية أهل ذلك

العصر العنيف

دنيوية ، لتزهر

عن المادة، وعزوف

عن شهوة الناس

وزخرفها ، ذلك

هو قاضى القضاة

ابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) وهو الشيخ تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة الفشيري المنفلوطي الشافعي المالكي المصري

وكان أصل لقب «ابن دقيق العيد» الذي عُرف به في كتب التاريخ حسبا ورد في النويري^(١) أن جده وهب بن مطيع لبس في يوم عيد ثيابا بيضاء ، فرآه جماعة من أهل الريف فقال قائل منهم كأن ثيابه دقيق العيد لبياضها ، فلزمه هذا اللقب ، واشتهر به بيته وسلالة

تولى ابن دقيق العيد منصب قاضى القضاة بالديار المصرية سنة خمس وتسعين وستمائة هجرية ، والسلطان يومئذ الملك العادل زين الدين كتبغا النصوري ؛ وكان قبل توليته تلك الوظيفة الكبرى قد درس بالمدروسة الناصرية بالشافعي ودار الحديث الكاملية وغيرها ، وصنف التصانيف في فقه المذهبين المالكي

(١) النويري : نهاية الارب (مخطوط يدار الكتب المصرية) ج ٣٠ ص ٣٣٦

والشافعي ، وفي الحديث ، وأفتى الفتاوى الكثيرة التي برهنت على أنه ثبت وحجة في علم الشريعة ؛ وعُرف في جميع أدوار حياته بالشدة في الحق ، والسير على مقتضى أصول الدين لا يحميد عنها قيد أنملة ، مهما كلفه ذلك من غضب سلطان أو أمير . وقد نقل عنه حسبا ذكر ابن العباد^(٢) أنه قال : « مات كملت بكامة ولا فعلت فعلا إلا أعددت له جوابا بين يدي الله تعالى »

ظل ابن دقيق العيد متوليا لمنصب قاضى القضاة بالديار المصرية حتى وفاته سنة ٧٠٢ هـ وكان كثير التطلع إلى أخبار نوابه بالأعمال المصرية ، يبعث إليهم بكتبه المشتغلة على المواعظ والتحذيرات من عواقب الغفلة والاهمال في الأحكام . وقد نقل النويري^(٣) أحد هذه الكتب التي أنفذها ابن دقيق العيد سنة ٦٩٧ هـ ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم : الفقير إلى الله محمد بن علي (يا أيها الدين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤسرون) . هذه المكتوبة إلى فلان وفقه الله لقبول النصيحة ، وآناه لما يقربه قصدا صالحا ودنيا صحيحة . أصدرناها إليه بمدح الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، ويعمل حتى يلتبس الإهمال بالاهمال على المنور ، تذكرة بأمر ربك ، فإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ؛ ويحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فإحد سواء مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه ، وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، فإن أخاف أن يتردى فيجر من ولآء - والعياذ بالله - معه . والمقتضى لإصدارها ما لاحتاه من الغفلة المستحكة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم على ما يجب للرب على المربوب ، ولا سيما القضاة الذين يحملون عبء الأمانة على كواهل ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهي نحيفة .

والله إن الأمر لمظيم ، وإن الخطب لجسيم ، ولا أرى مع ذلك أمنا ولا قرارا ولا راحة ، وإلا رجلا نبذ الآخرة وراءه ، واتخذ إلهه هواه ، وقصر همه وهمته على حفظ نفسه من دنياه ، فقأية مطلب الحياة والمنزلة في قلوب الناس وتحسين الرقي والملبس ، والركبة والمجلس ، غير مستشعر خسة حاله ولا ذكاة مقصده ،

(١) ابن العباد : شذرات الذهب (طبعة مصر) ج ٦ ص ٥

(٢) النويري : نفس المرجع ج ٢٩ ص ٣١١ وما بعدها

فهذا لا كلام معه ، فإنك لا تسمع الموتى وما أنت بمجمع من في القبور . فأتى الله الذي يراك حين تقوم ، واقبض أملك عليه فالمحروم من أمه غير مرحوم . وما أنا وأنتم أيها النفر إلا كما قال حبيب المعجمي ، وقد قال له قائل : « ليتنا لم نخلق » فقال : « قد وقمتم فاحتالوا » . وإن خفي عليك بعض هذا الخطر وشغلتك الدنيا أن تقضى من معرفته الوطر ، فتأمل كتاب النبوة : إن القضاة ثلاثة ، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن خاطبه مشفقاً عليه : « لا تأمرن على اثنين ، ولا تأملن مال يتيم » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اهـ

وقد حدث في سنة ٦٩٧ هـ ، والسلطان يومئذ الملك المنصور حسام الدين لاجين ، أن نائب السلطنة منكوتغر أراد أن يستخلص من ابن دقيق العيد حكماً في قضية ميراث لأحد أصحابه بنير بيئنة شرعية ، فامتنع قاضي القضاة من ذلك وهو عالم بأن منكوتغر أقوى شخصية في الدولة قاطبة ، وترددت الرسل بينهما وابن دقيق العيد لا يتحرك عن موقفه ؛ فأنظ ذلك منكوتغر وأرسل أحد الأمراء الكبار إلى قاضي القضاة لعله يفوز منه بطائل . وقد أورد المقرئى^(١) قصة هذا الحادث في تفصيل ، فذكر أن منكوتغر بعث إلى ابن دقيق العيد يعلمه أن تاجراً قد مات وترك أخاً ولم يخلف غيره ممن يرثه ، وأراد أن يثبت استحقاقه الإرث بمجرد هذا الاخبار عنه ، فلم يوافق قاضي القضاة على ذلك . وترددت الرسل فخرج منكوتغر من ذلك وبعث إليه الأمير كُرت^(٢) الحاجب ؛ فلما دخل كُرت وقف بعد ماسماً ، فقام له القاضي نصف قومة ، ورد عليه السلام وأجلسه . وأخذ كُرت يتلطف به في إثبات أخوة التاجر بشهادة منكوتغر ؛ فقال له ابن دقيق العيد : « وماذا ينبنى على شهادة منكوتغر ؟ » فقال له : « ياسيدي ! ما هو عندكم عدل ؟ » فقال : « سبحان الله ! » ثم أُنشد :

(١) للقرئى : الملوكة (طبعة الدكتور زيادة) ج ١ ص ٨٤٨ وما بعدها

(٢) Zettersteén : Beiträge zur Geschichte der Mamlûk^{en} (٢)
ensultane (Brill 1919) P. 10

يقولون هذا عندنا غير جائز
ومن أنتم حتى يكون لكم عند ؟
وكرر ذلك ذلك ثلاث مرات ثم قال : « والله متى لم تقم عندي بيئنة شرعية ثبتت عندي وإلا فلا حكمة له بشئ باسم الله »
فقام كُرت وهو يقول : « والله هذا هو الاسلام » . وعاد إلى منكوتغر واعتذر إليه بأن : « هذا الأمر لا بد فيه من اجتماعك بالقاضي إذا جاء دار العدل »

فلما كان يوم الخدمة ومر القاضي على دار النيابة بالقلمة ، ومنكوتغر جالس في الشباك ، تسارعت الحجاب واحداً بيد آخر إلى القاضي وهم يقولون : « ياسيدي الأمير ولديك يختار الاجتماع بك لخدمتك » فلم يلتفت إلى أحد منهم . فلما ألحوا عليه قال لهم : « قولوا له : ما وجبت طاعتك علي » والتفت إلى من معه من القضاة وقال : « أشهدكم أنني عزلت نفسي باسم الله . قولوا له بول غيري » وعاد إلى داره وأغلق بابه ، وبعث تقياءه إلى النواب في الحكم وعقاد الأنكحة بمنهم من الحكم وعقد الأنكحة

فلما بلغ السلطان ذلك أنكر على منكوتغر وبعث إلى القاضي يستدريه ويستدعيه ، فأبى واعتذر عن طوعه . فبعث إليه الشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبيد والطواشي مرشداً ، فزالا به حتى صعدا به القلمة . فقام إليه السلطان وتلقاه ، وعزم عليه أن يجلس في مرابته ، فبسط متديله — وكان خرقة كتان خليقة — فوق الحرير قبل أن يجلس كراهة أن ينظر إليه ، ولم يجلس عليه . وما برح السلطان يتلطف به حتى قبل الولاية ، ثم قال له : « ياسيدي ، هذا وليك منكوتغر خاطرك معه ، أدع له » وكان منكوتغر ممن حضر ، فنظر إليه قاضي القضاة ساعة وصار يفتح يده ويقبضها وهو يقول : « منكوتغر لا يبغى منه شيء » وكررها ثلاث مرات وقام . فأخذ السلطان الخرقة التي وضعها على المرتبة تبركاً بها ، وتفرقها الأمراء قطعة قطعة ليدخلوها عندهم رجاء بركتها

هذا هو ابن دقيق العيد وتلك شدة مراسه في الحق

محمد مصطفى زيادة

مِنْ صَيِّمِ السَّيِّئَةِ

الْأَسْبَاءُ

لِلْأَسْبَاءِ أَجْمَدِ الصَّرَافِ

رَقَدْتُ مَلءَ عَيْنِهَا الْبَيْدَاءُ وَاحْتَوَتْهَا فِي مَرْمَاهَا الظَّلَامَةُ
وَأَوَى مَوَكِبُ الطَّيُورِ إِلَى النَّخْلِ وَحَتَّتْ لَزْغُهَا الْوَرَقَاءُ
وَالْمَاءُ أَطْبَقَتْ عَلَى الصَّفْوِ عَيْنَيْهَا، وَمَالَتْ إِلَى الْكِنَاسِ الظُّبَاءُ
سَكَنَ اللَّيْلُ، لَا هَتَافَ وَلَا عَزْ فَ لَا آهَةَ وَلَا ضَوْضَاءُ
لَيْسَ إِلَّا النُّجُومُ تَهْمِسُ فَرْحِي فِي الرَّحَابِ الْعُلَى فَتُصْنِي الْجَوَاءُ
وَسَجَّتْ مَكَّةَ، فَلَا إِلَهَ لَهَا فِي حِمَاها، وَلَا فِئَاءَ غِنَاءُ
أَطْفَأَتْ فِي الْحَبَامِ كُلَّ سِرَاجٍ رَقَصَتْ فَوْقَ قَرْنِ الْأَضْوَاءِ
وَاتَّقَصَى كُلُّ سَامِرٍ أَثْلَتَهُ بِالْفَنُونِ الزُّوَامُ وَالشُّمَاءُ
وَتَهَادَى التَّسِيمُ بَيْنَ الزَّوَابِي كُلِّهَا هَذِهِ الْإِعْيَاءُ
مَلَأَ أَعْطَافَهُ أَرْجِحِ الْخُرَافِي وَبَقَايَا الْكُؤُوسِ، وَالْأَنْدَاءُ
نَامَتْ الْبَيْدَاءُ أَهْلَ رَأَيْتُ سِرِّيًّا رَقَدْتُ فَوْقَ صَدْرِهِ عَذْرَاءُ؟
الطُّيُوفُ الْفَرْحَى تَطُوفُ حَوَالِيهِ كَمَا طَافَ بِالْقُلُوبِ الْهَفَاءُ
وَالْمَنَى الضَّاحِكَاتُ تَنْمُو خَدَّيْهَا فَيَفْتَرُّ تَقْرُهَا الْوَضَاءُ
يَا جَمَالَ الْبَيْدَاءِ! مَاذَا يَنْتَالُ السُّوُوفُ مِنْهُ، وَمَا يُصِيبُ الثَّنَاءُ؟
كَلَامُ السَّجَرِ وَالرَّحِيقِ الْمُصْنَى كُلُّهَا الشَّعْرُ وَالْمَوَى وَالْبَهَاءُ
كَلَامُ الْحَدُّ وَالْبُطُولَةِ وَالسُّرُودُ دُدُّ وَالْمَرْزُ وَالنَّدَى وَالْإِبَاءُ

إِيَّاهُ يَأْمَنْعُ الصَّنَادِيدُ يَا بَيْدُ إِذَا رَجَّحَ جَانِبَيْكَ نَدَاءُ
يَا مَرْبَّ الرِّسَالِ إِنْ صَرَخَ الْجَدُّ يَنَادِيهِمْ وَهَزَّ اللَّوَاءُ
نَامَ يَا بَيْدُ فِي سَكُونِكَ نَدْبُ حَفِظْتَهُ وَهَدَّهْتَهُ السَّمَاءُ
سَهَرَتْ حَوْلَهُ النِّبَاةُ تَرْمِي وَحَامَتُ مِنْ فَوْقِهِ الْأَلَاءُ
مِنْ دُؤَانَاتِ هَاشِمٍ كُلِّهِ طُبْرٌ وَنَبْلٌ وَرَحْمَةٌ وَوَفَاءُ

أَرُوعُ أَيْنَ مِنْ عَزِيمَتِهِ السَّيْفُ وَمِنْ جُودِ كَفِّهِ الْأَنْوَاءُ
عَرَبِيٌّ تَهَلَّلَ الْكَوْنُ لَنَا كَرَّمَتْهُ النَّبِيُّ الْغَرَاءُ
شَعَّ مِنْهُ الْهَدَى فَهَاجَتْ وَمَاجَتْ حَقًّا - جَاهِلِيَّةٌ رَغْنَاءُ
دِينُهَا الْبَغْيُ وَالتَّنَاحُرُ وَالثَّارُ رَاتُ الْبَطْشُ وَالْأَذَى وَالذَّمَاءُ
فَاحْفَظْهُ يَا بَيْدُ فَهُوَ رَجَاءُ الْكَوْنِ وَسَطُ الظَّلَامِ وَهُوَ الضِّيَاءُ
مَا يَدُومُ الْعَمَى إِذَا أَسْفَرَ الْحَقُّ وَلَا النُّورُ وَالظَّلَامُ سَوَاءُ !!

إِيَّاهُ يَا نَائِمًا تَدَاعَبُ جَفْنَيْهِ الْخِيَالَاتُ وَالرُّؤْيَى الشَّنَاءُ
يَا نَبِيًّا فِي صَدْرِهِ خَفَقَ الْكَوْنُ جَمِيعًا، جَرَّاحَةٌ وَالذَّمَاءُ !!
يَا رَسُولًا تَزُو لَطْلَمَتُهُ الْإِسْلَامُ حَيْرَى قَدَّصَمَهَا الْإِدْجَاءُ
أَيُّهَا النَّائِمُ انْتَبِهْ! قَدْ أَتَاكَ السُّرُوحُ يَحْدُوهُ مِنْ غَلَاءِ الْقَضَاءُ
وَالْبُرَاقُ السَّعِيدُ تَحْمَمَ فِي الْبَابِ اشْتِيَاقًا فَاهْتَزَّتِ الصَّحْرَاءُ
طَرَفَ عَلَيْهِ تَمَضُّ الْقَفَارِ سِرَاعًا نَحْتُ وَتَبَاتِيهِ وَيُطَوِّ الْقَضَاءُ
طَرَفَ عَلَيْهِ إِنَّ الْعَوَالِمَ نَشَوَى مُذْ أَتَتْهَا عَنْ سَعِيكَ الْأَنْدَاءُ
وَالسَّمَوَاتُ تَسْتَعِدُّ لِمَسْرَاكِ وَقَدْ زَغَرَدَتْ بِهَا الْبُشْرَاءُ
تَتَغَنَّى فِيهَا الْمَلَائِكَةُ فَرْحِي وَتَهَادَى الْبَشَائِرُ الْأَنْبِيَاءُ
رَفَرَفَا فِي مَاءِ مَكَّةَ، فَالْرِيحُ دَلُولٌ نَحْتُ الْبُرَاقِ رُخَاءُ
وَامْضِيَا تَنْجَحِ الْفَلَاحُ وَالْمَسَافَا تُكَاثِرُ اجْتِدَاءُ هُنَّ انْتِهَاءُ
فَإِذَا شَتَمْتُمَا عَلَى الْبُسْدِ سَيْنَا، وَلَا حَتَّ كُثْبَانُهَا السَّمَاءُ
فَاهْبِطَا، طَرَفَةً الْعُيُونِ، إِلَيْهَا يَا رَبِّي لِمَا رَأَتْ سَيْنَا !!
يَوْمَ نَاجَى الْكَلِيمُ فِي جَانِبِهَا رَبُّهُ، مَلَأَ أَصْغَرِيهِ الرِّجَاءُ
فَهَوَى مُرْعَشًا وَقَدْ هَالَهُ النَّوْرُ وَأَعَشَى عَيْنُونَهُ الْأَلَاءُ
ثُمَّ سِيرَاحَتِي إِذَا (بَيَّتُ لَحْمِي) دَوَّمْتُ مِنْ بُرُوجِهَا الْأَصْدَاءُ
فَاهْبِطَا تَرَاهُمَا الذِّكْرَى فَنَفْسُ

« أَسْفَرَ الرَّفَقُ وَالْهَدَى وَالْحَيَاءُ (١) »

وَأَتَى الْمَسْجِدَ الَّذِي بَارَكَ اللَّهُ حَوَالِيَهُ مِنْذُ كَانَ الْبِنَاءُ

(١) : قَالَ شَوْقِي :

وَلَهُ الرَّفَقُ يَوْمَ مَوْلَاهُ عَيْسَى وَالرُّوَاهُ وَالْهَدَى وَالْحَيَاءُ

فاسجد اغيه للذي غمر الكو ن نداه وعطفه والرضاء
صلياً يتسم المصلّي ابتهاجاً لكما في الدجى ويشد الفناء
واعرجا صاعدين سباعاً طباقاً لا حجاب، لا دجية، لا عماء
ألق باهر، وبحر من النور رخصم، وزواعة، وصفاء
ليس إلا ملائكتك تحمل البشرى ورسول أحبة أصفاء
اصعدا في الجمال حتى تجلي لكما سدره العلى القصاء
وانظرا من على هذه الأجرام طراً، يجل عنها الهباء
نظرة تنظم العوالم والآ باد فيها وتلتقى الأملاء
اسموا، اسموا فما أعظم الأنفس تقى من دونها العليا !
ما أجل الأرواح تعلم وتعلم ثم تعلم، وإن تنامى القلاء !
ما أحب الفناء في النور إتنا كره البث في الثرى والفناء !

إيه مسرى النبي اقدتفكر الآن واز والفجر مقله عياء
ما على جاحديك لوم إذا ضل وا، هل الناس كلهم أنبياء ؟!

مرج المصطفى إليك التّحايا شمسيتها دموعنا والدماء
بوركت أرضك النديّة يا قد س ووشت رياضك النماء
أنت أم الدّنى، ومهد النبوا ت ومنك استغاث الآنا
فيك موسى ألقى عصاه ارتياحاً بعد أن طوحت به الأرزاء
والسيح العظيم فيك تجلي يملأ الأرض من هده السّاء
علم الكون رحمة العبد للعبد، فلا قسوة ولا إيذاء
وغذاء الحب الطهور فلا بفسض، ولا نفرة، ولا أعداء
يا حماة المسيح في القدس ما في

دينه أن يذب الضعفاء !
ليس فيه طرد الهزار من الأيبك لتحتل وكره رقطاع !
يا جيوش الصليب في القدس ما في
شرعيه أن تقتل الأبرياء !

ليس في شرعيه هوان الموائسقي، إذا ما توائق الشرفاء !
ليس فيه أن يذل العرب الأنفس كي تسترقها «الحلقاء» !
يا لدمع المسيح ما كان أصفا ! ولكن روحكم كدراء !
سائلوا هذه المطهر هل صا نته إلا العروبة القرباء ؟ !
سائلوه يا ناس عن عمر القفا روق: «ما كان عدله والوفاء ؟»
سائلوه عن ابن أيوب لما عصفت جنة بكم هوجاء
يوم جاءت جيوشكم مثلما انحطست على التهل التهور الظماء
تفرق المهذ مثلما تفرق للسجد منها الدماء والأشلاء
يوم ضاقت عنها الأباطح في البر وناث بجملها الدأماء
يلهب الحقد والبداء ما قيسها، وتذوق صدرها الأدواء
وابن أيوب يلقى النار بالحلم وتجري بنصره الأنباء
ونفك الموك صفحا ومنا بعد أمر يمز فيه البداء
أنتم تعرفون عدل صلاح السدين وسط العجاج يا طلقاء ؟
لم يهجمكم للتاردين، ولكن جشع الذنب أظلمته الدماء
أي دين يجل ذبح البتاي أي شرع تباد فيه الساء
الأحايش دينهم مثلكم تفتح كريم، لكنهم ضعفاء
وجلود الغزاة بيض لطاف أين منهم جلدة سوداء ؟ !
إنما العرب نعمة الله في الأر ض وهم في ظلامها الأضواء
لهم العز والنبوة فيها ولهم دون أهلها الكبرياء
حملوا مثل الحفارة والكو ن ظلام وحيرة وعماء
هم شمس الورى وصفوة خلق الله والمخلصون والحنفاء
كل مجد لمجدهم يخفض الرأس من خشوعاً ولو نمته الساء !!

دمت قدس العلى ودام لك العز
وذلت في غابك الدخلاء
دمت فوق الشها ودام لك العز ب فداء، وطالب هذا الفداء !
(دمتق) أهب الطرابسى

قَالَ هَذَا الْحَدِيثُ فَقُلْتُ لَا

لَا تَسْتَأْذِنُ أَحَدًا شَائِبًا
الْمَدْرَسَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ

- ١ -



قال الراوي :
كانت السنة الثامنة
منذ هاجر الرسول
عليه السلام من
مكة إلى المدينة ،
وكان صلح
الحديبية الذي
يقف الحرب بين
المسلمين والمشركين
سنوات عشرًا
يقطع عامه الثاني ،

وتبجح قريش في مكة فرصة التروى لعلهم ينجون بكرامتهم
وحياتهم من هذه الدعوة المحمدية ، والنصرة الإلهية . وكان
المسلمون في المدينة ، مهاجرين وأنصارًا ، يستبعدون مدى هذه
الهدنة ، ويسدونها نيلًا من عزيمتهم الدينية ، وقد علموا « لقد صدق
الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين »
وما كان لهم أن يتقضوا عهدًا في أعناقهم أو يفكوا عقدًا للرسول
بإذن الله تعالى . ولكن الله قدر وقضى - لتصدق الرؤيا توثًا
ويكون الفتح المبين - أن تنذر قريش ؛ فقد ناز بنو بكر ابن
كنانة على خزاعة ، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوثير
يطلبونهم بدماء قديمة ، وكانت قريش ترفد بني بكر بالسلاح ،
وتقاتل معهم خزاعة مستخفين بالليل حتى جاوزوا خزاعة إلى
الحرم . فلما انتهوا إليه قال بنو بكر لزعيمهم : يا نوفل ، إنا قد
دخلنا الحرم ، إلهك ! إلهك ! فقال : كلمة عظيمة : لا إله له
اليوم ! يا بني بكر أسيوا ثأركم ، فلمعمرى إنكم لتسرفون في
الحرم ، أفلا تسمعون ثأركم فيه ؟ !

قال الراوي : فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة

وأصابوا منهم ما أصابوا وتقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من
المهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانوا في عقده وعهده ،
خرج عمرو بن سالم الخزاعي ، ثم أحد بني كعب ، حتى قدم على
الرسول المدينة ، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراي
الناس فقال :

إن قريشًا أخلفوك الموعداً وتقضوا ميثاقك للوگدا
فانصر ههناك الله نصرًا أعنتدا . واذعُ عبادَ الله يأتوا مددا
نقال رسول الله : نصرت يا عمرو بن سالم . ثم عرض
لرسول الله عنان من السماء ، فقال : إن هذه السحابة لتسهل
بنصر بني كعب . ثم خرج بُدَيْل بن ورقاء في نفر من خزاعة
حتى قدموا على الرسول المدينة فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة
قريش بني بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة . وقد قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس : كأنكم بأبي سفيان قد
جاءكم ليشد العقد وي زيد في المدة ! ومضى بُدَيْل بن ورقاء وأصحابه
حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بمسكان قد بعثته قريش إلى
الرسول ليشد العقد وي زيد في المدة ، وقد رهبوا الذي صنعوا .
فلما لقي أبو سفيان بُدَيْل بن ورقاء قال : من أين أخفكت يا بُدَيْل ؟
وطني أنه قد أتى الرسول . قال سبَّرت في خزاعة في هذا
الساحل وفي بطن هذا الوادي . قال : أو ما جئت محمدًا ؟ قال :
لا . فلما راح بُدَيْل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان جاء بُدَيْل
المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحته فأخذ من يمرها
فَقَتَهُ فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بُدَيْل محمدًا
ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله المدينة ، فدخل
على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فلما ذهب ليجلس على فراش
الرسول طوته عنه . فقال : يا بُنية ، ما أدرى أُرغبت بي عن هذا
الفراش أم رغبته به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله وأنت
رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش الرسول .
قال : والله لقد أصابك يا بُنية بدمي شر . ثم خرج حتى أتى
الرسول فسلمه فلم يرد عليه شيئًا . ثم ذهب إلى أبي بكر فسلمه
أن يكلم له رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب
فسلمه فقال : أنا أشفع لكم إلى الرسول ؟ ! فوالله لو لم أجد
إلا الله لجاهدتنكم به . ثم دخل على علي بن أبي طالب وعنده

دعا حاطبا ، فقال : يا حاطبُ : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكني صانمت القوم لأهل وولدي بين أظهرهم . فقال عمر ابن الخطاب : دعني فلا ضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . فقال الرسول : وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفروه واستخلف على المدينة كاثوم بن حصين النخاري . وخرج لمشر مضين من رمضان ، فصام وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالكديد بين عسفان وأمج أظفر ؛ ثم مضى حتى نزل بئر الظهران — في عشرة آلاف من المسلمين — وهو واد قرب مكة ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل

وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به ! وكان العباس بن عبد المطلب قد اتى الرسول ببعض الطريق مهاجراً بعياله ، وكان قبل ذلك مقبلاً بمكة على سقايته والرسول عنه راض . قال العباس فقلت : واصباح قريش ! والله إنني دخل رسول الله مكة عنوة دون أن يأتيه فيستأمنوه ، فهو هلاك قريش إلى آخر الدهر . قال : فجلست على بئلة رسول الله البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك لملي أجد من يأتي مكة فيخبرهم بمكان الرسول ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . قال : فوالله إني لأسير عليها وألتص ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعا ، وأبو سفيان يقول له : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً ، فيقول بديل : هذه والله خزاعة حمشها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها . قال العباس : فمرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فمرفت صوتي فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك فذاك أبي وأمي ؟ قال : قلت : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله في الناس ، واصباح قريش والله ! قال : فما الحيلة ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فأركب في محجز هذه البئلة حتى

فاطمة بنت رسول الله وعندها الحسن بن علي يدب بين يديها ، فقال : يا علي إنك أمس القوم بي رجاً وإنني قد جئت في حاجة فاشفع لي إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم الرسول على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى ببنيتك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بني ذلك أن يجبر بين الناس ، وما يجبر أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فأنصحنى . قال : والله ما أعرف لك شيئاً ينشئ عنك شيئاً ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . قال : أوترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولكني لأجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ، وركب بيمره وانطلق . فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ فقص عليهم ما جرى ، فقالوا : ذلك لا ينشئ شيئاً ، قال : ما وجدت غير ذلك

— ٢ —

قال الراوى : وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه . فدخل أبو بكر على ابنته عائشة زوجة الرسول ، وهي تحرك بعض جهازه عليه السلام ، فقال : أي بنية ، أأمركم رسول الله أن تجهزوه ؟ قالت : نعم فتجهز . قال : فأين تربته يريد ؟ قالت : والله ما أدري . ثم إن الرسول أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والهيؤ وقال : اللهم خذ الميرون والأخبار عن قريش حتى تنفها في بلادها . فلما أجمع السير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتمة اللخمي كتاباً إلى قريش يخبرهم أن الرسول إليهم سائر ؛ ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبخله قريشاً فجعلته في رأسها ثم قتلت عليه قرونها وخرجت به . ولكن الخبر قد أتى الرسول من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام فأدركا المرأة فالتصا الكتاب في رحلها فلم يجدوا شيئاً . فقال لها علي : إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أولنكشفنك . فلما رأت الجبد منه قالت : أعرض ، فأعرض فخلت قرون وأصها فاستخرجت الكتاب منه فدفعته إليه ، فلما أتى به الرسول

جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به . وأذاع فيهم ما جعل له الرسول نفراً ، فنفروا الناس إلى دورهم وإلى المسجد آمنين

— ٣ —

قال الراوى : إن أسماء ابنة أبي بكر قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى طوى عند مكة قال أبو خافة — والد أبي بكر وكان كفيف البصر — لابنة له من أصغر ولده : أى بُنيّة اظهري بي على أبي قبيس . قالت : فأشرفت به عليه فقال : ماذا تريين يا بنيّة ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً . قال : تلك الخيل . قالت : وأرى رجالاً يسمى بين يديه ذلك السواد مقبلاً ومديراً . قال : ذلك الوازع الذى بأمر الخيل ويتقدم إليها ثم قالت : قد والله انتشر السواد . فقال : قد ، والله دفعت الخيل فأمرى بي إلى بيتي . فانحطت به الفتاة وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته . قالت : وفي عنق الجارية طوق من ورق فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها ، فلما دخل الرسول مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده . فلما رآه الرسول قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه ، قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يعيش إليك من أن تمشي إليه أنت . قال : فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ، وقال له : أسلم فأسلم . ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال : أنشد الله والاسلام طوق أختي ، فلم يجبه أحد فقال : أى أختية احسبى طوقك . ثم فرق الرسول جيشه من ذى طوى ، فدخلت فرقة مكة من نواحيها ونزل الرسول بأعلى مكة وضربت له هناك قبة

وكان صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، قد جمعوا أناساً بالخدم — جبل بمكة — ليقاتلوا المسلمين . وكان حماس بن قيس من بني بكر يُمدُّ سلاحاً قبل دخول الرسول . فقالت له امرأته : لماذا تمد ما أرى ؟ قال : لحمد وأصحابه . قالت : والله ما أرى أنه يقوم لحمد وأصحابه شيء . قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بمسهم . ثم شهد الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة وأناس من المشركين فهزمتهم رجال خالد بن الوليد ، فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقت على بابي . قالت : فأن ما كنت تقول ؟ فقال : إني لو شهدت يوم الخندمة إذ فر صفوان وفر عكرمة

أتى بك رسول الله فاستأمنه لك . قال : فركب خافى ورجع أصحابه ، فبحث به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بنو الرسول وأنا عليها ، قالوا : عم رسول الله على بنته ؟ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ثم خرج يشتد نحو الرسول فلاحقته إليه ، فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى فلاضرب عنقه . فقال العباس : إني قد أجرته يا رسول الله . فقال الرسول : يا عباس إذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به . قال : فلما أصبحت عدوت به إلى رسول الله فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بآبى أنت وأبى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد . قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بآبى أنت وأبى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً . فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق فأسلم . قال العباس : قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً . قال : نعم ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فلما ذهب ليتصرف قال الرسول : يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها . قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرنى رسول الله أن أحبسه ، ومرت القبائل على راياتها كلما مررت قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فأقول سليم ، فيقول مالى ولسام ؟ ثم تمر القبيلة فيقول يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول مزينة ، فيقول مالى ولزينة . حتى مر الرسول في كتبتته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد . فقال سبحانه الله يا عباس من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء قبيل ولا طاعة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك النداء عظيماً . قال العباس : قلت يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فتمم إذن . قلت : انتجاء إلى قومك . فلما

وابو يزيد قائم كالقائمة^(١) واستقبلتهم بالسيوف المسلحة
يقطن كل ساعد وجمعه ضرباً فلا يسمع إلا غمغه^(٢)
لهم صوت^(٣) خلفنا وهممة لم تنطق في اليوم أدنى كلمة

لما نزل الرسول مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت
فطاف به سبماً على راحلته يستلم الركن بحججته في يده . فلما
قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت
له ، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرسها .
ثم وقف على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله ، وحده
لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب
وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدسي »
هاتين إلا سداة البيت وسقاية الحاج إلا وقيل الخطأ شبه السد
بالسوط والمصاف فيه الآية منقولة ، مائة من الإبل . أربعمائة
منها في بطونها أولادها . يا مشر قريش ، إن الله قد أذهب
عنكم نخوة الجاهلية وتعتكها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم
من تراب . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوباً وقبائل لتهادوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله
عليم خبير » ثم قال : يا مشر قريش ؛ ما ترون آني فاعل فيكم ؟
قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم
التقاتلوا . ثم جلس رسول الله في المسجد فقام إليه علي بن
أبي طالب ، ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله اجمع لنا
الحجاجة مع السقاية صلى الله عليك . فقال الرسول : أين عثمان
ابن طلحة ؟ فدعى له ، فقال : هات مفتاحك يا عثمان ، اليوم
يوم بر ووفاء

قالوا : لما دخل عليه السلام البيت يوم الفتح رأى فيه صور
اللائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوراً في يده الأزام
يستقسم بها ، فقال : فأنزلهم الله فجعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام
ما شأن إبراهيم والأزلام ؟ « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً
ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » . ثم أمر
بتلك الصور كلها قطعت . وكان يقول وهو يشير إليها : « جاء
الحق وزهى الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً »

قال الراوى : أراد فضالة بن عمر بن الملوحة الليثي ليقول

(١) الوثقة : أسطوانة (٢) المنمة : أصوات غير مفهومة من
الخلل لها (٣) التبت : صوت الصدر

١٠ - ٣١

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح ،
فلما دنا منه قال الرسول : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة . يا رسول الله
قال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لأشئ . كنت أذكر
الله عز وجل . فضحك النبي ، ثم قال : أستغفر الله ! ثم وضع
يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله ما رفع
يده من صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه . قال
فضالة : فرجعت إلى أهلى فررت بأمرأة كنت أحدث إليها ،
فقلت : هلم إلى الحديث ، فقلت : لا ، وانبت فضالة يقول :
قلت : هلم إلى الحديث فقلت : لا . يا بى عليك الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله بالفتح يوم تكسر الأصنام
لأريت دين الله أخشى يئساً والشرك يشى وجهه الاغلام
قلت : هذه صفحة من أعجده صف الإسلام ديناً ، وخلقاً ،
وسياسة ، وأدياً ، وحجاسة ، ليس لي فيها إلا تخليصها من أطواء
السيرة ، وعرضها بأسلوبها ، لعل في الله كرى نصاً :

وإذا قاتك الثقات إلى الله ضى فقد غاب عنك وجه الناس

أمر الشاب

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الطائى

أبى العلاء المعرى

طريقة من روائع الأدب العربى في طريقته ، وفي أسلوبه .
وفي معانيه . وهو الذى قال فيه ناقداً أبى العلاء إنه عارض
به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول
مرة في القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محور حسن زمانى

تمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ

فَاتِحُ أَفْرِيقِيَّةٍ وَقَاهِرُ الرُّومِ وَالْبَرْبَرِ
لِلْأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَتَى مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّنِّ مَيِّتَةً تَعُودُ مَقَامَ النُّصْرَةِ إِنْ فَاتَهُ النُّصْرُ
وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مُضْرَبٌ سَبْقَهُ مِنَ الضَّرْبِ وَاحْتَلَتْ عَلَيْهِ الْفَتَا السَّرَّ
وَلَقَدْ كَانَ فُوتَ الْمَوْتُ سَهْلًا لَرَدِّهِ إِلَيْهِ الْخَفَافُ لِلَّهِ الْخَلْقُ الرَّحْمَنُ



لَنْ كَانَ ابْنُ
الْوَلِيدِ بِمُجَاهِدِهِ فِي
اللَّهِ قَدْ سَمِيَ قَاهِرَ
الْقِيَاسَةِ ، وَلَنْ
كَانَ سَعْدٌ بِمَا رَاحِلَ
وَصَابِرٌ فِي أَرْضِ
الْفَرَسِ يَوْمَ التَّقِي
الْجَمَانِ قَدْ اسْتَحَقَّ
لِقَبِّ مَيْدَلِ
الْأَكَاكِرَةِ ، فَإِنْ
الْبَطْلُ الْمُجَاهِدُ عَقِبَةُ

ابْنُ نَافِعٍ الْقَهْرِيُّ قَدْ كَسَبَ لِنَفْسِهِ تَحْتَ رَايَةِ الْإِسْلَامِ مَرَاتِبَةً لَنْ
تَنْزُلَ بِهِ قِيَا أَرَى مِنْ مَرَاتِبَةِ ذِيكَ الْبَطْلَيْنِ . فَهُوَ فَاتِحُ أَفْرِيقِيَّةٍ ،
أَمِيرُ الْمَغْرِبِ ، قَاهِرُ الْبِيزَنْطِيِّينَ وَالْبَرْبَرِ

حَارِبٌ خَالِدٌ قَوْمًا هَدَمَ الثَّرُورَ وَالتَّرَفَ ، كَانُوا قَبْلَ لِقَاءِ
الْمُسْلِمِينَ بِأَسْهَمٍ يَنْهَمُ شَدِيدٌ ؛ فَلَمْ يَكُونُوا حِينَ سَاقُوا جُوعَهُمْ
يُدَافِعُونَ عَنْ عَقِيدَةِ أَوْ يَنْوَدُونَ عَنْ مَبْدَأٍ ، بَلْ لَقَدْ كَانُوا يَقْفُونَ
فِي وَجْهِ عَقِيدَةٍ مُنْبِئَةٍ مِنَ الصَّحْرَاءِ ، الْمَوْتُ فِي سَبِيلِهَا أَحَبُّ إِلَى
أَحْبَابِهَا مِنَ الْحَيَاةِ . وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ تَحْتَ رَايَةِ خَالِدٍ وَأَبِي عُبَيْدَةَ
يُقَتَّلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَتَقْدُّ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ مِنَ اللَّهِ بِأَنْ لَمْ
الْجَنَّةِ ؛ كَلَّمَهُمْ كَلِمَةً أَمِيرُهُمْ ، وَوَجْهَهُمْ وَجْهَةً خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ
فِيهِمْ ، فَلَا تَنَازُعَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَنَابُذَ وَلَا إِحْنٍ وَلَا انْقِسَامَ ...

وَكَذَلِكَ كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْقَادِسِيَّةِ كَالْبُيْهَانِ الْمَرْصُوحِ ،
لَمْ يَعْرِفْ الْخُلَفَاءُ سَبِيلًا إِلَى صَفْوَتِهِمْ ، وَلَا وَجِدَ الزُّهْمُ طَرِيقًا إِلَى

(*) أُلْجِئَتِ الْكِتَابَةُ عَنْ تَكُونِهَا إِلَى الْمَدَدِ الْقَادِمِ

قُلُوبِهِمْ ، يَسْقُطُونَ عَشْرَاتٍ وَمِثْلِينَ وَلَا تَسْقُطُ الرَايَةُ ؛ وَيَشْتَرُونَ
الْآخِرَةَ بِالْأُولَى فِي إِيمَانٍ وَبِقِيْنٍ ، وَغَايَةُ الْمُجَاهِدِ مِنْهُمْ أَنْ يَطْلُبَ
أَوْ يَدْفِعَ عَنْ نَفْسِهِ الْمَرْزُومَةَ بِالْمَوْتِ ؛

أَمَّا عَقِبَةُ فَقَدْ جَاءَ دَوْرُهُ بَعْدَ أَحْقَادٍ وَأَحْدَاثٍ فَرَّقَتْ كَلِمَةَ
الْمُسْلِمِينَ وَجَمَلَتِهِمْ شَيْعًا وَكَادَتْ تَأْتِي عَلَى بِنْيَانِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ . جَاءَ
دَوْرُ عَقِبَةٍ فِي الْجِهَادِ بَعْدَ مَا كَانَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ قَتْلِ عُثْمَانَ ،
وَبَعْدَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْجُلِّ وَصَفَيْنِ . جَاءَ دَوْرُهُ بَعْدَ أَنْ عَرَفَ
الْإِسْلَامُ الْخَوَارِجَ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الْأَحْزَابِ ، وَبَعْدَ أَنْ عَرَفَ السُّلُوكَ
طَرِيقَةً أُخْرَى فِي الْفِتْنَةِ وَالْأَسْلَابِ ...

وَكَانَ عَقِبَةُ يَحَارِبُ الرُّومَ وَالْبَرْبَرِ ؛ وَكَانَ الْبَرْبَرُ أُولَى بِأَسْ
وَعَتَادٍ . حِيلُوا عَلَى الْحَرِيَّةِ فَلَا يَكَادُونَ يَمْرُقُونَ مَا الْخَضُوعُ ، طَبِيعَةُ
نَفْسِهِمْ كَطَبِيعَةِ بِلَادِهِمْ ، فِيهَا مَنَاعَةُ الْجِيَالِ وَوَعُودَةُ الْجِيَالِ ، وَفِيهَا
صِرَاطُ الْبَيْدِ وَبَسَاطَةُ الْبَيْدِ ؛ فَهَمُّ لَدُنْكَ فِي الْقُوَّةِ كَالْمَرْبِ الْمُهَاجِمِينَ
يَطْرَحُونَ نَفْسَهُمْ تَحْتَ الْمَنَآئِلِ وَلَا يَطْرَحُونَهَا تَحْتَ أَقْدَامِ الْفَاتِحِينَ
وَكَانَتِ الْبِلَادُ الَّتِي أَتَخَنَ فِيهَا بِخَيْلِهِ وَرَجُلِهِ مَتْرَافِيَةً الْأَطْرَافِ
بِحُدُودِ الْمَطَارِحِ الَّتِي إِلَّا وَاحِدَةً هُنَا أَوْ غِيضَةً هُنَاكَ ؛ وَبِقَاعًا خَضِرَاءَ
قَلِيلَةً عَلَى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ حَوْلَ مَجَارِي السِّيُولِ وَالْأَنْهَارِ . وَكَانَتِ
تِلْكَ الْبِلَادُ لَا مَتَدَادَ رَقْعَتِهَا . وَبَعْدَ مَا بَيْنَ أَوَّلِهَا وَآخِرِهَا أَقْسَامًا
لِكُلِّ مِنْهَا اسْمٌ يُمَيِّزُهُ ؛ فَهَذَا هُوَ أَفْرِيقِيَّةٌ ، ثُمَّ هَذَا هُوَ الْمَغْرِبُ
الْأَدْنَى ، ثُمَّ هُنَاكَ مِنْ وَرَائِهِ الْمَغْرِبُ الْأَقْصَى ... لَدُنْكَ كَانَ عَقِبَةُ
وَجِيشُهُ يَحَارِبُونَ فِي هَذِهِ الْقِيَاقِ الْمَتْرَافِيَةِ عَدُوِّينَ : الْبَرْبَرِ الْفَلَاظِ ،
وَالطَّبِيعَةِ الْقَاسِيَةِ ؛

وَلَهُ عَقِبَةُ بْنُ نَافِعٍ الْقَهْرِيُّ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ وَلَمْ تَعْرِفْ لَهُ عَلَى
الْأَرْجَحِ حُجَّةٌ ، فَكَانَ لَدُنْكَ مِنَ التَّابِعِينَ . وَكَانَ عَقِبَةُ — كَمَا سَيُتَجَلَّى
لَنَا مِنْ أَعْمَالِهِ — يَمَثُلُ الْخَلْقَ الْعَرَبِيَّ أَحْسَنَ تَمَثِيلٍ . كَانَ شَجَاعًا
مُقَدِّمًا بِسَيْدِ الْمَعَةِ ، صَلِيبِ الْمَرْزُومَةِ ، صَرِيمَ الْخَلْقِ ، شَدِيدَ الْإِيمَانِ
لَا يَهَابُ قَلْبُهُ الْكَبِيرُ الْمَوْتَ فِي أَشْبَعِ صُورِهِ .. وَكَانَ فِي إِقْدَامِهِ
سَرِيعًا وَلَكِنَّهُ كَانَ وَثِيقَ الْخَطْوِ تَذَكَّرْنَا وَثْبَانَهُ وَثْبَاتَ خَالِدٍ حِينَ
كَانَ يَقْطَعُ الْبَيْدَ وَالْفَاوِزَ ، وَحِينَ ذَهَبَ لِحُجِّ ثُمَّ كَانَ بَعْدَ قَلِيلٍ
فِي سَاقَةِ الْجَيْشِ

بَعْدَ أَنْ تَمَّ لِلْعَرَبِ إِمْلَانُ كَلِمَةِ اللَّهِ فِي مِصْرَ وَاتَّجَهُوا نَحْوَ
الْمَغْرِبِ جَائِزًا بَرَقَةً فَادْعَتَتْ لَهُمْ بَعْدَ جِهَادٍ ؛ وَصَالِحُهُمْ أَهْلُ تِلْكَ
الْبِلَادِ عَلَى الْجَزْيَةِ وَدَانُوا لَهُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلَكِنَّ الرُّومَ حِينَ انْحَصَرَ

من جندة ذات الجبين وذات النبال حتى تم له الأمر ، على بعد الشقة وترأى البيد وصرامة القتال ؛ فلما أشرف على موضع كان غير بعيد من موضع قرطاجنة القديمة ابنتى للعرب قاعدة جديدة ابنتى عقبة القيروان ليقيم فيها المسلمون إذ لم يحب لهم أن يقيموا بين هؤلاء البربر . وكان موضعها بعيداً من البحر حتى لا تطرقها صراكب الروم ، وهى فى البر بحيث تتوسط البلاد وتكون مغفلاً لصد البربر . وكان الموضع الذى اختاره أجرة عظيمة تسكنها السباع والحيات والأرقام ؛ ولعل هذه الخلائق روعت ، وقد أحاط جيش عقبة بالمكان ، فنفرت أسراباً تحمل صفارها هاربة إلى الصحراء ، وكان عقبة قد دعا الله أن يرسل أسلم من البربر كثير ممن شاهدوا هذا الرحيل ؛ وهل يكونون من الوحوش والأفاعى أشد قسوة ؟ واختطت المدينة وشيد بها عقبة داراً للأمانة ، وبني مسجداً ، وبني الناس بيوتاً لهم ؛ واستقامت المدينة ستة خمس وخمسين وصارت تجاوب مآذنها مآذن الكوفة ودمشق والفسطاط ، كلما أذن المؤذنون ورفعوا أصواتهم يذكرون اسم الله ...

وهل كان لعقبة أن يقنع بما وصل إليه من فتوح وقد ضاقت البيد عن همته ؟ لقد حول على مواصلة الزحف ليحمل كلمة الله ، ويعلن اسم الله فى مواطن جديدة ؛ ولكن معاوية يجعل أمر مصر وأفريقية لمسلمة بن مخلد ؛ ويستعمل مسلمة على أفريقية مولى له هو أبو المهاجر ؛ ويقبل أبو المهاجر فلا يرى لعقبة مقاماً فيوثقه ويسمى إليه كأن بينهما ترات ؛ ولكن البيت فى الحديد لن تنخل عنه طبيعته ، فما يزال عقبة صبوراً لا يعرف استخذاء ولا مسكنة . ويطلقه أبو المهاجر ليرحل عن تلك البلاد ، فيرحل عقبة وفى نفسه حق أى حق ، وقد تماظمه الأمر وهو الفاتح القاهر ؛ ولكن الأرض لله يورثها من يشاء ، والأيام دول بين الناس . رحل عقبة برغمه وقطع بلاداً دانت من قبل لسيفه حتى جاء دمشق فمات معاوية غنائماً شديداً على ما كان من أمره بعد ما ألقى فى الله من بلاء ؛ وأراد معاوية أن يخفف عنه بعض ما به فوعده أن يرسله بعد حين إلى القيروان من جديد .

وأما لشجار فيما صنع معاوية ؛ هل كان يخشى قوة عقبة ويشفق أن يعظم ويعظم حتى يخرج عن سلطانه ؟ أم كانت تلك

العرب عن برقة عادوا يبنون سلطانهم هناك من جديد ، وقد أذاقوا البربر صنوفاً من المذاب فلم يستمعوا لهم إلى مظلمة أو يبالوا بما عسى أن تكون عاقبة أمرهم

وكان العرب فيما هم فيه يومئذ ، بعد مقتل عثمان من بنضاض وتنازع ؛ وما زالوا فى شقاقهم حتى تم الأمر لمعاوية فوجههم من جديد وجهتهم الأولى ضد أعدائهم

ولقد كان لعقبة فى فتح البلاد أول الأمر من مصر إلى برقة جهاد ، وكانت له خطوات بارعة ، ولكن أفعاله كانت لحقاً فى ذلك الفتح إذ لم تكن له القيادة يومئذ . ولقد بقى عقبة فمين بقى من العرب فى حامية زويلا حتى كانت سنة خمسين للهجرة فأمدته معاوية بعشرة آلاف ليفزواهم أفريقيا ؛

أصبحت القيادة لعقبة ، وذلك ما طال انتظاره إيائه ، وأحس هؤلاء الآلاف المشرة ووحاً قوية تنمرهم وتشجع عزائمهم تحت لوائه ، حتى كأن الواحد منهم بألف ، فقام منهم إلا عجب للجهاد ، مستهين بالأحوال ، صريح بالثوت كقائده . وزحف بهم عقبة فاشهد الروم ولا البربر زحفاً أشد هولاً من هذا الزحف . لم تنف عنهم كثرتهم ، ولم تنف عنهم عدتهم ، وكانت أقواتهم فى بلادهم موقورة لهم ؛ ولا أقوات هؤلاء العرب للتبسلين إلا ما يستلبون منهم من غنائم

وكانت الحرب طاحنة ، وكان الجهاد مريراً ، فالبربر أهل جلال ومعاصرة ، وهم خيرون ببلادهم عليمون بمسالكها ؛ فكانوا إذا اشتدت عليهم وطأة محاربتهم اعتصموا بالبيد ففربوا فى أرجائها ، وبالكثبان فكنتوا من ورائها ، حتى إذا زحف العرب وقد أخذ منهم الجهد بعد أن لم يبل منهم الخوف ، وقد انطوت على السنب أحشاؤهم الضاوية ، وتفرحت من الحراً كبادهم الصادية ، برزوا لهم كأنما يخرجون من الأرض ، ولكن لتركوا من سلاحهم وزادهم بعد القتال شيئاً غير قليل فى أيدي أعدائهم

وكان عقبة يقسو فى قتال هؤلاء القوم لما خبر من طباعهم ، ولما عرف من غدورهم ومكرهم ، فهم إذا غلبوا على أمرهم يضعون السلاح ولكنهم لا يضعون الانتقام ، فإذا واتهم الفرصة نشوا كل عهد واستخفوا بكل ميثاق . وكانت سيوف العرب ونبالهم تقمل فتلها القوى فى هؤلاء القوم كما كانت تقمل فيهم عزيمة العرب ومضاء العرب . وظل الحال كذلك وعقبة يرسل عليهم

هي فلة مسلمة جازت على معاوية دون أن يتدبر لها ؟ الحق أما
لني حيرة مما صنع ...

وكانت لأبي المهاجر سياسة في أفريقية غير سياسة عقبة ؛
جعل السياسة والملاينة في « ضع السيف ، واتسل بكبراء البربر
وخفض لهم جناحه وصانهم في أكثر الأمور . وكان يسفه
آراء عقبة عندهم كما كان يسفهها عند المسلمين ، وكان لا يقر له
بفضل أو يترك أحداً من شيعته دون أن يلحق به أذى حتى عظم
ذلك على الناس . ولكن البربر أحبوا سياسته وصانموه مثلاً
سانهم . وكان كبيرهم في ذلك رجل اعتنق الاسلام من قبل يقال
له كسيلة ؛ وكان كسيلة هذا به كبرة بمبها الفظاظلة والفظلة ،
وكان بطبمه أنوفا عيوفا لا يطيق أن يطلب على أمره .

وراح أبو المهاجر يعد الفتوح إلى المغرب وقد انحاز إليه
البربر ، فخارب الروم في قرطاجة ولكنه لم يقو عليهم ؛ على أنه
مد سلطان المسلمين قليلاً إلى المغرب ، ولبت في تلك البلاد بضع
سنتين أقرب إلى الدعة منها إلى الجهاد ، وقد قترت في المسلمين
حيثهم إلا قليلاً ؛ وكانوا يذكرون أيام عقبة وإقدام عقبة فتتطوى
على الهم قلوبهم . وهم لا يعلمون ما تأتي به الأيام ...

ولكن لدهر صروفه وتقلباته ، فقد مات معاوية وصارت
الخلافة لابنه يزيد . وفي سنة ثنتين وستين للهجرة أعيد عقبة إلى
أفريقية . وجاء يسمى إليها يطوى البلاد طياً ، وفي قلبه من الحماسة
للجهاد مثل ما فيه من الكيد لأبي المهاجر . وهل كان يستطيع
عقبة أن ينسى ما كان من أبي المهاجر ، وقد كان يحز في نفسه
ما صنمه به منذ أخرج من أفريقية ؟ أوثقه اليوم عقبة كما أوثقه
هو من قبل ، وشد عقبة وثاقه ، وبالع في الكيد له فكان يحمله
في غزواته مقرناً في الأصفاة ؛

وفرح المسلمون للقاء قائدهم ، وانبعثت في قلوبهم الحمية ،
واجتمعوا تحت لوائه يبدؤون الزحف من جديد ؛ وعاد للقيروان
عزها ومنعتها ؛ وألقى الرعب في قلوب البربر والروم وهم كما علموا
لا قبل لهم بمقبة ؛ وكان عقبة يضم الحفد لكل من كانت له صلة
بأبي المهاجر ، وفي طبعة هؤلاء كسيلة رأس البربر

رفع اللواء واستؤنف الزحف ، وحل الجهاد للصابرين .
أنظر إلى عقبة يستخلف بالقيروان زهير بن قيس البلوي ويحضر

أولاده فيقول : « إني قد بعت نفسي من الله عز وجل فلا أزال
أجاهد من كفر بالله » ثم يوصي بما يفعل بعده ويتقدم على رأس
جيئته يخوضها حروباً مستمرة متوالية ...

الشقة بييدة ، والعدد متكاثر له في الشعاب والقلل مخابى .
رققاً يا عقبة بالبوائل القليلين ؛ ولكنهم على قلوبهم كالسيل الأنفى
لا يصرفهم عن وجهتهم شئ ، ولا تقف من دونهم عقبة . هاهم
— أولاد يقربون من مدينة باغية وفيها من الروم حشد عظيم ، والبربر
من وراءهم يعركونهم ويتربصون بهم الدوائر ؛ ولكن العزم
المصمم لا يعرف الحوائل . لقد التقي الجمان واشتد القتال وزلزل
الروم زلزالاً شديداً ؛ وكثرت منائم المسلمين وكثر عدو صراعهم ،
واعتصم الروم بالمدينة فحاصرها عقبة ثم كره المقام عليها فاستأنف
الزحف

رققاً بالبوائل القليلين ؛ بمدت الشقة وقلت القلة ؛ ولكن
عقبة لا يعرف النكوص ولا يخاف الموت وقد باع نفسه من الله ؛
ميدانه بعد باغية بلاد الزاب ، وهي بلاد واسعة بها مدن وقرى .
— سار عقبة وجيشه حتى جاءوا مدينة أربة قصبية تلك الديار ،
فوقف له الروم وظاهرهم عليه البربر واعتصموا بالجبال ، ثم التحموا
بالمغرب في عدة معارك آثروا بعدها الفرار من الموت ، تاركين
الكثير من أسلحتهم وخيلهم ...

إلى أين يا عقبة بعدها بالكرام الصابرين ؟ إلى تاهوت ،
وبالقول ما كان في تاهوت ؛ تكاثرت العدد واستقتل البربر ، ولكن
العرب صابرون ؛ أحدق الخطر بالبوائل الأنجاد ، ولكن لهم
في عقبة وبلاء عقبة الحصن القوي والمتصم الأمين . وما هي إلا
غمرة ما لبثت أن أنجحت على وميض السيوف والتماع الأسنة ، وعاد
النصر إلى صفوف المجاهدين المستبسلين

— والقائد الظافر بهذا النصر يطفر من الحماسة والجيش من
ورائه يهبط الوهاد ويركب النجاد ، وقد عظم بمد ما بينه وبين
القيروان ؛ ولكن ماله وللقيروان الآن وقد أصبحت البلاد كلها
له ، وعرف الاسلام سبيله إلى قلوب المهتدين من أهلها ؛ سار
الجيش حتى نزل على طنجة ، فأحسن بوليان بطريق الروم لقاء
عقبة وقدم له الهدايا واستفهمه عقبة عن الأندلس ، ولكن أين
السفين ليحمل الفاتحين ... ؟

وماذا بعد طنجة للفرقاء الظافرين ؟ نزل بهم عقبة — أو نزل

اسكندر العرب كما يسميه جيون — على بلاد السوس الأدنى ومظلم أهلها من البربر ولهم بأس شديد، إذ لم يكن لهم كغيرهم في البلاد الأخرى كبر صلة بالروم؛ وكانوا كفاراً لم يستنقوا النصرانية؛ فما زال بهم المسلمون حتى دأوا لهم، وآمن منهم من آمن بالكتاب وهرب من نجا من السيف إلى الجبال والهامه، ثم إلى بلاد السوس الأقصى، وهي بلاد ذات خصب يكثر عدد ساكنيها من البربر، وأين المفر من عقبة وجيش عقبة، وهل ثمة ما يجمعه أن يفر السوس الأقصى؟

احتشدت له البربر هناك في أقصى الأرض جموعاً هائلة، وقتلوه قتلاً شديداً تجلى فيه بأسهم وشجاعتهم، ولكن عقبة لم يزل بهم حتى فرق جموعهم وأذهب ربحهم، وأوصل الخيل من ورانهم تطاردتهم في الجبال والصحراوات وقد كثر ما غنمه منهم، وأخذ يعلن فيهم دين الله. وتقدم بعد ذلك فإذا الخضم الفسيح يمتد أمام بصره؛ أنظر إليه وقد وقف على شاطئ المحيط برهة ثم غمز جواده فنزل به في الماء حتى جاوز الماء صدره، وشهر سيفه ووقع إلى السماء بصره، ثم استمع إليه يقول: «يا رب لولا هذا البحر لضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»

لولا البحر لضى عقبة الفاتح مجاهداً في سبيل الله، وهل كانت به حاجة إلى هذا القول وله من غزواته ما هو أبغ من كل كلام؟ إنها لمعري قصيدة رائعة لا زال الدهر يرونها ولا تزال في سجل البطولة رائعة المقاطع ورائعة التفاصيل؛ وماذا أبغ من تلك القلة تصل ما بين المشرق والمغرب، وتقاتل البربر والروم في بلاد مجهولة السالك بعد ما بين قاصيها ودانيها؟ وأي بلاد هي بل وأي قوم؟ لم يلق المسلمون في أي موطن في مشرق الأرض مثل ما لاقوا هنا من عراك وبلاء؛ بل لم يلق غير المسلمين من الفزاة قبل بلاء هو أشد مما لاقى العرب في بلاد المغرب من بلاء. كانت القبائل الموثورة تنزل من الجبال كما تنزل الكواكب فتتفض على جناحي الجيش الغازي مرة، أو تأتيه من خلفه مرة، بينما يمرض القلب لقتال شديد من المتصددين له. ولو كان على رأسهم غير عقبة لما جاوزوا برقة إلا قليلاً

وقف البحر في وجه عقبة وما استمضى عليه غير البحر، فكان لا بد من الرجوع. فأدار البواصل المجاهدون وجوههم يريدون القيروان ولم يلاقوا في أوجهم عتقا أول الأمر؛ حتى آمن

عقبة واستخف بالأمر فأرسلهم إلى القيروان قبلاً يتلوه قيل ولكن البربر قلبهم مطوية على الحقد، كما كانت نفوسهم مبطورة على القدر، وكان كبيرهم كسيلة يتحين الفرصة ويتبها للانتقام. كانت بينه وبين عقبة أشياء فهو من شيمة أبي المهاجر، أسلم في عهده وحسن إسلامه، فلما عاد عقبة استخف به وبالحق في إيدائه؛ حتى لقد أمره مرة أن يسلم الشيء مع السالخين وهو يقول هؤلاء غلمان يقومون بما تريد، ولكن عقبة يابى إلا أن يذله. ولقد نصح له أبو المهاجر أن يحسن معاملة عقبة وقبح فعله على ما ينهها من خصومة، ولكنه أبى واستكبر استكباراً. وعاد أبو المهاجر فأشار عليه أن يوثقه ولكنه أعرض حتى عن هذا ليت عقبة سمع ما أبدى له من نصيح فرعاه وأتبمه، أجل لبتة تدبر ما أشار به أبو المهاجر، إذا لنجا عما كان يدبر له.

قصده عقبة في أوبته تهوداً وفيها للروم جيش وحسن؛ لم يكن معه إلا بقية جيشه الفاتح، فاستهان الروم بالغازي وأغلظوا له القول، بل لقد وصل بهم الأمر إلى الباب وهو يدعوهم إلى الإسلام؛ فوقف ليذيقهم بأس سيفه، ولكنهم كانوا قد أخذوا للأمر عدته من قبل، فبينهم وبين كسيلة مؤامرة محكمة. وأقبل كسيلة في هذا الموقف الذي يطيش فيه الكسبي، فأصبح عقبة بين نارين: الروم من ورانته والبربر الأشداء من أمامه؛ ولكن قلبه لم يخلق له الفرع؛ تقدم ليلق كسيلة ففر ريثما يتكاثر حوله البربر؛ وبأنه حينئذ من أبي المهاجر أنه ينشد في وفاته:

كفى حزناً أن تردي الخيل بالقنا وأترك مشدوداً على وثاقها إذا قت عناق الحديد وأغلقت مصارع من دوني تصم النوايا سمع عقبة ذلك فقلبت عليه شيمته العربية وأطلق خصمه من وثاقه وقال له: «الحق بالمسلمين وتم على أسرارهم وأنا أغتم الشهادة»؛ ولكن أبا المهاجر يطمع في الشهادة كما يطمع عقبة فوقف يقاتل تحت لوائه، وكسر البطل المجاهد عقبة غمد سيفه على ركبته وحمل على الأعداء، واحتدى العرب حذوه وتكاثرت جموع الروم والبربر، ودارت رحى الحرب والتمت البيض، وبرقت الأسمنة، وتطار المثير، وعلا الضجيج، وطاب الموت في سبيل الله، وانجلت الفكرة فإذا العرب جثت طريحة لم يفلت منهم إلا من أسر؛ واغتم عقبة الشهادة، واغتمها معه أبو المهاجر. وعرف ذلك البطل كيف يموت ميتة لا يدرك منها إلا البسلاء

الطيف

قَبْلَ أَنْ تَبْشَأَ قُلُوبُ الْفَجَرِ

لِلأستاذ محمد سعيد العريان

— « أبي ! »

— « سلمان ! »

— « ما أريد يا أبي »

أن أكون بعد اليوم

قطين النار ! »

— « وى ! ما تقول »

يا بني ؟ لقد نذرتك للنار

قبل أن تخرج إلى الحياة

فأنت هبة الرب إلى

أينك ، وأنت وفائي للرب

بما نذرت . أضللاً بعد

هدى ، وكفراً بعد إيمان ... ؟ »

— « إن روى لتمررد على هذه البوذية ، فما أرى هذه النار

للمبوذة تملك لي نفعاً أو تمنه ، إننى أنا أوقدها وأذكىها ، ولو شئت

لصببت عليها ذكوباً من ماء بردها وماداً رطباً ! »

— « أى ' بنى ' ، إنه دينك ودين آباءك . أى ' نازية ' نرت

بك فتمردت على ربك ؟ »

— « هيات منى ما تريد يا أبى ، وبرغى هذا المصيان !

إن فى السباء إلهاً يقتضى حقاً من العبادة والتقديس ، وإن

صوته يهتف بى فى سدة الليل ، وفى وحدة القلق ، وفى ظلمة

اليأس ؛ فما أجد لى طاقة على الافلات من صوت الله ... ! »

جثا الشيخ الأصهباني بين يدي ربه مطأطئاً رأسه فى ذلة

وانكسار ، وبسط ذراعيه إلى النار فى ضراعة واسترحام يسأل

الهدى لولده الذي يؤثره بالحلب من دون ما يتمتع به من زينة الحياة .

وراح اللب للتراقص يعكس على وجهه المتفصن أضواء تكشف

عما يستلج فى نفس الشيخ من حيرة وأسى

وعلى مقربة من مجلس الشيخ جلس فتاه الأمر « سلمان »
معتداً رأسه بين راحتيه وسبح فى أحلامه . كان ما يزال يرن
فى أذنيه صدى تلك الأنتام الندية التى سمعها منذ قريب فى معبد
المسيحية على أطراف المدينة ، فشغل بها عما أرسله أبوه لقضائه
من حاجته ... وهفت نفس الفتى إلى زورة ثانية لرهبان المعبد ،
يستمتع فيها بما استمتع منذ ليال من عذب الأناشيد وحلو النغم ،
وعما يسمع من أحاديث الرهبان عن الرب الموجود فى كل مكان
ولا تراه العين ...

وغدا الفتى مع الصبح على الكنيسة ، يشهد مع الرهبان
صلاتهم ويستمتع إلى أناشيدهم . لقد عاش قطين النار فى المجوسية
بضع عشرة سنة لم يحس فيها بمثل هذا الجلال الروحاني الذي يغمره
وهو يستمتع إلى أناشيد النصرانية بين جدران هذا المعبد القائم
على حدود الصحراء . فما فرغ الرهبان من صلاتهم حتى دلف
الفتى إلى كبيرهم يسأله أن يعقد بينه وبين هذا الدين آمرة ...
وريت الراهب على كتف الفتى وهو يقول : « لى هذا الايمان فى فتى
مثلك ريان العود لم تفتنه مباهج الحياة من معرفة الرب الأعظم ..
ما اسمك يا فتى ؟ »

— « سلمان الفارسي ! »

— « لىارك الله يا سلمان ولينحكك التوفيق والهدى ! »

واعتنق سلمان النصرانية عن إيمان وثقى ؛ ولكن الفتى لم
يقنع بما أقام الله عليه حتى يعرف أين أصل هذا الدين فيسئ إليه
وفارق الفتى أصبهان وخلف وراءه مولده وحزبه وأباً له
جاء وسلطان ومال ، لم يكن أحداً أحب إليه من ولده . وتلفت
الفتى إلى وراءه ، فتجددت على خديه دمعان وهو يقول : « وداعاً
يا بلادى الحبيبة ، وداعاً لا أدرى متى ألقاك منه إلا أنت يا ذن
الله ... ! » وتلاشت آخر كلماته فى زفرة حزينة ، ثم طأطأ رأسه
ومسح دمعته واستأنف سيره إلى دمشق ، إلى حيث يعرف أصل
هذا الدين ...

والتي سلمان وأسقف الكنيسة فى دمشق ، فلزمه يشتم
إليه ويأخذ عنه ويصلى معه ؛ ولكن سلمان لم يجد فى الأسقف
ما كان ينتظر أن يجد فى رجل نذر نفسه لله ؛ لقد كان رجل

الله لا شريك له ؛ فاطمأنت نفوسهم على قلق الحياة ، واستراح
قلوبهم على شغب الفتنة ، فاسمعوا آذانهم عما ابتدئ الرهبان في
الدين وما زادوا وتقصوا ، فبقوا على المسيحية الأولى حتفاء لله ،
يدعون إلى الله ما قدروا على الدعوة ، أو يلزمون صوامعهم
لتسريح البنان

واستجاب الله دعاء « سلمان » فوصل بهم جيله ليهوده
سبيل الرشاد
كانوا أربعة تفرقت بهم البلاد : فراهب في دمشق ، وراهب
في الموصل ، وثالث في نصيبين ، ورابع في عسورية من أرض
الروم . قد تقدمت بهم السن حتى أشرفوا على الآخرة ، ولكنهم
وجدوا حيراص على الحياة ، لأن لهم في الحياة أمنية موروثة
يستشرفون إليها من بعيد

ولقي « سلمان الأصهباني » أولهم في دمشق فلزمه ، فلما
صفا بينهما المورد جلس الراهب يتحدث إلى فتاه :
— « أي بني ، إنها فتنة الحياة للأحياء ، ولكن صبراً
صبراً يا بني ؛ إن شاعة من النور تلوح من بعيد ، وإنه ليوشك
أن يشرق بعدها صبح أزهر . هنا من هذه الصحراء سينبثق
النور الأعظم الذي يهيمر الدنيا ويشرق بالخير والسلام على البشرية
كلها ، إنه نبي قد أظلم زمانه ... يا ليتني فيها جذع ... »
واتفص الفتى وقد غمرته موجة من السروز فهزت أعطافه
فال على الراهب وقد أمسك بكلا يديه يهزهما في فرح ونشوة
وهو يقول :

« ... نبي قد أظلم زمانه ؟ من هذه البادية ؟ حدثني يا أبي
إن حديثك لينفذ إلى قلبي بكل مسرات الحياة : »
واينهم الراهب وربت على ظهر الفتى وهو يقول : « صبراً ،
صبراً يا بني ... إن حديث هذا النبي لمسطور في قوادى ، وإن
به المؤمن قبل مبشه ، إنها لأمنية الحياة يا بني أن أميش حتى
أراه ... »

ولكن الراهب الشيخ لم تمهله المنية حتى يحقق أمله ، فلم
يلبث أن ذهب إلى ربه
عاد السلام والأمن إلى قلب الفتى الفارسي ، وتقشمت ظلمات
الشك والحيرة في نفسه ، ولكن الأمل الجديد الذي بمشته في

سود يأمر بالصدقة ويرغب فيها ، فإذا اجتمع إليه شيء منها
اكتنزه لنفسه فلا يتصدق به ، فإن المال عنده لا كداس ، وإن
السالكين لملئ الأبواب يستشدون الأكف ويميتون على الطوى ؟
وضاقت نفس الفتى بما وجدت فلم يجد حيلة لنفسه مما يرهق
نفسه ؛ لقد فر من المجوسية إلى دين البر والرحمة والسلام ، فما
وجد عند أهله شيئاً من البر والرحمة والسلام ؛ وعاد التردد إلى
الفتى وشكله أشجانه فما يستين طريق الرشاد ...

— « أي ربي ، إنك لتسمع دعائي ، وإنني لأراك في قلبي ،
ولكني لا أجد سبيلاً إليك . في بيت النار سلخت بضمة عشر
عاماً من الشباب ألتبس الزلني إليك بين البخور واللب فما بلغت
إليك ؛ وفي معبد المسيحية بين الهيكل والصليب وتماثيل القديسين
ركمت ألتبس الزلني إليك فما بلغت إليك ... تنزهت يا رب أن
تأمر بعبادة النار وإنها لجر ودخان ، وتقدس يا إلهي أن تكون
عبادتي لك سجوداً للتصاوير ودكوعاً للصليب ، وخشوعاً لتفثال
العذراء ، وحرصاً على جمع المال في القلال ليحرم منه الفقير
والمسكين ... »

« ربي ، سألتك الهدى فأرّ سبيلي »

وكانت الفتنة تمصف مصنفها في كل مكان ، والشهوات تسلط
سلطانها على كل نفس ؛ والناس في الشرق والغرب ، في فارس
وقسطنطينية ، وفي بغداد ودمشق ، وفي الحبشة وبلاد العرب ،
تعيش عيش البهم : لا وازع من دين ، ولا حرج من ظلم ؛ فلم
ينج من فتنة الشهوات إلا من عصم الله ... والفتى « سلمان »
من أشجانه في هم ناصب ، يتوزعه الشك واليقين ، ويتأوده
الإيمان والكفر ، وبرواح القلق بين نفسه في وحدته واجتماعه ؛
فما يجد له منجاة من أشجانه إلا الصبر والاستسلام حتى يجد
لنفسه فرجاً من ضيق ...

وكان ثمة أربعة من الرهبان جمعهم على دين الرب عقيدة
راستحة ، وقلوب عامرة ، وإيمان بالله وطيد ؛ وكان لهم في كل
عام مزار يجتمعون إليه أياماً ثم يذهب كل إلى واديه . كانوا من
الصالح والخير وصفاء النفس بقية من الحوارين المخلصين ، عرفوا
دين السلام عرفان الحق ، فأقاموا على هدى المسيح خالصاً يبدون

نفسه كلمات الشيخ لم تدع له أن يستقر ، فقرر رحلة ثانية من دمشق لعله يعرف جديداً من راهب الموصل عن النبي الذي أتى وقته ليرسم للانسانية الضالة حدود سعادتها في معاني البر والرحمة والمساواة ؛

فتى لذن المود غرض الالهاب ، بهاجر هجرتين في سبيل الله ، من أصهان إلى دمشق ، ومن دمشق إلى الموصل ، وليس معه مال ولا زاد ، إلا الايمان والتقى وقلب عامر بحبة الله ؛ وقد خلف وراءه المال والأهل والسيادة ، وأباً لم يكن أحد أحب إليه من ولده ؛

— « سيدي ! »

— « من أنت يا فتى ؟ إن في وجهك كنزاً أبناء المهاجرين والسادة ؛ ولكن عليك من وعشاء السفر مثل أبناء السبيل ؛ »

— « سيدي ! ... »

— « سمّاً يا بني ! »

— « أنا رسول (فلان) إليك — رحمه الله — أتأذن لي أن أنيم عندك لأخذ عنك من أمور ديني ... ؟ »

— « مهلاً وكرامة يا ولدي ، بارك الله عليك ؛ »

— « أبي ، إن الفتنة لتعصف عصفها ، وإن شهوات الناس لتبلغ بهم مبلغ الحيوان ، أفتري للانسانية متقدماً من ضلالتها يهلبها سواء السبيل ؟ »

— « أراك تعرف بعض ما أعرف يا بني ؛ وإنك لتعترف إلى أمل قريب . إن نبياً قد أظلم أوانه ، إن لم يكن فكأن قد ... يا ليت لي فسحة في العمر حتى أراه فأؤمن به ؛ إن موجة الإصلاح ستمد مداها عما قرب من هذه الجزيرة العربية حتى تفيض على البشرية جميعها من برها خيراً ورحمة ، وستفصل هذه الموجة أدران البشرية وتمسح على قلبها بالطهر القدسي حتى يتلئ العالم سلاماً ومحبة ... »

« سيمتد بك العمر يا بني — إن شاء الله — حتى ترى هذا النبي ، فلا تلبث في اتباع دعوته ، إنه يدعو إلى خير الدنيا وخير الآخرة ... أراك ستعرفه يا بني حين تلقاه إن وسفت لك من خبره ... ؟ »

وأوراهب الموصل جوار الله ، وخلف الفتى الفارسي وليس معه إلا ربه ؛ فأزمع الرحلة ثالثة إلى نصيبين

وأقام « سلمان » عند راهب نصيبين ما شاء الله أن يقيم ، لا يشغله من دنياه إلا ذكر الله ، وأمل جيش يخفق به قلبه الكبير ، أن يرى ذلك النبي الكريم الذي تُنميه الصحراء ليفنم الخصب والزخاء في ربوع البشرية ويفصل نفوس الانسانية من أدران الشهوات

ثم هاجر هجرته الرابعة إلى عمورية بعد ما فارق صاحب نصيبين إلى جوار ربه ...

« ... أيّ بني » ، والله ما أعلم اليوم أحداً على مثل ما كنا عليه من الناس آسرك أن تأتيه بمدى ، ولكنه قد أظلم زمان نبي ، وهو مبعوث بدين ابراهيم — عليه السلام — يخرج بأرض العرب ، مهاجرة إلى أرض بين حركتين ، بينهما نخل به علامات لا تخفى ، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، وبين كنفه خاتم النبوة . فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل ... »

وأقام سلمان بأرض عمورية ما شاء الله وهو يعمل لعملة ، وإن الأمل المنب في لقاء النبي العربي ليداعبه في يقظته وفي أحلامه ؛ واجتمع له مما يعمل بقرات وغنيمات ، فظل يترقب حتى مر به نفر من تجار العرب ، فسأولهم أن يطيحهم بقراته وغنيمته ويحملوه إلى بلاد العرب ... وسار الركب منطلقاً إلى الصحراء يحمل سلمان إلى أرض اليمام ...

يا لفتى مما احتمل في سبيل الله ؛

نحس رحلات بلا زاد ولا مال ، وليس له من أمل في دنياه إلا ربه ، وكل شأن من شؤون الحياة يتصاعمر في عينه حتى أهله ووطنه وجاء أليه ...

النشير تثيره الرياح إلى الخلقوم والخياشيم ، وذرات الرمل الساخنة تلطم الوجوه بمثل أطراف الأبر ، والشمس الحارة ترمس من أشعتها سهاماً من نار تشوى الوجوه والأقفاة ، والماء في القرب يوشك أن يجف من حر الصحراء ، والحادي يحدو البُسران في طريق لم يذلل بعد للأسفار ، والفتى على بعيره شارد الفكر مذهوب الالب ...

هذه رحلته الخامسة في سبيل الله ، وقد خلف الدنيا كلها

وراءه لا يقم لها وزناً ولا تخطر له على بال ، لأنه مقبل على سبيل
الوحى وأرض النبوة ... والحادى يحدو وفى نبراته حنين ، وفى
نغمته حزن وأسى ؟ فهتف الفتى وقد هاج الحدا ذكرياته :

« يا لآبى الشيخ للسكين ! يا لوطنى الذى فارقت منذ
سنوات ولا أدرى متى أعود إليه ... » رب ، فى سبيلك هجرى
واليك وجهت وجهى ، فاكتب لى الكرامة والتفخر بقاء نيك
المختار ، وأسيخ رحمتك يا رب على أسبهان . إن فى أسبهان أبى ...
وإن لى بأسبهان هوى الحبيب إلى الحبيب ... »

ومضى الركب إلى غايته ، فلما بلغ وادى القرى ، حمس
الركب بعضهم إلى بعض يتأخرون على الفتى الفارسى : فباعوه
من رجل يهودى عبداً ...

لقد بلغوا بالفتى حيث أراد ولكنهم جعلوا غلاً فى رقبتهم ،
والفتى راض صابر ، لأنه مؤمن بقضاء الله ، لأن له أملاً يريد
أن يبلغ إليه فلا عليه مما يناله فى سبيله ... رحمة الله له !

وأرسل الفتى أذنه وراء كل اثنين يتهاوسان ، لعله يسمع نبأ
عن النبی العربي ... وبلغ فى النهاية ما أراد : هذه هى الأرض
الموعودة ، أرض بين حرتين ، بينهما غل به علامات لا تخفى .
إنها هي ، فأين هو ؟ فإنه لى رأس عرق يعمل فيه ذات يوم
لسيده بعض العمل ، وسيد جالس تحته ، إذ جاءه النبأ :

هذا رجل قادم يتحدث إلى سيده حديثاً ذا بال : « إن بنى
فلاية مجتمعون اليوم بقاء على رجل قدم عليهم من مكة يرم
أنه نبى ... ! »

يا بشرى ! أبكون هو النبى الموعود !

وحسبها الفتى فانتفض انتفاضة أو شك منها أن يسقط على
سيده ، فما هو إلا أن تعالك حتى نزل عن النخلة يستمع النبأ
— « ما ذا تقول يا رجل ؟ »

هكذا أقبل سلمان على القادم يستبته وإن سيده ليشهد .
فما إن سمعه يسأل حتى غضب فلكه لكمة شديدة وهو يقول :
« ما لك ولهذا ؟ أقبل على عمالك ! »

قال سلمان : « لاشئ ، إنما أردت أن أستبته عما قال ! »
ثم دار على عقبه ليخفى عبرة تنحدر على خده ، وإن صدره
ليجيش بحواف شتى ، فلما كان المساء جمع شيئاً من طعام

كان له ثم ذهب إلى محمد بقاء :

« سيدى ، إنه قد بلغنى أنك رجل صالح ، ومالك أحماب
لك غرباء ذوو حاجة ، وهذا شئ كان عندى للصدقة فأرأيتكم
أحق به من غيركم ... ! »

وتناول النبي الكريم من يد الفتى الفارسى ما قدم إليه ،
فدفعه لأصحابه لم يأخذ شيئاً منه . وتحققت الفتى أمانة ...

ثم انصرف الفتى فجمع شيئاً وعاد إلى رسول الله يقول :
« سيدى ، إنى قد رأيتك لا تأكل الصدقة ، فهذه هدية
أكرمتك بها ... ! »

فد النبي إليها يده فأكل وأكل أصحابه معه . وتحققت
أمانة ...

وطنى شعور الفرح على سلمان حتى أنساه قيد الرق وذل
الإسار ، فسار خلف النبي يتبعه ليظهر منه شيئاً قد بقى من أمارات
النبوة . فإن النبي لم يشأ إذ انحسر ردائه عن ظهره فرأى ...

وتحقق الوعد المأمول فما تلبث الفتى حتى أكب على النبي
الكريم يقبله ويكي ...

وأمن سلمان الفارسى بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه
وسلم . وانبثق الفجر الذى كان يرقب شروقه منذ سنوات
وسنوات ، وأضاء فى قلبه النور الذى غمر البشرية كلها فحدث
لها حدود سعادتها ودمع لها غايتها . ولم يمت سلمان حتى انتشر
الصباح وأشرق على ربوع فارس وأسبهان ، وانتظمت الدولة
الإسلامية فصارت جزءاً من الوطن الإسلامى الذى يعيش فيه
سلمان الفارسى

وما زال النور ينتشر وينتشر حتى عم أقطار الأرض . ومات
محمد بن عبد الله ولكن شريعته ظلت باقية عمداً مدتها ذات المئين
وذاوات الشمال ، حتى عبرت المحيط ، وجازت الجبال ، وحطمت
الحدود ، وأزالت السدود ، ووسعت حدود (الدولة الإنسانية)
التي ما زال المصلحون يعملون جاهدين ليلفوا إلى تحقيقها كي يعم
السلام الأرض وينتشر الأمن والرخاء ؛ ولن يلفوا إلى تحقيق
هذه (الوحدة الإنسانية) إلا أن يعملوا على شريعة محمد . حينئذ
تحمى الجنسيات ، وتزول المعصيات ، ويذهب الطغيان ، ويمش
الناس إخوة متحابين كما ينبغي أن يعيش أبناء الإنسانية
محمد صغير الصبا

« شبا »

البيئة الإسلامية

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي



بمجيئ من عادة
« الرسالة » في إخراج
عددتها المجرى الممتاز
أنها توجه قراءها في
آحاء العالم الإسلامي
العربي سر في العام على
الأقل إلى موضوع هو
أجل ما ينبغي أن يشغل
بالعلم : موضوع

الإسلام والحياة به وله والجهاد في سبيله

والسلمون اليوم ينقصهم مذكر مؤثر يذكرهم بدين الله
وبحقه عليهم : حق العمل وحق الجهاد . والعمل هو من الجهاد
أو هو أكبر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع
من إحدى غزواته : (رجعت من الجهاد الأسير إلى الجهاد الأكبر)
والسلمون اليوم قد أضاعوا الجهادين ، فلام يجاهدون العدو
فيؤدوا الجهاد الأسير ، ولا هم يجاهدون النفس ويقومون بحق الله
في أنفسهم وفي الناس فيؤدوا الجهاد الأكبر . وليس ينقص
المسلمين العلم بما عليهم الله في أنفسهم وفي إخوانهم ، فإنهم يملكون
من ذلك ما إن عملوا به لكفاهم ، ولكن ينقصهم العمل بما عندهم
من العلم المستفيض فيهم

والمعجب من أمرهم اليوم أنه لا يحول بينهم وبين العمل
المنجى إلا صفائر الشهوة يعجزون عن مخالفتها ، وحقاير الفريات
يضعفون عن مقاومتها . وأعجب من هذا أن كثيرين منهم حين
يطعمون الفريات يظنون بأنفسهم الحكمة ويحسبون أنهم يتابعون
الصواب . وهذا شر ما في الأمر كله وأفظمه وأهوله ، فإنه يدل
على مبلغ بدهم عن الدين الذي ينتسبون إليه وقربهم من الشرك
الذي يراؤون منه ؛ وظنهم هذا بأنفسهم يزيد في يأس اليأس
منهم ويجعل عبء التصدي لهدايتهم ثقيلا لا يقوم به من

ولي العزم إلا من يلحظه الله بتوفيق وتأييد

وعبد ورد الماصي إلى الطاعة والصال إلى الهدى والخطي إلى
الصواب عبء ثقيل على أي حال ، لكن شتان بين من يقر بخطئه
أو بمصيبته يود لو خرج من كل فلك ، وبين من يجادل فيما هو
عليه لا يرى به بأسا إن لم يره عين الخير . فالأول ليس بينه وبين
الطاعة أو الهدى أو الصواب إلا المادة ، وليس أمام الداعي إلا أن
يحرك فيه دواعي التنكب على العادة ويدله على الطريق حتى يتنكب
بالفعل ، فتقلب المادة عوناً له بعد أن كانت عوناً عليه . أما الآخر
فأصعب الصعب في أمره إقناعه بخطئه أو ضلاله ، وتحريك عوامل
الأسف والتندم فيه حتى يصبح كأخيه ليس بينه وبين الاستقامة
إلا أن يجاهد المادة حتى يصبح سلطانها معه بعد أن كان عليه
والصنف الأخير من المسلمين قد أخذ يكثر كثرة تضيق
منها الصدور وتزاع لها القلوب ، ولم يكن الحال كذلك منذ
ثلاثين عاماً أو أقل . كان هذا الصنف موجوداً لكنه كان قليل
العدد قليل الجراءة خافت الصوت ؛ وكان ما يسمى بالرأى العام
ضدهم إذ ذاك في المجلة ؛ كان يدعمهم وشأنهم ما داموا منزوين ،
لكنهم كانوا إذا حاولوا الظهور ولوباسم الإصلاح والتجديد لقوا
منه عتقا غير قليل

والرأى العام ليس وليد نفسه ، ولكنه وليد بيئته . ولقد
كانت البيئة في ذلك الحين لا تزال دينية الروح إسلامية النزعة
إلى حد كبير ؛ لكنها الآن قد تنمير روحها وانمكمت الآية فيها
في المدن ، وبوشك هذا التنمير أن يتخطى المدن إلى القرى على
أمواج الراديو وأفلام السينما وسفحات الصحف ولو بالتدريج .
فهذه الثلاثة هي أم مكونات البيئة اليوم ، وقليل منها الآن
ما لا يمكن أن يوصف بأن فيه من الإسلامية كثيراً أو قليلاً

فالسينا أكثر أفلامها مصنوع في الغرب وأقلها مصنوع
في الشرق . ومع أن هذا الأقل مصنوع في مصر التي تطمع أن
تترجم الأقطار الإسلامية إلى الخير والعزة والمجد ، فإنه وذلك
الأكثر المصنوع في الغرب سواء في مجافاته للدين ومتناقضه لما
يليق ، بل قد يند الشرق الغربي في ذلك كمادة في الإفراط
والتفريط . لا يكاد الوالد الحريص يجد بين جميع ما يعرض في مصر
من الأفلام ما يمكن أن يروح عن أولاده بأخذه إلى غير

أكثر من صالحه ، وهو على أى حال كان إلى الآن عاملاً على تنوير البيئة في الأقطار الإسلامية تنويراً يبعدها عن الإسلام وغير الراديو والسينما من مكونات البيئة الحديثة بتحوّلها وإن لم يبلغ مبلغهما من القوة والذووع . ولعل أهم هذه هي الصحف وهي مثلها قوة هائلة تعمل في كيان البيئة ، إما بتعمير وإما بتدمير . ولقد كان عهد ليس للصحف في البيئة الإسلامية من أثر ، ثم جاءت الصحف وعرفها الناس لكنها في أول عهدها لم تكن تفرّج على الخروج عن مألوف الناس من فضيلة ودين . بل لقد كانت الكلمة العليا بين الصحف إذ ذاك للإسلامية منها أيام كان المؤيد والواء ليس لهما في ميدان الصحافة قريع . وكانا رحم الله أباهما وعوض المسلمين خيراً منهما هما اختلفت بهما سبل السياسة لا تختلف بهما سبيل الدين . فكأنما لا يكادان يشبان الخطر على الدين من ناحية ولو من بعيد حتى يهيا لانهما وتنبيه الناس إلى الاستعداد له قبل وقوعه . ثم ذهبت بهما الأيام فكأنما ذهبت بذهابهما روح الدعوة لله والناتجة عن الإسلام . وكثرت الصحف حتى صارت عشرات بعد آحاد ، لكنها كانت حريكاً على الإسلام في غالبيتها . كانت بين مهاجم له ومعين عليه بالسكوت أو بنشر الرد الضعيف بعد الهجوم العنيف ؛ وقل بينها ما كان يهيب للدفاع حيناً بعد حين . أما الثبات في الدفاع والصمود للخصم صمود المؤيد مثلاً لريتان وهاتورتو فلم يكن في القائمين على الصحف الإسلامية من يجشم نفسه ذلك . وكان من أثر توالي الهجوم وتلكؤ الدفاع أن دخل الخصم من حصون البيئة الإسلامية حصناً بعد حصن . فذهب الحجاب وكأنما ذهب بذهاب الحياة ؛ وجاء المغرور وكأنما جاء بمجيئه الفجور . وكان الفجور يكاد يكون وفقاً على الرجال فأصبحوا بعد أن فشا الرقص والاختلاط يفلهم عليه النساء

إنا لله . لشد ما غفل عن دينهم المسلمون حتى أتوا من حيث يحتسبون ومن حيث لا يحتسبون ! ماذا كان عليهم لو أنهم عملوا بدينهم وأطاعوه فكفوا أنفسهم كل هذه الصايب والويلات ؟ إن الرجل اليوم ليأمر ابنه فلا يسمع له ، ولا يمرؤ على أن يأمر ابنه خوفاً من أن يجترى ويجاهره بالعصيان ، كأنما إقراره إياها على خطأ لا يجعلها ترتكب غيره من الأخطاء ، أو كأنما مجاراته إياها فيما لا يرضى الدين سيجنبها الهوة التي لا بد أن يتردى فيها كل من يعمى الدين

أن يرضيهم بذلك إلى تلويث الدهن وتدنيس خاطر . بل لقد أصبحت السينما وخصوصاً ما تخرجه مصر من أفلامها خطراً حقيقياً على الأخلاق في هذا القطر وما يتأسي به من الأقطار . فلقد كانت هناك مسارح للتهتك والخلاعة منزوية في أماكنها التي كنا نحذرنا ونحن صغار ، فأصبحنا وليس يغني التحذير من مفسدها شيئاً بعد أن أعطتها صناعة السينما قوة التكاثر كما تتكاثر الجرائم فصارت تنتشر بأفلامها في المدن والقرى ، تشر عدوى الفساد الخلق كما تنتقل الجرائم فتنتشر عدوى الأمراض

وما يقال في تأثير السينما يمكن أن يقال مثله في تأثير الراديو مع اختلاف في المقدار . فهو كالسينما من العوامل الفعالة الطارئة على البيئة الإسلامية ، وهو جدير أن يغير منها إما إلى الخير وإما إلى الشر ، لكنه الآن إلى الشر أقرب . فإنك إذا استنيت ما يذاع من القرآن الكريم والقليل من محاضرات الإرشاد ، تجد الغالب على إذاعته المجون والخنوة والاستهتار . خذ يدك أي برنامج عادي للإذاعة في أي يوم واحسب ما للزل فيه وما للجد ، تجد ما للزل أضغاف ما للجد ، وتجد أكثر هزله هزلاً غير برى ، بل بعض جده جداً غير برى كذلك

على أن المصيبة بالراديو أعظم من المصيبة بالسينما من بعض الوجوه ، فإنك تستطيع أن تتق شر السينما في خاصة نفسك بالعود عن الذهاب بأولئك إليها ، وإن كان في ذلك شيء من العنت . لكن ماذا تصنع وهذا الذي تهرب منه بجرمان نفسك من تسلية السينما يدخل عليك وسط دارك من الراديو وأنت بين أهلك وذويك ؟ إن مجون الرياحي وأضرابه وخلاعة مصابني وأضرابها تلاحق المسلم بالراديو في عقر داره . وإذا أمكن التحرز من ذلك إلى حين باغلاق الراديو فلا بد أن يأتي يوم يحل الإنسان فيه الرقابة ، ويترك الراديو كالورد الخبيث مل الراعي ذود القطيع عنه . على أن المسألة ليست مسألة فرد أو أفراد برفوف الخطر ويستطيعون توقيه بشيء من كبت الرغبة وضبط النفس ، ولكن المسألة مسألة الجماهير التي لا نستطيع تمييزاً ولا امتناعاً . فإذا لم يكن ما يذيع الراديو سليماً طيباً كان الراديو شراً ووبالاً على الناس ينقلهم خلسة عما ألفوا من الخير إلى ما لا يريدون أن يألفوا من الشر ومذاهبه ، وينبه فيهم من زلمات السوء ما لم يكن لولا الراديو ليتنبه فيهم . والراديو الآن يخلط الصالح بالسوء إلا أن سيئته

لقد كانت البيئة الاجتماعية بقلب عليها الشر قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام طفق يبحث منها أصول الفساد ، وطقق بصلح ويهذب ويظهر حتى ذهب عنها الرجز ، وشاع فيها الطهر ، وعم فيها النور ، وأصبحت من ينشأ فيها بنشأ سليماً صحيحاً قوياً كالزروع في التربة الطيبة يأتيه النور من كل مكان . ثم أراد الله الذي يعلم أن الانسان ابن بيئته أن يديم للانسان نعمة إصلاحها فأقام حولها وفيها الحدود حداً بعد حد كحصن اجتماعي بعد حصن يقبها تطرق الفساد . فجاء على الخمر ، وجلب ورجم على الزنا ، وحرم الخلو ومنع الاختلاط إلا لضرورة ، واحتاط في النع فحرب الحجاب . وقطع يد السارق بعد أن منع الربا ، وأوجب الزكاة . فكانت بيئة طاهرة زكية يزكو فيها النفس كما يزكو النبات في البلد الطيب . فلما أسلحها للناس أمرهم أن يحافظوا على صلاحها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود ، وأزل عليهم (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمئناً إن رحمة الله قريب من المحسنين) فأحسنوا وأطاعوا ما أقام بينهم الرسول . فلما علم صلى الله عليه وسلم أنه مفارقهم عن قريب حج بهم حجة الوداع وخطبهم خطبة الوداع التي لا يكاد يحفظها الآن مسلم :

(أيها الناس اسمعوا مني أين لكم فاني لا أدري لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا

أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كرمه يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...

أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة فلا يحمل لاصري مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجمن بمدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، فاني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله وستة نبيه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ...)

هذا بعض ما عهد الرسول به إلى المسلمين في ذلك الموقف العظيم . فلما قبض صلى الله عليه وسلم أحسن المسلمون خلافته وأحسنوا السمع والطاعة لله ولرسوله وللخليفة الأول من بعده ، وسار فيهم رضى الله عنه متأسياً بالرسول ، خاملاً بإمام على الحق ضارباً لهم المثل بنفسه ، جاعلاً طاعة الله أول الأمر وآخره

(أطيعوا ما أطيع الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقوامكم عندي الضعيف حتى أخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوى حتى أخذ الحق منه)

فلما قبض رضى الله عنه خلفه في المسلمين من كان يرعاهم رعى الأم ولدها ، وينذوهم عن المهالك ذود الراعى غنمه (اقدموا هذه النفوس عن شهواتها فانها طاعة ، فانكم إلا تقدموها تنزع بكم إلى شر غاية . إن هذا الحق ثقيل مرير ، وإن الباطل خفيف وبدي ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعته شهوة ، وشهوة ساعة أودت حزناً طويلاً) . وكان أكبر ما يحرص عليه رضى الله عنه ألا يتطرق إلى البيئة الإسلامية خلل أو فساد وأن يبقى ضعيف النفس من المسلمين شر المفريات ، حتى أنه لما سمع التمنية تمنى نصر بن حجاج دعا به ، فلما رآه نفاذ من الأرض ، وأمر ألا ينيب رجل في النزوح عن بيته فوق أربعة أشهر كما أمر ألا يزل للمسلمون منازل المترفين في البلاد التي يفتحونها مخافة أن يخرجوا من أخلاقهم شيئاً فشيئاً إذا اختلفت بهم البيئات

ثم كان أن جاءت الفتن وتغير الحال ووجد الشيطان سبيلاً إلى تلك البيئة الإسلامية المصونة عن طريق الهوى . وترخص الخلفاء بعد عهد الراشدين واحتالوا على الجمع بين هوام وبين الدين ، وهيات ؟ فكان منهم من امتدح وتثنى للساح عليه ألا يحد في الخمر فقال ذلك حد من حدود الله لاسيلاً إلى إبطاله ، ولكن ساحتال لك فكتب إلى عامله على بلد الشاعر المهتاك : من أتاك ببن هرمة سكران فاجلبه مائة واجلب ابن هرمة ثمانين ! وظن ذلك الآحق أنه لم يطل حد الله حين أفتاه شيطانه بهذا وقد أبطله بالفعل أيما إبطال إذ كان الناس يعرون على ابن هرمة مطروحاً فلا يعصونه ويقولون : من يشتري ثمانين بمائة ؟ ومع ذلك فقد كان ذلك الخليفة العباسي يوسف بقله ويلحق بالسوء

مثل هذا النوع من الحكم وهذا الضرب من الاحتياط على إبطال أحكام الله حين تخالف منهم هوى أو شهوة هو الذي أفسد البيئة الإسلامية بعد إصلاحها ، ففسد بفسادها الناس ، فذهبت عنهم العزة وذهب ملكهم من أقطار استعمرها آبائهم بالدين وحسن الطاعة لله والنزول على أمره . ولن يستقيم للناس حال حتى تزد البيئة الإسلامية خالصة كما كانت (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله)

محمد احمد الفهرلى

والحفر، ومائلة للتصوير وغيرها لأنواع التحلية والنقش والزخرفة وكان هؤلاء العلماء يزعمون أن الدين الإسلامي يحرم التصوير مع أنهم رأوا آثاره، ومع أن الدين لم يكن يمنع هذا الفن إلا من ناحية واحدة خشية أن يتجه التأويل إلى عبادة الأصنام. هذا في الوقت الذي لا يوجد فيه نص يقتضي مع تقدير الجمال الخالص الذي كانت نفس النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم مشبعة به، بدليل ما ورد من الآيات والأحاديث والتفاسير في تحجيد

وجمل للزودخون مهم مقصوراً على تلك الآثار؛ ثم اقتصروا كثيراً من المباني الإسلامية بزخارفها وما فيها من نجارة وقشاني وأشغال للمعادن؛ كذلك ما كان على الحلي والحلل وفي الأقمشة من الخرز والصباج والاستبرق من تطريز وكتابة وصور. هذا إلى جانب دواوين الشعر التي لم يجد المسلمون مانعاً من تحليتها بتصوير بحيرة للنبات الذي اتخذوا منه وحدات زخرفية كالزهار والسنايل والأشجار، والحيوان كالسباع والفزلان والظباء وطيور البر والبحر والأحماك. ولكنه لوحظ أن الفنان أمسك يده حينما وصل إلى تصوير الإنسان، لا خشية الكفر ولكن خشية اللام والفتنة. واستمر الامساك عن تصوير الإنسان حيناً حتى ازدهر الإسلام في بغداد، فترى أحد المصورين من الفرس يزبن قصر أحد الملوك المسلمين في بغداد بفصول من قصة يوسف وزليخا توضيحاً وشرحاً لديوان الشيرازي الذي جعل من تلك السورة القرآنية ملحمة شعرية أتى فيها على وصف الترام الذي كان مستولياً على فؤاد تلك الأميرة المصرية نحو ذلك النبي العبري إلا أن هناك جانباً من الفن الإسلامي لم يلتفت إليه كثيراً قدامتدينا إليه، وهو ما زينت به كتب العلماء والمؤرخين والأدباء من الصور التوضيحية في الكتب. وكانت أولها القرآن الكريم الذي بذلت الجهود في تزويقه وتزيينه وتحليته، وإن لم يكن بنصوصه في حاجة إلى التجميل والتزويق. ولا تزال نسخ عدة منه الزينة الكبرى والحلية المثلى لكثير من الناحف ودور الكتب في الشرق والغرب، التي اتخذت وجوده فيها مفخرة وبهجة ودليلاً على النقى الفني والثروة الأدبية.

التصوير التوضيحي في المخطوطات الإسلامية

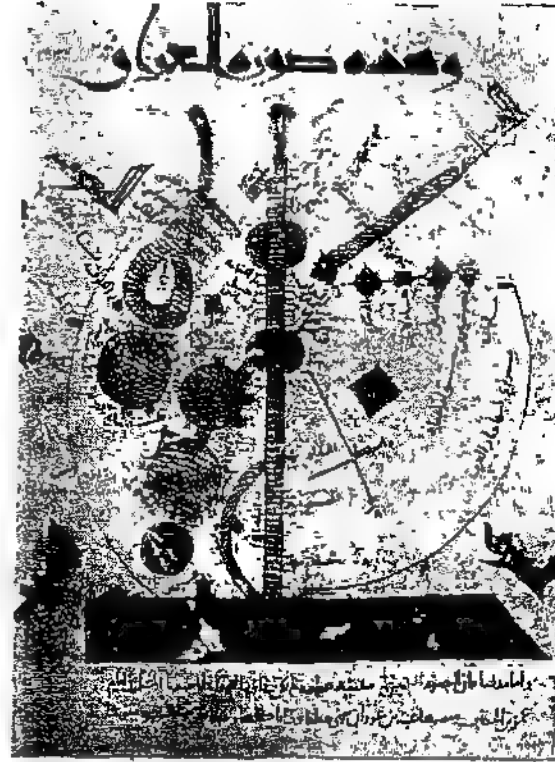
للهكتور أحمد بوسبي



أني على الباحثين في تاريخ الآثار والفنون الإسلامية حين من الدهر قصروا فيه جهودهم على درس ما كان بارزاً من تلك الفنون للبيان في الباني والآثار الظاهرة ذات الوجود

للأدي الضخم، مما شاهدوه من الساجد والمناظر والمنازل وكل ما بنه رجال التاريخ الإسلامي ليتخذ مكاناً بيناً في نظر الحاكمين والمحكومين؛ لأن الفنون الجميلة كانت ذات صفة يابها لها الملوك والأمراء ويميزون عليها أربابها؛ فلم يكن للفنان المسلم مجال يظهر به للفن لعامة الشعب، بل كان كل همه أن يتقدم إلى ملك عظيم بشرة نبوغه الفني ليكافئه عليها. كما أن الملوك اتخذوا عادة تشييد البناء وما يقيمها من التزيين والتزويق والتأثيث تخليداً لأسمائهم وذكر عهدهم وما اشتهروا به من النقى والقدرة على تسخير المواهب في تعجيد الدين قارة والمجد النبوي قارة أخرى وعند ما انبرى مؤرخو الفنون الإسلامية إلى تقسيمها وتبويبها وتحديدتها بعد انتشار الاستشراق في أنحاء أوروبا والتحضرة، وبعد أن طاف فريق كبير من علماء المشرقيات بلاد الإسلام وطردوا بدراسات متوافرة ومثل للآثار التي وقعت أبصارهم عليها ودرسوها في حواضر الشرق القريبة والبعيدة - طبق فريق منهم على تلك الفنون القواعد التي انبثقت عنها علماء الفن الأوروبي في ترتيب الآثار، فجعلوا أقساماً خاصة للعمارة، وأخرى للنحت والرسم البارز

ولم يكن في استطاعة بعض التزمين من رجال التفسير أن يمنع فريقاً من الفنانين من إدخال التصوير في الكتب ، بدليل ما جاء في مقامات بديع الزمان التوفي سنة ١٠٠٧ م ومقامات الحريري^(١) (١٠٥٤-١١٢١ م) التي تجلي فيها التصوير بالألوان لتمثيل مناصرات البطل المشهور أبي زيد السروجي وغيره



١ - صورة العراق - منقولة من كتاب صور الأنبياء البسة

وشمل غيرهما من الكتب ككلمة ودمعة ، وبعض أجزاء الأغاني^(٢) للاسقفاني (٨٩٧-٩٦٧ م) وألف ليلة وليلة ، كثيراً من الصور الرائعة التي دلت إلى حد بعيد على الدقة والتفوق . ولا يمكننا أن ننكر أن فناني الفرس كانوا أسبق إلى التصوير من سوام ؛ فقد أعطاهم الشراء الفحول كالفردوسي المولود سنة ٩٣٩ م ، وعمر الخيام المولود في القرن الحادي عشر ، والسعدي (١١٨٤ - ١٢٩١ م) وحافظ المتوفي سنة ١٣٨٩ م وغيرهم ، موضوعات متنوعة توحى إلى المصور فكرة الرسم لتوضيح النصوص . فالشاهنامة وحدها وهي تنطوي على جزء عظيم من

(١) راجع مقدمة : De Sacy, Maqamat el Hariri, Paris 1882

(٢) انظر الصوريين الانتاجيين الجزء الثاني والرابع المخطوطين بدار الكتب المصرية (مخطوطات)

تاريخ إيران ، أشبه شيء بالياقة هوميروس ، وفيها من أخبار الملوك والأمراء وخدع الحروب وحيل السياسة ووصف الأنظار ومواقع البلدان وجمال التصور وفتنة الجبال والوديان ما جعل التصوير فيها أمراً عتياً . وكذلك ما ورد في شعر السعدي^(١) من النوادر والقصص في بستان الورد . دع عنك رباعيات الخيام^(٢) وما اقتضته من تصاویر تمثل الشاعر الفنان المحب للخمر المفتون بالجمال المسحور برشاقة التكوين الجسماني ، وهو بطرق باب الحان ليوقظ رفاقه لمعاقرة أقلام الشراب قبل بزوغ ألوان الفجر ، فلم يكن للمصور بد من الخضوع لتلك الإلهام الشعرى الموسيقى القوي في سبيل الحب واندفاع النفس . وهذا هو الذي حدا بالمصورين إلى تصوير الإنسان في أوضاع مختلفة أهمها أوضاع الحرب والحب ، ولا أجل من تلك الصورة التي رسمت توضيحاً لقول الشاعر :

لم يخلق الرحمن أجل منظراً من عاشقين على فراش واحد
لأن المصور قد أدق من تقاوة الإلهام وجاهة الروح وصمو
الخيال وتمجيد الجمال ما جعل صورته آية في المفة وجبل الفن
مع اجتماع الحسن والشفق الظاهر في أعين الماشقين .

من أجل هذا كله وجب على القارئ كلاً قلب بين يديه كتاباً
إفرنجياً مصوراً أو ضرباً بالرسوم ؛ أن يتذكر أن هذا الفن
وهو توضيح النصوص بالتصاویر ، إنما هو اقتباس من فن شرق
قبل كل شيء ، وأن الذي فكر في تزيين دواوين الشراء وكتب
القصص والتاريخ بالصور كانوا من أهل الشرق كالفنود والفرس
وبعض السوريين ، في الوقت الذي لا ننكر فيه على بعض علماء
اليونان أنهم ونحوا كتباً من تأليفهم برسوم تمين على فهم
النصوص دون أن يكون لهذا أثر كبير في ابتكار الشارقة لفنون
تحلية الكتب

وإننا لا نذكر أن هذا البحث لا يزال بكراً ، لم تتجه إليه
الانتظار ولم يطرقه باحث ، كما أننا لا نذكر أنه ككتك الموضوعات
التي سبق البحث فيها فلا تكلف كاتبها مجهوداً كبيراً ، إنما نذكر

(١) راجع : Der Fruchtgarten von Saadi, Ottokar Maria, Wien 1852.

(٢) راجع : Christensen, Omar Khajjams Rubaiyat, Kopenhagen 1909.

أنه قد آن لنا أن نخطط خطة أخرى في دراسة الآثار الإسلامية ؛
فندرس الطريف الجديد

ولما كانت العلوم التطبيقية أول ما أتجه إليه نظرنا في هذا
البحث ، وكان أقدم الكتب المخطوطة في هذا الموضوع حسب
ما عثرنا عليه ، كتاب أبي زيد البلخي (نسبة إلى بلخ في جنوب
أفغانستان) رأينا أن نبدا بتعريف إحدى سورده وهي صورة
العراق في زمانه ، والتي قصد بها أن تكون خريطة لتلك البلاد ،
وهي الخريطة التي اصطحبها ياقوت الحموي الإغريق الأصل
(١١٧٩-١٢٩٩م) أثناء رحلته في سوريا وفلسطين كما ذكر ذلك
في كتابه إرشاد الأريب ، عند ما نوه بذكر كتاب البلخي ،
بما يدل على قيمته في عهده

وقد جعل البلخي للأشجار صورة تشبه المخطوطات الفليضة
المهشمة ومزراً للواء ، وأحاط المدن والعالم بدائرة تحده القطر
المقصود بالوصف ، ورسم نهر دجلة وسطه تقسم البلاد إلى قسمين ،
وأظهر مصبه في الخليج الفارسي عند شط العرب ، وحرر للمدائن
بجربسات ومتوازيات أضلاع ودوائر ذات مساحات مختلفة تناسبت
على ما يظهر مع قيمتها المدينية ، ولا يضير به أنه جعل
الخريطة بأكلها منحرفة نحو خمس وأربعين درجة عن
الآفاق . ومن المدن الواضحة على الخريطة بغداد والبصرة
كما يتضح من النظر إليها

والخريطة الثانية مختارة من كتاب تربة المشتاق في
اختراق الآفاق للشرif الإدريسي للولود حوالي عام
١١٠٠ ، وهو من أمهات الكتب في علم وصف الأرض
ومن أبرزها تأليفاً وأمرتها أترأ منذ القرون الوسطى .
وقد نقل إلى كثير من اللغات الأوروبية لاسيما اللاتينية
والإيطالية والفرنسية ، وضمه الإدريسي تلبية لرغبة الملك
رودريجو (دوجر الثاني ١٠٩٧-١١٥٤م) ملك صقلية
ونابولي ، الذي كلفه بعد دعوته إلى بلاطه وضع هذا
الكتاب ، وفرغ من تأليفه في منتصف القرن الثاني عشر
المسيحي . والنؤف عالم مغربي من مواليد ثغر سويتا ،
ذو ثقافة عربية أندلسية وذهن أوربي ، وكان في مقدمة
الرحالة الجغرافيين الذين جابوا الأقطار ، وهو سابق على

الرحالة ليفنجستون^(١) (١٨١٣-١٨٧٣) والرحالة ستانلي^(٢)
(١٨٤١-١٩٠٤) وغيرهما من الذين فرروا أنهم كانوا أول
من اكتشف منابع النيل ، ووضعوا هم ومن سبقهم أسماء
ملوكهم وأمرائهم على البحيرات التي رسمها الإدريسي في إحدى
خرائطه الفضة (ش ٢) لسبعة قرون قبل مولد هؤلاء المستكشفين .
فبينما ترى بحيرتي فيكتوريا نيارزا (أصلها أوكاريو نيارزا) وألبرت
نيارزا (أصلها موان نزيجا) اللتين تتكونان من المياه المنحدرة من
جبال القمر قد تغير اسمهما في الجغرافية الحديثة ، لا ترى الإدريسي
يفكر في إطلاق أسماء بعض خلفاء المسلمين أو أمراءهم على تلك
البحيرات التي لا يعد أن يكون قد رأها بيته كما رسمها بيده ،
وترى نهر النيل بعد تدفقه من تلك البحيرات والتفافه في وادي
السودان وعبوره القطر المصري ينصب في البحر الأبيض المتوسط
الذي هو جزء من بحر هائل أحاط بالخريطة الشاملة لبقع يضاء
تمثل الجزائر وأشباهها .

وإذا انتقلنا إلى فنون المقالة التي كانت ولا تزال شاغلة
لأذهان الملوك ، نجد سفرأ شاملاً لطقها وقواعدها ، اسمه كتاب



٢ - خريطة الإدريسي - منقولة من كتاب تربة المشتاق في اختراق الآفاق

(١) راجع The last journals of David Livingstone in Central Africa, publ. by H. Waller, 2 Vols., Lond. 1874.

(٢) راجع Henry Morton Stanley, Through the dark Continent, Lond. 1878.

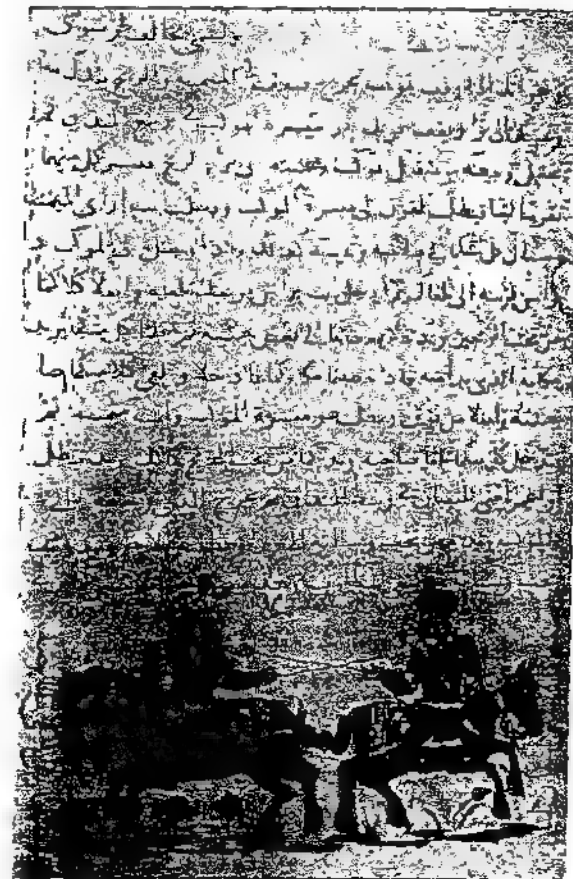


٤ - صفحة منقولة من كتاب علم الساعات والعمل بها

وعند النقل الأسفل تشاهد طيراً كان المقصود منه أن ينقر
بمنقاره لتحديد الوقت . أما المجارى الرفيعة التي توسطت الصورة
حيث النقط البيضاء المستديرة ، فهذه كانت طريقاً لأثقال تمر
منها في أوقات معينة ، مارة بفتحة في رأس الطائر الذي ترى عند
قدميه وعاء نصف مستدير لجمع هذه الأثقال

والصورة الخامسة مأخوذة من فصل من كتاب السر
الروحاني في علم الكيمياء القديمة الذي يرجع تأليفه إلى
القرن السابع عشر الميلادي ، وكتب فيها السويد في الطبائع في
المعمل الأول ، وبالنظر إليها ترى رأس النول في الركن الأعلى
الأيسر ، وهو عبارة عن وجه مستدير لأدى له عينان واسمتان
مستديرتان وأنف أفتلس وأسنان فظيعة ، وإلى جانبه عقاب واقف
على قوس وآخر على شجرة مثمرة وهو أسود اللون ، قال
المؤلف : « وقد طار الناس من هذا السواد الأول ، وأما الغراب
الثاني فمقتاره أحمر » ، وفي وسط الصورة على اليسار ترى رجلاً
قد وقف إلى قرن ، ووضع على رأسه غطاء أشبه بالقنوق

السؤال والأمنية في أعمال الفروسية لمحمد بن زين الدين المماني ،
يرجع تاريخ تأليفه إلى القرن الخامس عشر الميلادي ، وهو مزين
بمساوير توضح فصوله . والصورة (ش ٣) تبين فارسين وقد امتطى
كل منهما ظهر جواده وربط ذيل كل منهما بالآخر حتى لا يفترقا
ولا يبتعدا ، فيتمكن كل فارس من مبارزة خصمه ، ووقف
الجوادان على أرض مزروعة ذات زهر ، وكان الصور حريصاً
على تجميل الخيل وسروجها كما تلاحظ على اللوحة
ومما يثبت نجاح المسلمين في العلوم الفلكية والميكانيكية التي
بنى عليها فن التوقيت بالساعات بعد الزاويل ، ما نراه في الصورة
الرابعة المنقولة من كتاب علم الساعات والعمل بها تأليف وضوان
ابن محمد الخراساني ، والتي تمثل دائرة عليها ساعات النهار الاثنتا
عشرة ، وساعات الليل فظهرتها في النصف الأعلى من الدائرة حيث
ترى قنديلاً معلقاً بسلك رفيع . وإلى اليسار ثقلان معلقان بسلك
آخر ، أحدهما توسط ارتفاع الصورة ، والآخر قريب من أسفلها ،
وهما متصلان بالسلك المرتكز على بكرة في الركن الأعلى الأيسر .



٣ - الخراسان - منقولة من كتاب السؤال والأمنية

جديدة للحضارة الإسلامية السجلة عن طريق الفن في مؤلفات المسلمين ، الشاملة لمعالم الطب والجراحة والنبات والحيوان مما لا يسمع المجال هنا لذكره وإيضاحه . فإن كتبنا اليوم لنتفتح هذا البحث فأننا نكتب ليكون استهلاً لسلسلة بحوث تدل على عظمة الحضارة الإسلامية عن طريق التسجيل الفني ، مؤملين أن يتناول المسلمون في مهضهم مؤلفات أجدادهم بتلك الروح التي تناولها بها أهل أوروبا ؛ فيكون لنا بحث وإحياء لا يقلان عن بحث وإحياء أوروبا في عصر الرقعة أو ما يهد السبيل إلى نظيره

أحمد موسى

الحائز على دبلوم الدراسات العليا لتاريخ الفن العام
وأحازة الدراسة الأركيولوجية الأثرية
ودكتوراه الفلسفة من جامعة برلين

ملحق للعدد الممتاز

ضاق هذا العدد عن استيعاب كل المواد فبقيت طائفة من المقالات القيمة سننشرها في العدد القادم ، منها : مقالات الأساتذة أحمد أمين ، وعبد الوهاب عزام ، وعبد النعال الصعدي ، ومحمد عرفة ، وإسماعيل مظهر ، ومحمد لطفي جمعة ، وسعيد الأفغاني ، وحسن حبشي ، والدكتور زكي علي

مجلة الرواية

أرني مجنة قصصية صدرت في الشرق

تفندي عقلك وذوقك بروائع الأقاصيص الموضوعة والمنقولة . تصدر عن دار الرسالة مرتين في الشهر ؛ واشتراكمها في مصر ثلاثون قرشاً ، وفي الخارج خمسون . مجموعة سنتها الماضية تشتمل على النص الكامل لكتاب (اعترافات في العصر) لألفريد دي موسيه ، وملحمة الأوديسة لهوميروس ، وكتاب (مذكرات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم . وعلى ثلاث مسرحيات طويلة وعلى ١٢٠ أقصوصة من أدوع الأقاصيص في أشهر اللغات ، وثمان المجموعة في مجلدين ٣٥ قرشاً و ٢٥ قرشاً بدون تجليد عدا أجرة البريد

وأمسك يسراه شيئاً يجيل إلينا أنه بوتقة ليصهر فيها المعادن الخسيسة بقصد تحويلها إلى ذهب ، وفي الوسط غراب أسود حالك السواد ، وطير مقفص على اليسار . وعند ذيله وعلى يمين الصورة تشاهد حوضاً رقد فيه إنسان بينين مفتوحين ورسمت أعضاؤه بكيفية لا تخرج عن طريقة رسم التوصيلات الكهربائية اليوم ، وكتب إلى جانب الحوض حمام مارية حيث تسلب روح الانسان بطريقة السالب والموجب ، أما الركن الأيسر فهو مليء بصور الآلات والأدوات إلى جانب الرموز الكيميائية القديمة ينتج مما تقدم أننا قد اهتمدنا بالبحث إلى باب جديد من الفنون الإسلامية تناولناه بشيء مبسط من التسجيل العلمي ، لم نثرئب أعناقنا إلى قباب المساجد ، ولا إلى رؤوس الآذن ، ولا إلى سقف المائر لنجده ، ولكننا وجدناه في الكتب المهمة والسكنوز المتروكة ، حيث نجد في البحث والتنقيب عن معالم



٥ — الكيمياء القديمة — مقولة من كتاب السر الروحاني

قَتِيبُ الْبَاهِلِيِّ

البطل المقاتل

للمستشرق الانجليزي هـ.أ. رجب
الأستاذ بجامعة إسكسفورد

إن انتصار الجيوش الإسلامية في آسيا الوسطى أيام عهد الوليد الأول إنما يرجع قبل كل شيء إلى التعاون التام بين عبقرية الحجاج الحكيم ومهارة قتيبة الحريية . ولقد برز — من بعض النواحي — في كفاية قتيبة بن مسلم الباهلي في قيادة الجحافل ، وإن كانت المصادر العربية لا تنكر الحقيقة الواضحة في أن قدرته لا تتركز كل الارتكاز على العبقرية . ويتجلى لنا مراراً كثيرة إلى أي مدى كان ذووب الوالي على الاهتمام بتقديم جيوشه ، وما كان يأخذ به نفسه من وضع خطة القتال ، ولو أن فضل إظهارها وانتهائها بالنصر المؤزر يرجع في الحقيقة إلى قتيبة . ويظهر أن الحجاج كان كبير الثقة في قائده إلى غير حد ، وكما أنه لم يكن ليتوانى عن تصنيفه ولومه وتحذيره إذا جدد ما استدعى ذلك ، كذلك كان لا يمحجم عن إظهار تقديره لنجاح قتيبة . وسرطان ما أدرك العرب في جميع البقاع أن مقدرة الحجاج نشد من أزر قائدهم وإن استمرت ، فكان ذلك الإدراك مبثوث كثير من هذه الهيبة التي حالت دون حدوث أي خلف في حياته

أما العامل الثاني الذي ساعد في الواقع على تلك الفتوح فقد كان ما قام به قتيبة خلال مناصبه الفتح من توحيد جهات خراسان ، وتأليفه الفرس والعرب ، وقيس واليمن . ولم يكن من الهين عليه أن يستبقى حماسة جنده — التي لا يعرف التخاذل إليها سبيلاً — إزاء معارك طويلة الأجل حامية الوطيس ، وهيئات أن يقصر تفسير هذا الحماس على أنه الرغبة في التنمية الوفيرة بحسب . وليس من البعيد أن يكون مرجع نجاح قتيبة في الغالب إلى مقدرة الإدارة أكثر من رجوعه إلى حكمة قيادته . ويظهر أنه أدرك أن استتباب سلامة ودعائم الحكومة العربية في ولاية تخراسان يفني أن يقوم — طوال حكمها — على تعاون الشعب الفارسي الذي يؤلف الغالبية العظمى في الإقليم : الأمر الذي لم يبق به حتى الآن أمير عربي في الشرق

ولقد أظهرت حدة النضال الحزبي عظيم الخطورة في الاعتماد على عون العرب بحسب ، وعلى الأخص في وجه حركة كتلك التي أضرمت لهابها يزيد . ومن ثم فقد اكتسب قتيبة — بمعله الإيجابي هذا — ثقة الفرس وكافأها من جانبه بالثقة أيضاً . حتى ليكاد يخيل إلينا أنه باستمهاله — طول حكمه — لموظفين من الفرس وتقديمه الولاية الإيرانية إنما كان بمدى « المشيرة » التي كان يحتاج إليها بين العرب . وعلى الرغم من أن ذلك قد جلب عليه منخط العرب وكان عاملاً قوياً في إسقاطه ، إلا أنه في ذلك كان أول دافع لإثارة الشعور باسترجاع الماطقة القومية في نفوس فرس خراسان .

كذلك كان مركز آسيا الوسطى مشجعاً للعودة إلى محاولة ضم بلاد ما وراء النهر الفنية إلى المستعمرات العربية ، وإن كنا في شك غير قليل إزاء الأخبار المتعلقة بمدى اهتمام العرب بهذه الناحية . ففي سنة ٦٨٢ م ، بينما دب الضعف الداخلي في الصين من جراء مكائد الامبراطورة Wu ، وبينما كانت يداها مصفدتين بحروبها مع التبت قام الأتراك الشماليون أو الشرقيون باسترداد استقلالهم ، ولم تفلح الامبراطورية الجديدة مطلقاً في بسط نفوذها ثانية على الأقاليم الغربية في الخانات السابيين ، غير أنها مدت حكمها — بواسطة الحملات التواصلية — على القبائل المشرقية التي تنزل إلى Ili وتشو Chu التي يقال إنها « قد تلاشت في أغلبها » وفي سنة ٧٠١ م غزا الأتراك الشرقيون سجديانا Sogdiana ، بيد أنه ليس ثمة داع للاهتمام جدياً بالقول بأن قوات المهلب قد تأثرت بهذه النزوة ، ولو أنه كثيراً ما رُود هذا القول ، ولا يد أن التدمير والحسرة اللذين كانت تهم بهما هذه النزوات بلا استثناء قد ساعدا على إضعاف موارد أمراء الرعية الذين كان لهم نصيب وافر في اختيار ابن الخان ليقود القبائل المشرقية . وعلى أية حال فإن الحرب الناعمة التي كان يثير ضرامها الأتراك الشرقيون ضد التركش Türgesh من ٦٩٩ إلى ٧١١ م قد حالت في الواقع بينهم وبين إرسال مجندات إجابة لاستنابات كانت تصلهم من سجديانا بطلب المون^(١) منهم . كذلك لم يكن

(١) Chavannes : Documents sur les Tou-Kiue occidentaux

(طبعة سنت بطرسبرج سنة ١٩٠٣) P. 42, 282

Marquart : Die Chronologie der Altürkischen Inschriften

(ليزج ١٩٩٨) P. 15. راجع كذلك الطبري ج ٢ ص ١٠٧٨ و ١٠٨٠

من التشجيل على التركش التدخل في سجدينا خلال هذا العهد نفسه (١)

وبقصد مؤرخو العرب — بلا استثناء — بكلمة « الترك » جميع السكان المحليين الذين لا يستبعد أنه كانت فيهم إبان ذلك الوقت عناصر تركية . والواضح أن الاشارات العرقية إلى الخاقان إنما هي نموت نغز (اللهم إلا إذا أمكن إرجاعها إلى الرؤساء المحليين وذلك أمر بعيد الاحتمال) ؛ وإن قصة ٩٨ هـ التي اتخذتها فكرة التدخل دعامة لها إنما هي من نسج خيال باهلي بحث ، وخلاصة القول أن تجربة العرب في السنوات الأخيرة ترينا أنه كان من المحال على قتيبة أن ينعم بهذا الجند الباذخ من النصر لو أن كتاب كبيرة من الترك وقفت وراء سجدينا تشد من أزرها في مقاومتها . وقع فتوح قتيبة بطبيعة الحال في أربعة أوقات هي :

١ — سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) حيث استرد إقليم طخارستان الأدنى

٢ — فتح بخارى من ٨٧ — ٩٠ هـ (٧٠٦ — ٧٠٩ م)
٣ — تركيز نفوذ العرب في وادي جيمون وامتداده إلى صغد بين سنتي ٩١ و ٩٣ هـ (٧١٠ — ٧١٢ م)

٤ — الحملات على ولايات تركستان ، من ٩٤ — ٩٦ هـ (٧١٣ — ٧١٥ م)

أما عن إقليم طخارستان الأدنى فقد كان الجهد قبل قتيبة منصباً على كبت كل ثورة تنشب في هذا الإقليم . وفي ربيع السنة السابعة والثمانين للهجرة (٧٠٥ م) التأم الجيش وسار من « مرورود » وطالقان إلى بلخ ، ولقد خضعت المدينة — كما ورد في إحدى روايات الطبري — دون قتال ما . وتشير رواية أخرى إلى شوب ثورة بين بعض السكان ، وقد يمكن كتم هذه الرواية وإن لم تكن في وضوح الباهلية — كما يفتها لورودها على لسان أخي قتيبة ولأنه يرى من ورائها لاقامة دعوى باهلية على البرامكة . ولقد يكون هذا الرأي هو الأدنى إلى الصحة مادامنا نسمع

من أن بلخ قد أضحت خربة بعد أربع سنوات من ذلك (١) وتلا إخضاع بلخ إخضاع تيش Tish ملك شطانيان الذي يحتمل أنه تعاون مع المفضل في الهجوم على رمد قبل ذلك بعام واحد . ويظهر أن الدافع له على عمله هذا إنما هو الصراع مع ملك شوهان في الأودية العليا لنهرى سرخان وألبنجاليا ، وكان يأمل أن يستخدم ضده الجيوش العربية جزاء مساعدته إيها . وحقيقة الواقع أن المفضل قد دبر حيلة ضد شوهان قبل استنائه ، وكانت قد خرجت تحت إمرة قتيبة الذي كان أكثر الجميع استعداداً للهوض بها ما دامت تؤكد سلامة الوصول إلى الطريق الجنوبي للبوابة الذهبية . وبعد أن فرغ قتيبة من إخضاع ملك غسلسشتان Ghislashtan الذي كان من نعمة تركية كما يذكر يوان شوانج Yuan Chwang . وآب قتيبة بمنفرد إلى مرو فأركا جيشه يسير تحت إمرة أخيه صالح الذي قام بعثة غزوات صغيرة أثناء الطريق .

وإنه لمن الواضح الجلي — على الرغم من زعم البلاذري — أن هذه الغزوات لا بد أنها قد وقعت في الأقاليم المجاورة لنهر جيحون ، ومع ذلك فإن في رواية الطبري تعصفاً (٢)

وهكذا فإن قتيبة لا عززل (ربزك) في بادغيس قلب الثورة أمضى شهور الشتاء في مفاوضاته عن طريق « سليم الشير » وهو فارسي نافذ الكلمة قد برهنت حنكته — أكثر من مرة — في تصريف أصعب المفاوضات على حاجة قتيبة القصوى إليه . وقد أغرى « نيزك » على التسليم ، وسبق إلى مرو وقرت الأعماد على ألا يدخل قتيبة بادغيس بشخصه . ومع ذلك فإن الحاكم — من باب الاحتياط — قد أمر أن يصحبه (نيزك) في جميع حملاته ، ومن ثم فإنه — على الأقل في هذه اللحظة — كان قد آمن من خطر اندلاع ثورة في خراسان بطريقة شريفة لكلا الجانبين ؛ وقام ابن يروؤ قافلاً إلى الصين ينتظر ستوح فرصة تكون أكثر موافاة له (٣) .

١ . هـ . ج

(١) راجع الطبري ج ١ ص ١٢٠٦

(٢) من قراءات يوتول في Turkyestan v' Epokhu Mongolskvo

(٣) سنن بطرسبرج (١٨٩٨) Nashistviy P. 91. N. 5 and P. 76.

(٣) الطبري ص ١١٨٤ و ١١٩٥ والمحدثان في كتاب البلدان

(١) كما يرى لك الأستاذ هونسا ، راجع Gotting. Gelehr. Anz. 1899. P.P. 386-387.

مِظَانُ الْحِكْمَةِ فِي مَصْرِ الْأُمَوِيَّةِ

لِيَكُونُوا حَسَنًا رَاحِمِينَ حَسَنًا
شَدِيدِينَ دِينًا مَكْرِبِينَ

للنيل وداراً للصناعة^(١)، ورد الروم على أعقابهم حيناً نالوا البرلس،
وأهم ببناء المساجد وإصلاحها، فأمر في سنة ٥٣ هـ بجامع عمرو
ابن العاص فهدم وبني من جديد، وأمر في السنة نفسها بابتناء
منارات المساجد كلها.

ولقد وقى شروط النيابة عن الإمام فكان يقيم الصلاة بنفسه
طول مدة ولايته، ونظم الأذان فكان مؤذنو الجامع العتيق
يؤذنون الفجر إذا مضى نصف الليل، فإذا فرغوا من أذانهم أذن
كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد، وأمر ألا يضرب
بناقوس عند أذان الفجر.

وكان عبد العزيز بن مروان من أحسن الولاة الذين حكموا
مصر في هذا العصر. جاء في حجة أبيه مروان حين جاء لاسترداد
هذه البلاد من عامل عبد الله بن الزبير، وبقي فيها شهرين. ولما
عزم مروان على العودة إلى الشام جعل صلاة مصر وخراجها إلى
ابنه عبد العزيز، وكان بعض المصريين في ذلك الوقت على الشك
لمروان ولبنى أمية، تخاف عبد العزيز عاقبة مقامه في هذا البلد
وأفضى بذلك إلى أبيه، فرسم له هذه الخطة المثلى التي يفتنى أن
يسير عليها، فيتألف قلوب المصريين على اختلافهم. وتبين له أن
هذا الأمر لا يمكن تحقيقه، إلا إذا أسرم عبد العزيز بجوده
وإحسانه، وجذبهم إليه بالموادة ولين الجانب والبشاشة، وبين
لكل زعيم أنه من خاصته، وبهذا وحده يتغافى الجميع في خدمته،
ويجمع الكل على طاعته. يقول الكندي^(٢) قال عبد العزيز:
« يا أمير المؤمنين، كيف المقام يلد ليس به أحد من بني أمية؟ »
فقال له مروان: « يا بني عثمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أمية،
واجعل وجهك طلقاً نصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس
منهم أنه خاصتك دون غيره يكن عيناً لك على غيره وينقاد قومه
إليك. وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤناً، وجعلت لك موسى
ابن نصير وزيراً ومشيراً وما عليك يا بني أن تكون أميراً بأقصى
الأرض. أليس ذلك أحسن من إغلاظك بابك وغمولك في منزلك؟ »
هذه هي النصيحة الذهبية التي زود بها مروان ابنه عبد العزيز
عند توليته أمر مصر. ولم يفت مروان أن يزيد ابنه من النصائح



كانت لمصر
في العصر الأموي
بعض مظاهر طامة
لا يستطيع إغفالها
كظهور الروح
القومية بين
المصريين، وهى
الأخص بعد
كتابة الدواوين
بالعربية في عهد
الوليد بن عبد الملك
ابن مروان

سنة ٨٧ هـ بعد أن كانت تكتب بالقبطية، وما انطوى عليه هذا
العمل من إقصاء القبط عن كثير من مناصب الدولة، وكانوا
يقومون بجباية الخراج، وإليه تسند الوظائف الكتابية؛ مما
أدى إلى إحياء روح القومية عند القبط، ودفع بهم إلى المصباح
والقيام في وجه الولاة، وما كان أيضاً من اشتداد المال في جمع
الخراج وظهور روح المصيبة بين القبائل العربية، وكان لهذا
المصر مزاياه ومظاهر حضارته، فقد امتاز بعض ولائه بمطعمهم
على القبط، فسمح مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٢ هـ) لهم بأن يبنوا
كنيسة في الفسطاط.

ولقد ولي مصر في هذا العصر رجال عرفوا بالكفاية والبراية
وحسن السياسة فنشروا المدل بين الناس، وأتوا بضروب من
الإصلاح تشهد بمبلغ اهتمامهم بترقية الزراعة والصناعة وفن
الحجارة وغيرها

ومن بين هؤلاء مسلمة بن مخلد^(١) فقد بنى بالروضة مقياساً

(١) ذكر البرملى (ج ٢ ص ٥) أن مسلمة ولي مصر من ٤٧ -
٥٩ هـ وهذا خطأ

(١) المسودى: مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٦

(٢) الكندي: ص ٣٨ - ٤٠ والقرنيزى: المخطوط ج ١ ص ٣٠١

والانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ٦٢ - ٦٣

كل يوم كأنه يوم أنجي عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنة مترعات كل يوم تمدها ألف قدر^(١)
هذا وبالرغم من أن خراج مصر كان إلى عبد العزيز بن
مروان، فقد قيل إنه لم يترك عبد وقاه من المال غير سبعة آلاف
دينار عدا أملاكه في حلوان، وقيسارية أبي مرة وما خلفه من
الثياب والخيل والقيق. فلا غرو إذا أجمع الناس على محبته
ورضوا عنه وعن ولايته. ورواه الثمراء أحسن رداء فقال سليمان
ابن أبان الأنصاري:

فمن ذا الذي يبني الكارم والملا
ومن ذا الذي يهدي له بمدك السفر
فكنت حليف العرف والخير والندى
فمن جيماً حين غيبك القبر
فمدك لا يربى وليد لنفمة وبعدك لا يربى هوان ولا بكر
تلك هي مصر في فترة من حياتها الإسلامية الزاهرة في
عهد عبد العزيز بن مروان من بني أمية.

حسن إبراهيم حسن

(١) الكندي: ص ٥١ - ٥٢

مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محل

بشارع الصنادقية بميدان الجامع الأزهر

نمط كتاب شرح صحيح البخاري لشيخ الحديث الكرماني

٢٥ جزءاً عن الجزء ٦٥ ملياً

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

نم منه ٤ أجزاء وسيصدر تباعاً كل شهر جزآن

عن الجزء ٦٥ ملياً

مصنف شريف جوامع ٢٠٠ ملياً

مصنف شريف أوضح التفاسير ١٢ ملياً

كتاب فتح الباري شرح البخاري لابن حجر المصقلاني

١٣ جزءاً عن الجزء ١٠٠ ملياً وذلك خلاف البريد

في وصية أخرى ما يكفل له الراحة والطمأنينة في هذا البلد عند
رحيله إلى الشام، فلقد أوصاه بتقوى الله في السر والعلانية وبالبر
بالفقراء، وبتفقد وعده إذا ما وعد ولو حال دون ذلك شوك القتاد،
وأن تكون المشورة رائده قبل الفصل في أمور الدولة، وبذلك تلهج
الأسنة بالثناء له ويأمن الفتن والقلاقل^(١)

ولقد عمل عبد العزيز بتصائح أبيه فنجحت سياسته في مصر
النجاح كله، وأتى في عهده بكثير من ضروب الإصلاح فبنى
مقياساً للنيل، وزاد في الجامع العتيق من ناحية الغرب، وأدخل
في شماله رجة فسيحة^(٢) وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة
عند الحمراء القصوى بطرف القسوطا وكتب عليها اسمه وذلك سنة
٦٩ هـ^(٣)، واتخذ حلوان داراً لا تامة بعد أن أصيب بدهاء الجرام
على ما يخالف قول المؤرخين من أنه انتقل إليها لتفتش الوباء في
القسوطا، وأنشأ بها بركة كبيرة ساق إليها الماء من العيون
القريبة من القطم على قناطر aqueducts تصل عيون الماء بالبركة.
وفي حلوان غرس عبد العزيز النخيل والأشجار وبني المساجد
والمارات الفخمة. حتى قيل إنه بذل في سبيل ذلك مليون دينار^(٤)
ولقد بلغ من عنايته بفن العمارة والتماثيل أن ابني في القسوطا حماما
لابنه ذبيان، وأقام على باب هذا الحمام تماثلاً عجيباً من زجاج على
شكل امرأة وأطلق عليه أبو مرة، وباسمه سميت القيسارية التي
كانت ملكاً لعبد العزيز باسم قيسارية أبي مرة، وكانت تعرف في
زمن ابن دقاق (المتوفي سنة ٧١١ هـ) بمجم بئينة^(٥)

نعم! لقد طالت ولاية عبد العزيز على مصر فأنجح له أن
يأتي بكثير من الإصلاح، واستطاعت البلاد في أيامه أن تظهر بمظهر
النشاط الأدبي والمادي. ولقد بالغ الثمراء فيما أتاه هذا الوالي من
أعمال البر والاحسان والكرم، فقال بعض المؤرخين إنه «كان
له ألف جفنة تنصب حول داره، ومائة جفنة تحمل على المعجلات
ويطاف بها على قبائل مصر. وفي ذلك يقول الشاعر:

(١) الكندي ص ٤٨، والفرزى في المخطوط ج ١ ص ٢١٠

(٢) الانتصار لابن دقاق ج ١ ص ٦٣

(٣) الانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ٦٣، ١٢٠

(٤) أبو صالح الأرمي ورقة ٥٣ ب، ١٥٣

(٥) الانتصار ج ٤ ص ١٠٥

البصير الإنشائي

نشأته وأصوله

بالتشويق الإنجليزي الدكتور ريموند نيكلسون
الأستاذ بجامعة كمبريدج



يعد الصوفيون
الحسن البصري
واحداً من
جامعهم. والواقع
أنه كان إلى حد
بسيط يملئ
أهمية عظيمة على
الاستقامة النفسية،
ولم يكن قائماً
بالمبادئ الظاهرة
غريب. ولقد
قال: « متقال ذرة

« سوفوس^(١) » اليونانية (المقابلة لـ wise في الإنجليزية)
أو صفا^(٢) أو « صوف »

أما الاشتقاق الأولان فلا يقدمهما أى أساس لنوى^(٣)
ولسنا بحاجة لتفاهة بما. ولو أن الاشتقاق من « صفا » مقدم
لدى من يعتد به من شيوخ الصوفية، ومقبول على العموم في
الشرق^(٤). والسبب في هذا الترجيح يتضح لنا من مثل هذه
التعاريف كقولهم: « الصوفي من يحفظ قلبه صافياً^(٥) »
و« الصوفية الاصطفاء » وإذا فهمناها على هذا الاعتبار فقد سارت
لكلمة دلالة سامية هيأتها للاختيار دون سواها

ومهما يكن الأمر فإنه يمكن إرجاعها إلى أصل ضئيل، ذلك
أنه كان من مألوف عادات المتقشفين والزهاد عادة في النصور
الأولى من الإسلام وهي لبس الصوف لما كانوا عليه — كما يقول
ابن خلدون — من مخالفة الناس الذين يرفلون في الثياب
القالية، ولهذا فإن اسم « صوفي^(٦) » الذي يدل لأول وهلة على
المتقشف الرندي الصوف صار كدلول القاروق على الرهبان
الكاثوليكين؛ وطبقاً لما يذكره القشيري أصبح هذا اللفظ شائع

(١) Cf. Noeldecke: Süßl. (Z. D. M. G.) vol. 48, P. 45.

(٢) يقول أبو الفتح البستي:

تأزع الناس في الصوفي واختلوا فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنسب هذا الاسم غير نفي صافي قصوى حق محي الصوفي
(٣) يقول القشيري (ص ١٢٦ م ٣) وليس يصح لهذا الاسم من
حيث العربية قياس ولا اشتقاق. والأظهر فيه أنه كالتب، فأما قول من قال
إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف... فذلك وجه، ولكن التوهم
لم يختصوا بلبس الصوف؛ ومن قال إنهم ملبسون إلى صفة مسجد رسول الله
فالتب إلى الصفة لا تحمي على نحو الصوف، ومن قال إنه من الصفاء
فاشتقاق الصوفي من الصفاء جيد في مقتضى اللغة؛ وقول من قال إنه مشتق
من الصف فكأنهم في الصف الأول بطورهم من حيث الحاضرة من الله تعالى
فاللغز صحيح ولكن اللغة لا تنتضي هذه النسبة إلى الصف المترجم

(٤) وردت الإشارة إلى كلمة « صفا » ١٤ مرة في التعاريف المختلفة
بكتلي « صوفي والصوف » في كتاب تذكره الأولياء للصوف الفارسي
المعروف فريد الدين الطار النولي حوالي ١٢٣٠ م بينما كلمة « صوف » لم
تذكر إلا مرتين فقط

(٥) قاله جنيد البغدادي (ج ١ - ٩٠٩ - ١٩١٠ م) أحد مشاهير

شيوخ الصوفية

(٦) يمكن أن يقرر الآن في اعتقادنا أن كلمة « صوفي » نشأت في
السكوة إبان القرن الثاني للهجرة، وكانت في بادئ الأمر مقصورة على
متصوفي السراي، ومنذ ذلك الوقت أخذ التطور الأول للصوف في الظهور
في الآراء الشعبية والأغنية

من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة^(١)
يبد أنه على الرغم من أن بعض أقواله الواردة في التراجم للتأخرة
تؤيد الزعم القائل بأنه كان صوفياً عميقاً، إلا أنه ليس تحت
شك في أن تصوفه — إذا جاز أن ينسب بهذا الاسم — كان
من النوع الشديد الاعتدال؛ وأنه كان في حاجة قصوى إلى الحمية
والميام الذين نجددهما عند الصديقة الورعة وابنة المدونة التي
تربطها به الأقاصيص^(٢)

ولقد اختلف الصوفية أنفسهم في تفسير أصل اسم « الصوفي »
وذهبوا في ذلك مذاهب شتى متباينة، ومن بين الاشتقاقات التي
ذكرت ثلاثة تستحق عناية الباحث وهي التي تربطها بكلمة

(١) القشيري: الرسالة القشيرية ص ٦٣ السطر الأخير (ص ٥٤ طبعة
مصر ١٣٤٦ هـ)

(٢) مما هو جدير بالملاحظة أن القشيري للتوفى سنة ١٠٧٣ م وأحد
القديس الذين كتبوا عن التصوف لم يدور الحسن البصري بين مشايخ
الصوفية الذين ترجم لهم في رسالته (ص ٨ - ٣٥) ولم يجاوز ذكره
إلا ست مرات خلال رسالته، ولم يزد القشيري على ما جاء به الكامل من
أقوال الحسن شيئاً

الحق والهداية ، وأصلها المكوف على العبادة والاتطاع إلى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وحاشا ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف ، فلما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجئنا الناس إلى غلظة الدنيا اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والتصوفة »

من هذا يتضح لنا أن التصوف — إذا لم يكن في أصله تطوراً لحركة الزهد التي كان الحسن البصري يمثلها البارز كما رأينا — قد نشأ على كل حال من هذه الحركة وتفرع عنها . ولم يكن التصوف نظاماً تأملياً كهرطقة المعتزلة ، ولكنه إيمان عملي وقاعدة للحياة ، فيقول الجنيد^(١) : « ما أخذنا التصوف من القيل والقال ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » وكان الصوفيون القديس زهاداً نساكاً ، كما كانوا أيضاً أكثر من ذلك ، ذلك أنهم إما ظلموا على الناس بالجوهر الروحي والرضى الموجود في الإسلام ، أو أنهم أدخلوه فيه إذا لم يكونوا قد وجدوه حينذاك . ويقول السهروردي^(٢) : « التصوف غير الفقر ، والتصوف غير الزهد ، والتصوف اسم جامع لمعانى الفقر ومعانى الزهد مع مزيد وإضافات لا يكون بدونها الرجل صوفياً وإن كان زاهداً فقيراً » ثم يعضي بعد قليل في شرح الخلاف في قوله : « الفقير في فقره متمسك به متحقق بفضل ، يؤثره على الغنى متطلماً إلى ما تحقق من الموضع عند الله الحديث^(٣) نبوي ، فكلاً لاحظ الموضع الباقي أمسك من الحاصل الثاني ، وعانى الفقر والغلة ، وخشى زوال الفقر لقوات الفضيلة والعوض ، وهذا عين الاعتلال في طريق الصوفية ، لأنه تطلع إلى الأعواض وترك لأجلها ، والصوفي يترك الأشياء للأعواض الموعودة ، بل للأحوال الموجودة ، فإنه ابن وقته ، وأيضاً ترك الفقير الحظ الماحل ، واغتنام الفقر اختيار منه وإرادة ، والاختيار والإرادة علة في حال الصوفي ، لأن الصوفي صار قائماً في الأشياء بإرادة الله لا بإرادة نفسه ، فلا يرى فضيلة في سورة فقر ولا في

التداول قبل نهاية القرن الثاني للهجرة أعني منذ عام ٨١٥ م ؛ مع أنه في خلال هذا الوقت أخذت حركة الزهد في الإسلام تصطبغ إلى حدٍّ ما بصبغة جديدة^(٤) . ولا بد أن معنى صوفي — بخرص وجود الكلمة إذذاك — قد أصابه بعض التفسير . ويحيل إلى أن هذا اللقب الذي نمن بصدده الآن بين نقطة انتقال من الزهد السني ، وأنه — كما يقرر الجاني — قد أطلق أولاً على أبي هاشم الكوفي المتوفى قبل سنة ٨٠٠ م الذي أسس « خاتمة » الصوفية في الرملة بفلسطين . ومهما يكن الأمر ، فإن الفارق بين الزهد والتصوف (ذلك الفارق الذي هو على وجه العموم كالتفرقة بين الحياة الطهرية *Via Purgative* وبين طريق الكشف *Via Illuminative* في التصوف الغربي في القرون الوسطى) أقول إن هذا الفارق قد أخذ في الظهور قبل انصرام العهد الأموي ، وسرعان ما تقدم في صدر العصر العباسي تحت تأثير الأفكار الأجنبية وعلى الأخص الفلسفة اليونانية . ولندع الكلام عن مدى تطور هذه الحركة الأخيرة للكلام عنها في فرصة أخرى وسنتناول الآن في إيجاز أصل الصوفية كما نسمي مادة ، والظاهرة الأولى للدوافع الخاصة التي قامت عليها

أما فيما يتعلق بأصلها فلسفياً نستطيع أكثر من نقل الملاحظات التي قدم بها ابن خلدون لفصله عن الصوفية في مقدمة كتابه التاريخي الجليل^(٥) حيث يقول : « إن هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة

(١) يقول السهروردي : « لم يكن هذا الاسم (الصوفي) زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقبل كان زمن التابعين ، وتخل عن الحسن أنه قال رأيت صوفياً في الطواف ... وما روى عن سنيان أنه قال : لولا أبو حاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرباء » وحاشا يدل على أن هذا الاسم كان يعرف قديماً ، وقيل لم يعرف هذا الاسم إلا للتابعين من الهجرة لأنه في زمن الرسول كان أصحابه يسون الرجل صحابياً ، وبعد انقضاء عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمي من أخذ منهم العلم تابعياً » المترجم (٢) المقدمة (طبعة بيروت ١٩٠٠) ص ٤٦٧ و ص ٨٥ — ٨٦ ج ٣ من ترجمة De Sane الفرنسية ، وقد أسهب السهروردي في شرح التصوف في كتابه عوارف المعارف (الطبعة على هامش الأحياء للفرالي طبعة مصر ١٢٨٩ هـ) ج ١ ص ١٧٢ وما يليها ، راجع أيضاً ما كتبه الأستاذ براون عن الفشيري في كتابه *A Lit. of History of Persia* ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٨

(١) السهروردي : عوارف المعارف (على هامش الأحياء) ص ١٣٦

(٢) السهروردي : شرحه ص ١٤٥

(٣) إشارة إلى الحديث النبوي الشريف « بمنزل فقره أمتي الجنة قبل الألفين بئصف يوم وهو حسنة عام » المترجم

مِنْ شَهَادَةِ الْإِسْلَامِ

عَمَّارُ بْنُ يَاسِينَ

لِلأَسْتَاذِ كَامِلٍ مُحَمَّدٍ حَبِيبٍ

« أبصروا آله عمار فإن موعدكم الجنة »
(حديث شريف)



وقف ياب
دار الأرقم وجل
آدم طوال أصلع
أشهل الميتين بيد
مايين المنكبين...
وقف يردد بصره
فيا حوله وإن
الشیطان ليوسوس
له يريد أن يثنيه
عن عزمه ، وإن
قلبه لينفض مما

استولى عليه من الرعب . وكيف لا يستلبه الفرع من بعض عقله
وهو في هذا البلد وحيد ؟ فإ من عشيرة تحميه ، وما من أهل
يدفعون عنه الأذى ؟ وقريش من وراثه في الصولة والسلطان
أشداء على صحابة محمد ورفاقه ، يصبون عليهم فتونا من القسوة
والعذاب في غير رحمة ولا شفقة ؟ وامطرح في رأس الرجل
عاملان : هنا النبي الكريم يشرق النور الألهي من جبينه فيسطع
متألقاً يجذب اليه جماعة ممن رضى الله عنهم ، وهناك قريش
لا تستطيع أن تنزل عن كبريائها في هوان وذلة وهم سادة القوم
وأمرؤهم فكيف يلقون السلم في ضمة ؟ كلا ، بل أرادوا أن
يطفئوا نور الله بأفواههم وبأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره
المشركون

أفيناكص الرجل على عقبيه ليرتدى في الضواية مرة أخرى
ويمكف على أستانم من حجارة لا حول لها ولا طول ، أم يتدفع

صورة غنى ، إنما يرى الفضيلة فيما يوقفه الحق فيه ويدخله عليه »
ومفتاح التصوف نكران الذات وعدم الأثرة أو بمعنى آخر
« الحب » ومع أن هذه الفكرة ليست غريبة بأكلها ، إلا أنها
كانت بميدة جداً عن أن تكون مرفوقة للسليين الأتقياء الذين
كانوا متأثرين تماماً بقوة الله وبطشه أكثر من رحته وغفرانه ..
وإن جل تاريخ التصوف لمناهضة التفرقة غير الطبيعية بين الله
والإنسان ، وتبعاً لذلك لا أرى ثمة ضرورة تدعونا للبحث
عن أصل المذاهب الصوفية في غير الاسلام ، على الرغم من أنه
من الخطأ ألا تذكر الأثر المسيحي الذي أثر ولا بد في الحركة
في طورها الأول .

أما الطابع التفكيرى الذى أشربوه شيئاً فشيئاً ، والذي بدلم
على مر الزمن فقد كان بين مد وجزر وارتقاع وانخفاض طوال
المصر الأموى وطيلة قرن تقريباً بعد تقلد بنى العباس مقاليد
الخلافة والحكم . ولا يزال الصوفيون الأوائل يهجون منهج
السنة ، فصيلتهم بالاسلام نسبياً كصلة متصوفي الأسبان في
القرون الوسطى في الكنيسة الكاثوليكية . ذلك بأنهم كانوا
يعلقون كبراً على بعض النواحي الخاصة في التعاليم الإسلامية
وبولونها جل اهتمامهم بدرجة تجعل النواحي الأخرى تكاد تكون
في حيز العدم . وهم لا يهتمون في علم الكلام Dialectic ولكنهم
يكرسون أنفسهم لمسائل تتعلق باللاهوت العملى ، وإن نكرانهم
للذات وتشفهم البالغ أقصى نهايته وتقواهم الحادة واعتزالهم ...
كل هذه الأمور جعلت خواص رسالتهم الأولية توصف بالدهول

ترجمة : ح . ع

قصة الشعر العالى

القاضي عمر

له أساتذ عبد الفتى سوزن

تطلب من المؤلف ، ومن المكاتب الشهيرة

فيلج باب دار الأرقم ليأتي محمداً ... ثم يتلفى — بعد حين —
بنار يؤج سميرها وتنبعث من قلوب عليها أقفالها ... قلوب تريض
الفيضة المحنقة ؟ وأطرق يفكر ما يطمئن إلى أمر ...

وجذبه من أخيلته صوت أقدام تسير إليه في ولاء وثبات ...
فاذا صهيب بن سنان أمامه ، فاندفع يخدمه : « ما تريد يا صهيب ؟ »
قال صهيب « بل ماذا تريد أنت يا عمار » قال : « أريد أن أدخل
على محمد فاسمع كلامه » قال صهيب : « وأما أيضاً ، فوري لقد دفعني
قلبي إليه وإن خواطري لتضطرب في خيالي خشية مما ألاق بعد »
ثم انطلقا جنباً إلى جنب إلى حيث النبي فأسلما معاً ، وما استطاعا
أن يرحا الدار حتى خيم الظلام على الأرض ، فخرجا يتسللان ...
وأشرق نور الإيمان في قلب عمار بن ياسر فاستطاع أن
يكنم نزوات الفرح والنبطة في قلبه ، فراح إلى أبيه (ياسر) وأمه
(سمية) يحبب إليهما الإسلام فأسلما . وانطلق هو يعلن عن
إسلامه في جراءة لا يرهب القوة الثائرة ، ولا يخاف العذاب الأليم
وافتنى آل حذيفة في تمذيب آل ياسر — وما آل ياسر
سوى عمار وأمه وأبيه — لا يتورعون من شر ... لقد مات
ياسر في المذاب ، وماتت سمية إثر طعنة من يد أبي جهل ، وعمار
يشهد فاهن وما استكان ، فأغلظوا عليه وفي قلوبهم مراحل
من التقيظ يحمي عليها بنار من الصلف كلما خبت زادها الشيطان
سعيّاً .

وفي ذات مرة أخذوا ينظرونه في الماء المرة بعد المرة فأتروكه
حتى نزل عند رأيهم وقد بلغ به الجهد مبلغه ، وهم يقولون له :
« اللات والمزى إلهك من دون الله » فيقول هو : « نعم »
ويقولون له : « هذا الجمل إلهك » فيقول : « نعم » . وحين انقلبت
من بين أيديهم استشعر وبال أمره فراح يكفر عن خطيئته
بعبيرات الأسى والتندم ، ويستغفر الله أن زلّ لسانه ، وفي قلبه
حسرات وحسرات . ولفيه رسول الله (ص) وهو في أحزانه
ما يستطيع أن يكفكف بعض عبراته فجعل يمسح عن عينيه وهو
يقول : « ما وراءك ؟ » قال عمار : « شرّاً يا رسول الله ، والله
ما تركتُ حتى نلتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير » فقال : « وكيف
تجد قلبك ؟ » قال : « مطمئن بالإيمان » قال « فإن عادوا فعد »
فانطلق عمار وقد مسحت كلمات النبي (ص) على أحزانه

وانطلق الفوج الأول من المسلمين إلى الحبشة فراراً من أذى
قريش وخوفاً من الهوان والفتنة ، وعلى أثره الفوج الثاني وفي
أكبادهم حرق أن نأوا عن وطنهم وأولادهم وعشيتهم ، وعمار
صابر على أذى الكفار يتحملة في جلد وصمت على حين يستطيع
أن يصبر عن مشرق النور والرحمة من وجه النبي (ص) ، وما يزيد
العذاب إلا إيماناً بمحمد (ص) ودين محمد

وهاجر عمار — فيمن هاجر — مع النبي (ص) إلى المدينة
فهبطها نحي ، فما تلبث حتى أخذ يشيد للرسول مسجداً يقيم فيه
الصلاة في غير حذر ولا رقية ، وفي نفسه اللذة والطرب وهو
ينشد : « نحن المسلمون نبتغي الساجدا » ورسول الله يرد :
« الساجدا » واندفع القوم يشد بعضهم أزر بعض يحمل كل
واحد منهم لينة لينة غير عمار فهو يحمل لبتين لبتين ، وراع
القوم أن يجهد عمار نفسه فتقل الحديث في همس : « إن عماراً
يريد أن يقتل نفسه فهو يحملها فوق طاقها » وسمع النبي (ص)
الحديث فراح يفض التراب عن رأس عمار وهو يقول : « ويحك
ابن سمية ! تقتلك الذئبة الباغية ! »

ولصق هو بالنبي ما ينأى عنه في سلم ولا حرب لأن قلبه
وإيمانه لا يطاوئانه على أن يفعل ...

ولحق النبي الكريم بالرفيق الأعلى فكاه عمار — فيمن
بكي — سحاً وتسكاباً ، وفي قلبه — من أثر الفراق — جرح
ما يتدمل إلا أن يلحق بسيدته ، ثم هو لم يستشعر الوهن ولا
الضعف في دينه

وارتد مسيلة وقومه حين انفرجت الشفرة بموت الرسول
فاندفع إليهم عمار — فيمن اندفع — نازراً هائجاً يهدر يريد أن
يؤدب قوماً على عصيانهم ، وحين وجد في المسلمين هودة وفتوراً
ارتقى هو شرفاً عالياً ثم أخذ يتنادى وقد قطعت أذنه : « إلى ، إلى »
يا معشر المسلمين ، أنا عمار بن ياسر ، أمن الجنة تفرون ؟ هلموا
إلى ! ثم اندفع إلى الصفوف يفرق ما اجتمع منها كأنه نقي في
الثلاثين ، وهو قد شارف السبعين من سني حياته

رحم الله عمر بن الخطاب فلقد كان بصيراً بأقدار الرجال حين أمر عمار بن ياسر على الكوفة وكتب إلى أهلها : « ... أما بعد ، فاني بمنت إليكم عمار بن ياسر أميراً وعبد الله بن مسعود وزيراً ومعلماً ، وإنهما من النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر فاسمعوا لها وأطيعوا واقتدوا بهما ... »

لقد تأمر عمار على الكوفة فما أخذته كبرياء المنصب ، ولا روعة الإمارة ؛ ثم عزله عمر فما استولى عليه اليأس ، وما حمل لأمر المؤمنين في قلبه حفيظة ولا حقداً ، بل قال : « والله لقد ساءتني الولاية بقدر ما ساءني العزل » واندفع على سننه لا يجد الخور ولا القنور إلى نفسه سيلاً

يا حبيباً ! يا حبيباً ! يتغلغل الايمان في القلب فيحجب الانسان عن لذات الحياة ومباهجها لينقله إلى لذات ومباهج آخر هي لذات قلبه ومباهج دينه ؛ ثم يزرع عنه أطماع الدنيا وشهواتها فاذا سواه لديه أن يكون له ملك لا يذنب لأحد من بعده ، أو يكون فقيراً لا يستطيع السبيل إلى القمة يقيم بها صلبه إلا بشق الأنفس

ووقعت الفتنة الكبرى بين المسلمين ، فانشقت المعصاة ، وغدا كل حزب برعمون أن الحق إلى جانبهم ، فانضم عمار إلى علي وأصحابه وهو يقول : « والله لو ضربونا حتى يلقوا بنا سعفات هجر لعلت أنا على حق وأنهم على باطل » وراح يدفع عن الحق فما يهن ولا يستكين . وإنه في يوم صفيين لعل رأس رجل من أصحاب النبي كأنه علم ، إن تيامن تبعوه وإن تياسر تبعوه ، وهو يحرصهم بقوله : « أنفرون من الجنة والجنة تحت البارقة . اليوم أتني الأبحه : محمداً وحزبه » وفي يده حربة ترعد وهو يتنادى : « ألا من يارز ؟ ألا من يارز ؟ »

« ويحك ابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية ! »

وشهد هذا اليوم مشهداً مروعاً من مشاهد الحرب تنفطر له الأكباد ، هو قتل عمار بن ياسر ! لقد رماه أبو العادية الزني بالرمح على حين غفلة منه فهوى إلى الأرض ... ثم أكب عليه آخر فاحتر رأسه في غلظة وجفاء ... وانطلقا يختصمان لدى معاوية في رأس عمار وكل واحد منهما يقول : « أنا قتلته » عليهما بصبيان

أجراً . وعند معاوية عمرو بن العاص وابنه عبد الله ورجال من خاصته والمقرين إليه ، فقال عبد الله : « ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه ، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : تقتله الفئة الباغية » وقال عمرو بن العاص : « والله إنهما ما يختصمان إلا في النار ، والله لو ددت أني ريت قبل هذا بعشرين سنة » فأريد وجه معاوية وهو ما يستطيع أن يدفع عن نفسه بعض ما أصابها ، وفي قرارة نفسه أن جيشاً من أقوياء المسلمين وأشدائهم ما يقدر على أن ينال منه بعض ما يناله حديث عمرو بن العاص وابنه إن هو شاع بين جنوده

وهناك في العراق وقف علي بن أبي طالب عليه السلام بإزاء جثمان عمار بن ياسر يقول وفي قلبه الأسى والحزن على أن فقد صاحب رسول الله وحبيبه : « إن امرءاً من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر ، وتدخل به عليه الصبية للوجعة تغير رشيد . رحم الله عماراً يوم أسلم ، ورحم الله عماراً يوم قتل ، ورحم الله عماراً يوم يموت ؛ لقد رأيت عماراً وما يذكر من أصحاب رسول الله (ص) أربعة إلا كان رابماً ولا خسة إلا كان خامساً ، وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين ، فهنيئاً لعمار بالجنة ... » وانطوت صفحة بيضاء ناصعة من صفحات الاسلام واتقض ركن من أركان الايمان الثابت ... فرحم الله عماراً

عادل محمود حبيب

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جونا الويلاني

الطبعة الجديدة

ترجمتها : أحمد حسن الزيات

وهي قصة عظيمة تمت بحق من آثار الفن الخالد

وتتمها ١٥ قرناً

ابن البناء المراكشي

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

كان ابن البناء من علماء القرن الرابع عشر للميلاد ، نبغ في الرياضيات والفلك وله فيهما مؤلفات قيمة ورسائل نفيسة بحمله في عداد الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم العلم ومن المؤسف ألا يُعطى تواجده من البحث والتنقيب ، ولولا بعض كتبه التي أظهرها المستشرقون الذين يننون بالتراث العربي لما استعلمنا أن نعرف شيئاً من مآثره في العلوم . وعلى الرغم من قلة المصادر فقد استعلمنا أن نجتمع ببعض المعلومات عن حياته وآثاره ، ورأينا أن الإخلاص للحقيقة يدعونا إلى إنصافه وعرض سيرته على الباحثين فقد يكون في هذا العرض ما يحفز البعض إلى الاهتمام بتراث ابن البناء وإزالة ما أحاط هذا التراث من غيوم النمووض والاهمال

ولد ابن البناء في غرناطة في النصف الأخير من القرن الثالث عشر للميلاد ، واسمه أبوالباس احمد بن محمد بن عثمان الأزدي وكنى بابن البناء لأن أبيه كان « بناء » كما اشتهر بلقب المراكشي لأنه أقام مدة في مراکش ودرس فيها العلوم الرياضية . وقد نبغ على يده علماء كثيرون لموا في ميادين العلوم وكان أحدهم أستاذاً للمؤرخ الشهير ابن خلدون

كان ابن البناء مثقفاً وكان عالماً مثمراً ، فقد أخرج أكثر من سبعين كتاباً ورسالة في العدد والحساب والهندسة والجبر والفلك والتنجيم ضاع معظمها ولم يثر العلماء الإفريج والعرب إلا على عدد قليل منها ، نقلوا بعضه إلى لغاتهم . وقد تجلّى لهم منها فضل ابن البناء على بعض البحوث والنظريات في الحساب والجبر والفلك

لقد قامت شهرة ابن البناء على كتابه المعروف بـ « كتاب تلخيص أعمال الحساب » الذي يعد من أشهر مؤلفاته وأنفسها ؛ وبقي هذا الكتاب معمولاً به في المغرب حتى نهاية القرن

السادس عشر للميلاد كما حاز على اهتمام علماء القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ويعترف سمث وسارطون بأنه من أحسن الكتب التي ظهرت في الحساب ، وهو يحتوي على بحوث مختلفة تمكن ابن البناء من جعلها (على الرغم من صعوبة بعضها) قرينة التناول والمآخذ . أوضح النظريات المويصة والقواعد المستعصية إيضاحاً لم يسبق إليه فلا تجد فيها التواء ولا تعقيداً

في هذا الكتاب بحوث مستفيضة عن الكسور وقواعد لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها ، وقاعدة الخطأين لحل المعادلات ذات الدرجة الأولى والأعمال الحسابية . ولولا أن الأتيان على هذه القاعدة يستدعي استعمال خطوات قد لا يجد فيها الكثيرون طرافة أو متاعاً لأتينا عليها تفصيلاً . وفي هذا الكتاب أيضاً طرق لايجاد القيم التقريبية للجذور الصماء ، فلقد أعطى قياً تقريبية للجذور التريمية لبعض المقادير ، وكانت هذه القيم موضع دهشة العلماء الرياضيين وإعجابهم

وهناك قيم أخرى تقريبية للجذور التكميلية لمقادير جبرية أخرى ، وهذه العمليات بالإضافة إلى عمليات القلصادى أبانت طرقة لبيان الجذور الصماء بكسور متسلسلة

وكتاب التلخيص هذا كان موضع عناية علماء العرب واهتمامهم يدلنا على ذلك كثرة النسخ التي وضموها له ، فلقد وضع عبد المبرز علي بن داود الهوازي أحد تلاميذ ابن البناء شرحاً . وكذلك لأحمد بن المجدى شرح ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع عشر للميلاد . ولابن زكريا محمد الأشيبلى شرح موجود في مكتبة أ كسفورد .

وللقلصادى شرحان أحدهما كبير والآخر صغير ؛ وقد زاد على شرحه الكبير خاتمة تبحث في الأعداد التامة والزائدة والناقصة . وظهر لنا في أثناء مطالعتنا في مقدمة ابن خلدون أن هناك شرحاً لكتاب التلخيص وضعه ابن البناء اسمه كتاب رفع الحجاب ، « وهو مستغنى عن المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة الباني . وهو كتاب جليل القدر أدركنا الشيخة نظمه ، وهو كتاب جدير بذلك ، وإنما جاءه الاستغناء من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها وإذا قصد شرحها

في الغرب ورغبهم فيه وجملهم يتهافون عليه ويسرون بعوجه
في بحوثهم الفلكية وعمل الأزياج
أما في التنجيم فله مؤلفات كثيرة عُرف منها مدخل النجوم
وطبائع الحروف وكتاب أحكام النجوم وكتاب في التنجيم القضا في
وله كتاب اسمه (كتاب الناخ) ويقول الله كتورسارطون
إن كلمة (almanac) مأخوذة عن هذه الكلمة (الناخ) والله أعلم
« نابلس » قدري حافظ طوقان

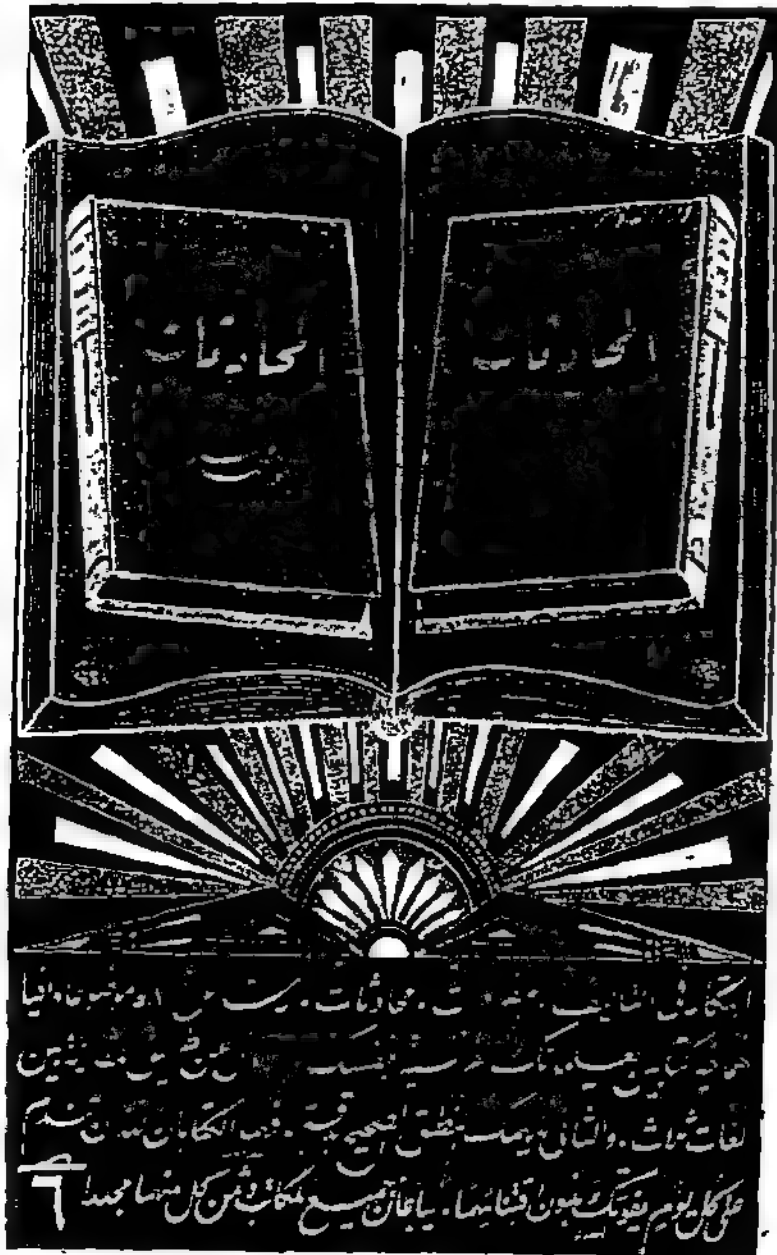
فإنما هو إعطاء الدليل في تلك الأعمال وفي ذلك من العسر على
الفهم مالا يوجد في أعمال المسائل ... »
وقد رغب العالم (وويكه) أن ينقل محتويات كتاب
التلخيص إلى الفرنسية خلال موته دون ذلك . وأخيراً نقله
(أريستيد مار) إلى الفرنسية في النصف الأخير من القرن
التاسع عشر للميلاد . ويقضى علينا الواجب العلمي أن نشير إلى
أن بعض علماء الغرب أغاروا على الكتاب المذكور وادعوا

لأنفسهم دون أن يذكروا المصدر الذي اعتمدوا
عليه ونقلوا عنه . وكان الرياضي الفرنسي الشهير
(شال) أول من أشار إلى هذا في رسالة قدمها
إلى المجمع العلمي في أوائل النصف الثاني من
القرن التاسع عشر للميلاد

ولابن البناء كتب ووسائل في الحساب
كوسائل « مقالات في الحساب » التي تبحث في
الأعداد الصحيحة والكسور والجذور والتناسب ،
وكتاب تنبيه الألباب ، ورسالة في الجذور الصماء
وجمها وطرحها ، وكذلك له رسائل خاصة
بالتناسب ومسائل الأثر

ولم ينف تناج ابن البناء عند هذا الحد ،
بل وضع كتابين في الجبر أحدهما يسمى كتاب
الأسول والمتدمات في الجبر والمقابلة ، والثاني
كتاب الجبر والمقابلة

وفي الهندسة له رسالة في المساحات ، أما في
الفلك فله مؤلفات وأزياج عديدة ، منها كتاب
الزيارة في تقويم الكواكب السيارة ، وكتاب
تحديد القبلة ، وكتاب القانون لتحجيل الشمس
والقمر في المنازل ومعرفة أوقات الليل والنهار ،
وكتاب الاسطرلاب واستعماله ، وكتاب منهاج
الطالب لتعديل الكواكب . ويقول ابن خلدون
إن ابن البناء اعتمد في هذا الكتاب على أزياج
ابن إسحق وأرصاد أخرى لفلكي كان يسكن
سقلية . وقد توفى ابن البناء في هذا الكتاب
إذا استطاع وضع بحوثه في قالب حبيب إليه الناس



من التاريخ الإسلامي

هجرة معككة

للاستاذ علي الطنطاوي

شبه واستطال في السماء واستعرض حتى ضاعت جوانبه في هذه
الجبال التي تشعب من حوله صاعدة متحددة في تسلسل واتساق
كانها الأمواج العظيمة في البحر الهائج المضروب لولا أن ماءها
الرمل والحصى وجلمد الصخر ، وأن عمر للوج ساعة وأنها من
لدات الدهر... كما ضاعت أعاليه في الزحام المسخر بين السماء
والأرض...

على ظهر^(١) هذا الطود فوق قلعة من تلك القلعات الراسيات
كانت ترقد القرية بيوتها ودروبها وبساتينها متوارية مخبئة ضالة
في فلات السماء ، تشرف على الأرض من فوق السحاب فلا ترى
منها إلا خيال هذه الصحاري الواسعة ، يبدو من بعيد موشى
بالرمال الخالدة المتسمة المنبهة ، والسراب الذي يظل أبداً لامعاً
خادعاً كأنه الحياة الدنيا...

هذه الصخور وهذه الأودية وهذه الصحراء... هي عند
أهل هذه القرية الوجود كله !

في طرف من أطراف هذه القرية كان يجثم بيت صغير
منفرد قائم على شفير الوادي... إذا أنت دخلته لم تجد فيه إلا
طائفة من الأولاد يجلسون على حصير قدماء وقبي وقطعت
أوصاله من قبل أن يولدوا... وشاباً على حشية قد طمته الزمان
فتر أحشاءها ، والشاب غض الإهاب ، لدن العود ، حديث
السن ، ولكن نظرة واحدة إلى عينيه تريك أنه قوي الإرادة ،
ماضي الزمعة ، وأن له وقار شيخ في السبعين من عمره...

ويبد الشاب عصا طويلة يشير بها ويهزها فوق ردوس
الصية ، وينال بها من أبشارهم ، على حين يجيل فيهم نظرات
مشتعلة بتأثير منها الشرر الأحمر ، تلذع أفئدتهم كلذع العصا
أجسامهم...

تلك هي مدرسة القرية ، وهؤلاء هم تلاميذها ؛ أما الأساتيد
فمقيل صاحب المدرسة ، وزميله الشاب : كليب !

وكانت أمسية طلقة أراق عليها الريح بهاء ورواء ،
فصرف كليب التلاميذ ، ووقف على باب المدرسة — على عادة

(١) الصبر (بالضاد) أعلى الجبل كما في السار والتاج ، ولعل منها
(شهور الثور) من سواحل الشام



يرى كل من
يسير البادية من
شرقها إلى غربها
(إذا هو قارب
الساحل) سلسلة
طويلة من الجبال
تلوح له من مسيرة
أيام ، زرقاء كأنها
معلقة فوق الأفق ،
أو غارقة في السماء .
ولكن هذه
الجبال تضيح كلها

دنا منها وتستبين ، حتى إذا بلغها ألفاها بناء عظيم من الصخر
الأصم ، إذا حاول أن يتقصى بنظره أعاليه سقط عقاله عن رأسه
ولم ير شيئاً ، لأن أعاليه غائبة وسط السحاب المتراكم ، فيقر في
ومع أنما هو جدار قائم يحسك السماء أن تقع على الأرض ، ويقف
حياه خاشعاً خاضعاً شاعراً بالذلة والخوان...

هذه هي السلسلة الهائلة التي تخرج من الجنوب (من البحر)
ثم تضطجع على الرمال بسخورها وجلاميدها ، وأوديتها التي
لا قرار لها ، وذراها التي ليس لها عدد ، وسفوحها التي يصل
فيها الهدى ، وثناياها التي تموت فيها الحياة ، وصمتها المهول ،
وجلالها الخالد... تضطجع متمدة بهذا الجسم الأزل الجبار ،
حتى تصاقب الشام وتبلغ مشارقه ، فتبسط سفوحها مترققة مهلة
متتالية حتى تنفي في تلك السهول الخضراء...

إذا قدر لك أن تنوغل في هذه الأودية العميقة الموحشة ،
ثم تسلك هذه الجبال ترتقي من ذروة إلى ذروة حتى تبلغ تلك
القنن الشاغرة التي لا يعلوها شيء ، رأيت فيها طوداً باذخاً قد

إلى منزله خائفاً يجرّ رجله جراً وبات أرقاً مسهداً ينتظر انبلاج
الفجر ، ليحمل عصاه ويهوى إلى صبيانه ...

لم يكن كليب جاهلاً ولا محملاً ، وإنما كان أدبياً أديباً فطناً ذكياً
من أبلغ الناس لساناً ، وأجبرهم جناناً ، وكان من أحفظهم
لكتاب الله ، وأبصرهم بالشعر ، وكان في بادي الفتوة ، قوياً ظاهراً
القوة ، لا يعرف الهوى ، ولا يعيل إلى اللعب ، ولكنه يعرف الجد في
— أموره كلها ويحب النظام ، ويعيل إلى الصدق ، ويأخذ تلاميذه
وأصحابه بشيء من القسوة أحياناً ، واللين حيناً ، وكان يجنح إلى
الحزم ولو اضطره الحزم إلى كثير من الشدة والصرامة ، ولم يكن
يؤخذ عليه إلا هذه الأمنية التي كانت تخرج به في كثير من أيامه
عن الوقار والحزم ، وتذنبه أحياناً من اليأس والضعف وتعرضه
على عيون الناس خفيفاً طيئشاً ، وهو الزين الوقور ، وتلقى
الانحلاف بينه وبين شريكه وزميله عقيل الذي كان أعرق منه في
الصناعة ، وأعلى في السن وأكثر اختباراً للحياة ، وإن كان دونه
— في مضاء عزيمته ، وقوة شخصيته ، حتى لقد اضطر عقيل إلى
نومه صراراً . وحاول مرة أن يسخر من هذه الحماقة التي ملأت
رأسه ، وأن يصرفه عنها ، وأن يتنزع من نفسه الرغبة الأماراة
والسلطان ... فكان يستمع إليه ساكناً جامداً كالصحراء ...
فتجف الكلمات على شفتي عقيل ، ولا يجد ما يقوله فيصمت هو
أيضاً وماودان العمل

وكثيراً ما كانت تطفئ على كليب أحلامه فتقلب عليه وتشتأثر
به فينسى حاضره الواقع ، ويعيش في مستقبله المأمول ، فيحس
كأنه في دست الملك لا على حشية العلم ، وأن أمامه الحاشية
والأهوان ، لا الأولاد والصبيان . فيرفع صوته آمراً ناهياً ،
— ويستغرق في أمره ونهيه ، ويعجب التلاميذ وتحرك في نفوسهم
طبائهم المابئة فتستبق الفقهات إلى شفاهم ثم تجمد عليها
يردها خوفهم من هذا العلم العابس وخشيتهم إياه ، ثم تغلبهم
طبائهم فينبجرون ضاحكين سائحين ... فينبه العلم الشاب ،
ويزعق فيهم فيكون ويسكتون ، ويتكرر ذلك ويقصه الأولاد
على آباؤهم وأهلهم فيكذبونه بادي الرأي ، ثم يصدقونه ثم يسمعون
في البلد ، فيصبح ملء الأفواه والأسماع أن كليباً المعلم الشاب قد

في كل مساء — ينظر إليهم وهم يقفزون من عتبها ، مفارح
بالنجاح من الملم وعصاه الطويلة ، وسجنته المتكفنة القلوية أبداً ،
تمارح يضحكون للحرية والجمال والانطلاق ، يمدون إلى القرية
عندراً ... حتى إذا غيبتهم هذه الجدران في أطوائها ، ولم يبق
منهم في الرحبة أحد ، وسكنت الحركة فيها وسكنت الضوضاء
التي انبعثت من أفواههم الصغيرة ، وحناجرهم الدقيقة الرناة ...
زفر كليب (المعلم الشاب) زفرة ألحمة اقتلعها من أعماق صدره ،
والتى عصاه وولى وجهه شطر الصحارى البعيدة ، يفتش فيها عن
الطريق إلى أمنيته التي طالما جاشت في نفسه ، وعادته وكرت
عليه ، حتى أمت له فكرة لازمة^(١) وبات لا يعرف غيرها ،
ولا يفكر إلا فيها ، ولا يعيش إلا لتحقيقها ، وطالما حلم في رومة
وفي بقلته أنه قد بلغ أمنيته ، فتتم بها وصرح في جناتها ،
ولكن الحلم يصرم وتعود الحقيقة الواقعة يرجعها الكالج القبيح ،
فيري أنه لم يصل إلى شيء

والتى وجهه شطر الصحارى ، ولكنه لم ينظر إليها ، وإنما
جاز به خياله فيأفها المهلكة ، وقفارها الواسعة ، إلى تلك البلاد
التي يسمع عنها وينسقط أحاديثها ، ويحمل لها في نفسه أجل
صورة تتفرج عنها غيلة شاعر ملهم ، أو مصور فنان^(٢) ، إلى
البلاد التي يمرش فيها الياسمين ، وينمو الآس ، ويزهو التفاح
والسفرجل ، ونسيل الينابيع متحدرة من أعالي الجبال الشجرية ...
فوقف يحلم بالوصول إليها ، ويتأمل صودتها التي صنعها خياله ،
وأقامها أمام عينيه ، خاشعاً خشوع السابد في عرابه ، مشوقاً
شوق الحب المتشيم إلى صاحبته ، مستغرقاً استغراق الصوفي في
صرايقته ، والحالم في أحلامه ، لا يحس مما حوله شيئاً !

وظل واقفاً شاخصاً إلى الأفق ، غارقاً في تأملاته ، حتى لاح
على الأفق من ناحية الشرق سواد خفيف ، لم يلبث أن اشتد
حتى شمل الصحارى النائية ، ثم امتد حتى عمّ الففر كله ، ثم
تسلق السفوح حتى غمر القمم الواطية ، ثم وصل إلى الدري
العالية فلفها هي والقرية في ثوبه القاتم ، وأحال الكون كله كتلة
من الظلام ... عند ذلك انبته كليب ، وأفاق من ذهولته ، فذهب

(١) idee fixe

(٢) ماني استعمال هذه الكلمة نأى ولو كره المتحذرون

أصابه طائف من الجن ، فياسفون ويحزنون لما عرفوا فيه من
البلاغة وما آتسوا فيه من الرجولة والحزم ، ولكنهم لا يحبون
وهل يحب الناس من معلم يحزن ؟ إنما يحب الناس من المعلم
إذا بقي عاقلاً وهو يعاشر أبدأ هؤلاء التلاميذ ...

وفي ذات صباح غدا التلاميذ على مدرستهم فلم يجدوا معلمهم
الشاب ، وكان من دأبه أن يسبقهم . فانتظروه فلم يحضر ، فذهبوا
يطلبونه في بيته . فلموا أنه باع بيته ليلا وقبض عنه ، ففتشوا عنه
في كل مكان يظنون أنه يأوي إليه . فتشوا في كل زقاق من أزقة
القرية ، وفي كل ذروة من هذه القرية منها ، وكل صخرة
من هذه الصخور القائمة من حولها . فلم يجدوا له أثرًا
ولما راح الرعاة في المساء سألوهم عنه ، فقالوا : لقد رأينا منذ
الصباح يتحدر وحده ، يقفز من حجر إلى حجر ، فحينئذ فلم يرد
علينا نجثا لأنه كان ذاهكاً ، قد تطلق بصره بالأفق النائي ...
وظن أنه سار يومه كله ، ولن نذكره أبدأ لأنكم لا تدررون
أي سبيل سلك !

فاسترجع أهل القرية واستمروا أسفاً على أن جُن هذا
المعلم الشاب ، وأيقنوا أنه سيموت في هذه البادية وحيداً فريداً
شريداً ...

سار كليب يومين كاملين على غير ما طريق مسالك أو جادة
واضحة ، يبتغي المنازل والمنحدرات ، تسلمه كل ذروة إلى التي
تحتها ، وكل سفح إلى الذي يليه ، لا يحس تعباً ولا يخشى أذى
لأن آماله قد ملأته شجاعة وصبراً ، ثم إنه كان في أول الطريق
فهو لا يزال نشيطاً قوياً ، ولا يزال زاده كاملاً ، ثم إن الحر
لم يكن قد غمر هذه الجبال وهي بعد في أواسط الربيع . فلما
بلغ الصحراء — والصحراء لا تعرف ، إذا تسمرت شمسا وحيت
دمالها ، ريماً ولا خريفاً — ولما أوغل فيها واحتواه جوقها ،
ونفذ ما حمل من الزاد ، والتهبت شمس الضحا الهابك ، وغلى
الهواء غلياناً ... جففت هذه الشمس أحلامه اللدنية ، وأحالتها
بخاراً ، وطيرت أمانيه من رأسه ووضعت عقله في جلد ومعدته ،
فواجه الحقيقة الواقعة ؛ فإذا الصحراء الرحيبة الرهيبة تضيق
به ، وإذا هو يرى حيثما تلفت شبح الموت المروع بمظالمه البادية
وفكبه المرعبين وجمجمته الفارغة ، يتراءى له على الأفق البعيد ،

يرقب أن يعاقبه قبل أن يصل إليه ، ويتمثل ذلك في خاطره فيشعر
ببرودة هذه العظام البادية تسرى في جسمه ، ويتصورها ملتفة
حول عنقه فيحس بالقمعية تغطي في أعضائه ، فينفض بصره
عن الأفق فيتردى له الشبح في هذه الرمال ، ويخيل لنفسه أنها
ليست إلا قبراً مفتوحاً ، فيكاد الخوف من الموت يهوى به ويقصف
ركبته ، فيرفع نظره عن الأرض فيتردى له الشبح في هذه
الشمس التي تسكب عليه وعلى البادية وهج جهنم ، فيغمض عينيه
فيتراءى له الشبح في الجوع الذي يلهب أسماه والعطش الذي
يحرق جوفه والضلال يملأ يومه وغده ... ثم يزول النهار ويشد
أوار الشمس ، ويبلغ لسان لهيبها قرارة دماغه ، فينسى الجوع
والعطش ولا يدري إلا شراً من ظل ... فيمدد كالجئون ها هنا
وها هناك ؛ والصحراء مبسوطة كالصفحة ليس فيها غار يأوي
إليه ، ولا صخرة يستظل بها ، ولا بشر يلجأ إليه ، ولا شجرة
يستندى بها ؛ فينبش في الرمل يسيده وأظافره ليجد في بطن
الأرض رطوبة يدس فيها أنفه ليريح رائحة الحياة ، ويوالى التنبش
يجنون ثم يطمر رأسه في الرمل فلا يزيد على أن يدفن نفسه سجيناً
في رماد حار ... فيجفو الرمل وينطلق يمدو حتى ينقطع ويملوه
البهر ويحس بأنه سيختنق ، فيقبل من ضيقه يلطم وجهه بكفيه
ويئنف شمعه يديه ... ويلعن المجد والسلطان ويلعن هذه الصحراء
ويلعن نفسه حين استجاب لهذه الحماقة تخاض الصحراء وألقى
بنفسه في جوفها اللهب ... يتدم أشد الندامة ، ويتمني لو وجد
إلى العودة سبيلاً ، وهبات أن يجد إلى العودة من سبيل ، لأن
بينه وبين القرية هذه السفوح التي لا آخر لها ، وهذه الصحراء
وهذه الأودية ، فإذا قطعها واستطاع أن يعرف طريقه بين آلاف
التلال المتشابهة وآلاف الصخور المتشاكلة لم يعرف طريق النجاة
من سخرية قومه وهزم صبيانهم ، وهو مالا يطيعه أبدأ ولا يصبر
عليه ، ويرى الموت أخف منه حملاً وأحلى مذاقاً ... وراح يذكر
تلاميذه الصغار وطاقاتهم إياه وحبه لهم ، ويذكر يقضاءهم وعصيانهم ،
ويذكر برائتهم وسذاجتهم ، ويذكر خبثهم وشيطنتهم ، ويذكر
لينهم ويذكر قسوتهم ؛ فإذا هو يشمر بالحلب لهم ، ويفرمه هذا
الحلب ويكون قلبه برداً وسلاماً ، ولمدة رباً وشبماً ، ولروحته
حياة ، وينظر بعين الحب إلى قريته ، ويمرضها كلها بطرقها ويوتها
وبساتينها ، وهذه الماير التي سلكها مرات لا يحصى عد ، ويرى

عظمت فأنما مخرجها أغصان الدوح الذي يرئس تربية العاصفة ،
أو السحاب التي بغنى أغنية الرعد ، أو المركان الذي يرأس زويز
الموت ... أما الصمت فهو تشبه الصحراء الخالدة ، وأغنية
الوجود كله !

غير أن هذا الصمت ينقطع فجأة ، ويحمل نسيم الليل
المهادي إلى أذن الملم الشاب صدى أصوات بعيدة وعميقة ،
كأنها خارجة من أجواف النيران ، أو من بطون القبور ...
فلم يدر أي من صنع الواقع ، أم هي من تزوير الخيال ... ولم
يحفلها ، لولا أن النسيم حملها إليه ككرة أخرى ، وهي أقوى وأشد
وضوحاً ، ثم تبين فيها حذاء حلواً ، فتخيل القافلة ، وهي تضرب
في الرمل الناعم البارد ، والليل وقد راقها هذا الحذاء ، فعدت
أعتاقها وأوسعت خطوها ، وهي طربة سكري بخمرة الألحان ،
ولس الفرج يأتيه من حيث تأتي القافلة ، وأرهف أذنيه يسمع
هذا الصوت الذي يدنو أبداً يحمل إليه الأمل والسيادة ، فإذا
بالصوت يتخافت ثم يضمحل ، وهو أشد ما يكون طرباً به وسروراً ،
ويسيطر على البادية هذا الصمت العميق ، فيألم الملم الشاب ويحس
بالغنية تحز في قلبه ، ويضيئ بهذا الصمت الذي كان ينم به من لحظات
تعمد السحب فتحجب عن عينيه هذه النجوم الثلاثة ، أو يخيل
إليه أنها حجبت عنه ، فيدور يصرف فلا يرى إلا مخلوقاً واحداً
هائلاً يحف به من كل مكان ، فيحس بالرعب ، وتثقل عليه هذه
الوحدة الموحشة تحت ظلمات ثلاث : ظلمة الليل ، وظلمة الصمت
وظلمة الخلية ... وبهم بالصرخ ، ولكنه يقر ويسكن حين
يرى هذه النجوم قد ظهرت دائية قريبة ، كأنها هي قد استقرت
على الأرض ، على قيد ذراعين منه ، تترافص على ظهر اللجة
السوداء ، تحاول أن تحترق حجب الظلام بأشعتها الكافية الكيلة ،
ولا يتفك يحدق فيها ، حتى تختلط أفكاره في رأسه ، ويحس
بأنه قد هوى في واد مظلم سحيق ... ثم لا يحس بعد ذلك شيئاً ،
لأن النوم قد غلب عليه وهو في مكانه !

وبشعر الملم الشاب بيد قوية تهزه هزاً فتقف كل شعرة في
جسمه ، ويتيقن مذعوراً يظن أن الجن تداعبه وتوقظه ، فيضبط
جفنيه ضيقاً شديداً ، ويسر وجهه بكفيه ، ولكن هذه اليد
تقبض على كفيه فتنتزعهما تترأ ، وتخالط أذنه أصوات هجينة ولنط
وضوضاء ، فلا يشك في أنها أصوات الجن ، ويفتح عينيه مضطراً
فإذا هو مسحور ، قد بلغ منه السحر أن حجب عن عينيه هذه

داره ويصير كل حجر فيها وكل زاوية منها ... ثم ينظر إلى هذه
الصحراء الترابية من حوله فإذا بها قد ابتلعت هذا الحب
وجففته ، وحياة الحب حياة قصيرة المدى ... وإذا به يحس بالألم
ويشم من حوله رائحة الموت ويرى نفسه نبتة اجتثت من الأرض
وقطعت جذورها ، ثم ألقيت على هذه الرمال التي يشوى عليها
اللحم ^(١) لتجف وتمود حطبة يابسة ، بعد إذ هي غصن مورق
فينان ، ويخيل إليه أنه قد قد حياته كلها حين فقد بلاده وأهله وسعادته ،
فيلقي نظره على هذه الجبال التي خلفها بعد يومين فإذا هي بعيدة ،
بعيدة جداً تبدو له من خلال الراب اللامع كأنها صورة الأمل
المتير لا تكاد تظهر ... فيسترجع نظره اليائسة مفسولة بدموع
الندم ، ويوفل في جحيم الصحراء تأثماً يائساً يمشي إلى ... الموت !

حتى إذا أطفأت الشمس ، ثم ضمعت وشحب لونها ، ثم
أسلفت الروح ، فلبس الكون كله ثوب الحداد ، ثم برد الرمل
واستحال إلى فراش لين جيل ، ولاحت في السماء النجوم واضحة
قوية ... شمر الملم الشاب بالراحة ، فاستلقى على قفاه يتنفس
الصمت من هول هذا اليوم ... ويتأمل النجوم ... ويصبر امتداد
الأرض والسماء من حوله ، فيعجب من جمال الصحراء وبهاؤها ،
وفنتشي بنسيمها الرخي الناعش ، وسكونها الشامل ، وجلالها
المهيب ، ولا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا العالم الجميل
الفتان ، بموج قبل ساعات بأشباح الموت ، وتهاويل المذابح !
ورجع الليل إلى الفتى الملم حماسه ونشاطه ، وأترع نفسه
قوة وحياة ، فرأى أمله الذي بتخرته شمس الضحا قد عاد رطباً
ندياً ، فجلس وحيداً بين هذه المخلوقات العظيمة : النجوم والسماء ،
والليل والصحراء ، يناجي أمانيته ، ويرسم طريقه إليها ...
وكان الليل ساكناً هذا السكون العميق ، الذي لا تعرفه المدن ،
ولا تدركه القرى ، ولا يقدر عليه البحر ، وإعنا تعرفه الصحراء
العظيمة بصمتها وخبثتها ، وقسوتها وليتها ، فراقه هذا السكون ،
وملك عليه لبته ، فأصنى إليه إسناً شديداً ، فكان يسمع فيه
نشيداً مرمدياً متصلاً ، له من الروعة في القلب ، والأثر في النفس ،
ما لا يكون لهذه الموسيقى المتكلمة الهزيلة ، الصاخبة المناوية ،
التي تخرج من أفواه ضيقة ، أو آلات حقيرة جامدة ، وإن هي
(١) لا على الحجاز ، بل الحقيقة التي رأيناها في برادى الخطيب رأى العين

ويطنى الفرج على نفس المعلم الشاب ، حين يقدمون إليه هذا الجمل القوى البازل ، وينسيه أن يسأل عن هذا السيد الذى أصبح فى حماء ، وأن يشكره . ويعلمون الجمل ببراعة الأعرابي وخفة الشاب ... ويسير به الجمل ، وهو يقلب بصره فى هذه القافلة العظيمة ، فلا يستطيع أن يدرك به آخرها ، أو يحيط بها ، وبأخذها العجب حين يرى من حوله مدينة كاملة برجالها ونساءها وبيوتها وحاجاتها وجندها وحماها ، تنقل تحت عين الشمس .. ثم بشرع الحادى بأغنيته فيصني إليها كليب حاكاً مأخوذاً ..

طوت القافلة الفلوات ، تتجنب الطرق الملوكة ، وتناهى عن القرى القليلة ، القائمة فى الصحراء بين دمشق وبثرب ، لتلا نجد فيها ما تخشاه فى هذه الأيام المضطربة الحافلة بالثورات والحروب ... وكان أصحابها دائبين ينزلون النهار إلا أقله ، ويمشون أكثر الليل وجانباً من النهار ، يتجنبون حرّ البادية ، ووجه الشمس ، حتى رأوا (بصرى) تلوح لهم فى اليوم السادس عشر ، بسم طيفها خلال أشعة الطفل ، فوثبت إليها قلوبهم ، وطاوت أمانهم ، وجدت القافلة السير ، دأب المسافر إذا دنا من بلد ، أو شارب غاية . وكان المعلم الشاب أشدهم طرباً وفرحاً ، فطفن يمدق فى هذا الطيف ، ويتأمل هذه الرمال ، يستمتع بأحلامه البهيجة الحبية ، فيرى الرمال إذ تمتد فى آذان عجيب ، من قلب الجزيرة إلى أسوار (بصرى) يحملها هذا التيار المنبتق من قلب بلاد العرب ، فيصبها فى أرض الشام فتغمرها بروح الجزيرة ، وتعلمها معاني الرمل ، ومن معاني الرمل أن تكون الأمة مجتمعة كالرمل ، كثيرة كالرمل ، خالدة كالرمل ، صابرة كالرمل ..

ويغم طيف المدينة ويظلم ثم يختفى فى ثنايا الليل ، ولكن المعلم الشاب لا يزال مغمناً فى التحديق ، قد نسى القافلة ، وغفل عن الزمان ، فلم يصبر اختفاء المدينة ، وإنما كان يصبر أحلام الجزيرة ، التى استهوت حتى استسلم إليها ، ووضع فى يدها قيادة فساقته إلى عالم ناء لا يدرك العقل قرارته ، ولا يبالغ غوره ، عالم يفيض بالفتون والجمال والسحر ، فظل يستمتع بفتونه وجماله أمداً طويلاً ... ثم قاده الذكرى إلى ماضى الجزيرة ، فإذا هو يراها محلة جديدة . قد تمرّت من الحضرة ، كما تمرّت من الحضارة ، وغاضت فيها ينابيع الماء ، كما غاضت ينابيع العلم ... ثم يرى رجلين

الظلمة الثقيلة التى كان يشب فى أثنائها ، وطمس أضواء القافلة الكلية التى كانت تراقص أمام عينيه ، وبذل كل شئ فى لحظة واحدة ... فإذا الدنيا ممثلة إسرائفاً وضياءً ، وإذا هو قد انتقل من الصحراء القاحلة الجرداء ، إلى دنيا تمور بالأحياء ، وتموج بالناس ، فيبانح فى فتح عينيه ، وقد كاد يمين لفرط الدهشة ... ولا يشك أن هؤلاء الذين يرى طائفة من الجن ... ثم يعود إليه وعيه ، ويصحو من نومه ، فيتلو قول الله تعالى (براكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) ، فيعلم أن ليس هؤلاء جنّاً ، لأن الجن لا يمكن أن يرام بشر ، ولكنه لا يزال على شكه : أين هو ؟ وما هذا الذى يرى ؟ فيقول لمن كان يوقظه :

— أسألك بالذى تحلف به ، إلا ما أخبرتني أين أنا ؟

— أين أنت ؟ أنت فى هذه البادية !

— فى هذه البادية ؟ وما هذا ...

— ويحك يا رجل لقد حبست القافلة

— اسقونى شربة ماء

— فيمضى الرجل ليأتيه بالماء ، ويحدث كليب نفسه :

— إذن ، فأنا قد نمت إلى الصباح

— بخذ اشرب ...

— الحمد لله ! أشكركم

— لقد حبست القافلة

— وماذا تريدون مني ؟

— تريد أن نعرف من أنت ... إنا لنظنك عيناً للمدو ،

فن أين أتيت ؟

— أتيت من أعالي هذه الجبال أريد الشام فضلت ونفذ

زادى ، وصهرت دماغى شمس الأمس ، فمدت أركض على غير

— هدى حتى انتهيت إلى هذا المكان ... ولست عدوّاً لأحد

— وما اسمك ؟

— لاسمى كليب ، من آل أبى عقيل ... وأريد الشام ، فهل

تمنون على فتحملوني معكم ؟ هذه هى دراغى !

وبفرغ كيبه على الرمل ، فتسكّوم الدراهم والدنانير ،

تنمكس عليها أشعة الشمس فيخطف بريقها البصر !

— وقصر عليك دراغمك ، إنا لا نرزؤك شيئاً ، أنت فى حى

هذا السيد ، فاركب جملك راشداً

— ما أجل هذا !

وكان صوته هامساً خافتاً ، كأنه كان يتأجج نفسه ، فإذا لم يجبه أحد ، وطمح عليه شعوره ، عاد يقول :

— ما أجل هذا ، ألا ترى ؟

وكان الفجر قد انبجج ، واستوى عموده ، وامتدت خيوطه فإذا هي تملأ الغداة كلها ، وتحمس عن هذه المشاهد التي كانت غبوة وراء حجاب الليل ، فإذا هي بارعة فتاة ، ولم يكن صاحبها المعلم قد رآها من قبل ، فشده حين ظهرت له بفتة ، كأنها لوحة فنية أزجج عنها غطاؤها ، أو كثر فتح له بابها ، أو متحف فيه كل جميل آخذ أضيئت له جوانبه ، فلم يدرك أن كان هذا كله مخبوءاً ، وحارت نفسه بين خضرة البساتين التي تحف بالبلد ، أينهم النظر إليها ويدوق حلاوتها بعد هذه الأيام الطويلة التي ذاق فيها مرارة البادية ، ويصني إلى تهامس أوراقها المتلاصقة ، ونجوى أفتانها المتعاقبة ، أم يتأمل هذه البنى العظيمة التي أودعها الفنانون من البيزنطيين أبديع ثمرة من جنى قرايحهم الخصبية ، وزلوا لها عن أجل نتاج لعبقريتهم ونبوغهم ، لتكون عروس البادية ، تخطر بعظمها وجالها ، وتهادي بزخرفها وزينتها على الرمال الخالدة ..

وكان الفجر قد امتد إلى نفس المعلم الشاب ، فأضاء له عوالمها كأضواء هذا العالم ، وحسره عن آماله التي كانت خفيفة في ظلام الأسفار ، كما كانت هذه المشاهد فائقة في سواد الليل ، فماد إليها ، وعملها قوية ظاهرة ، وأحس كأن فجر حياته الماجدة قد انبثق ، فتم صفحة هذا الليل الأسود الذي قضاه مملأً في أعالي الجبال ، ليفتح صفحة النهار الوضاء الذي يقضيه في المدن الكبيرة أميراً عظيماً ، وتلج بأحلامه عن هاتين البوحتين اللتين حار بينهما أولاً : اللوحة التي وشاها الربيع ، واللوحة التي زينها الفن ، وانطلق يفكر في دمشق ، ماذا تكون إذا كان هذا كله لقبة من قراها ؟

بقيت القافلة في (بصرى) ريثما باعت واشترت ، وقضى تجارها وطراً من الريح والكسب ، ثم توجهت تلقاء دمشق ، وكان المعلم الشاب يكلف ذهنه ضرراً من الكد ليمثل له صورة لدمشق تشبه ما كان يسمع عنها من الأخبار التي كانت تضيع في الأرض حتى تبلغ تلك الدرى العالية التي لا تهجع عليها قريته

يسيران من (أم القرى) إلى تلك (المدينة) الناعمة بين الحرتين فينبت الزهر تحت أقدامهما ، وتحضر الرمال التي يطؤونها ، وتكتسى البادية من حولها أبواب الحياة ، ويرى هذا الرجل يستقر في تلك (المدينة) فيبعث من بين حربيها صيحته القوية ، فيوقظ النيام ، ويحيي الجراد ، ويبعث في النفوس الفضائل والإبداع ، فإذا الجزيرة برمها وصخرها ، وشمسها المحرقة ، وجبالها الصلدا ، تسير وراء محمد (أعظم إنسان ، وأفضل نبي) لتحمل الحياة إلى سهول الشام والمراق ... يا عجبا ! يا عجبا ... الصحراء القاحلة ، تمنح الحياة السهول والبساتين ؟

رأى الجزيرة تمشي وراء محمد (صلى الله عليه وسلم) لتكون موقدة المركة الحمراء التي أكلت الظلم والريضة والظلماني ... ثم تمشي مرة ثانية لتكون دمالها بذور الأزاهير والأشجار في السهول الخضراء ... ثم تمشي مرة ثالثة لتكون قرايحها وأدمتها مادة هذه الصحف المحيطة البيضاء ، ثم ... ثم ... ثم بالغ رقيقه في هزها ، فالتقه كليب

— أفي كل يوم إغفاءة ، أو إغماء ؟ مالك أيها الرجل ؟

...

— انزل ، هذه أسوار بصرى !

زلت القافلة تحت أسوار (بصرى) في موهن من الليل ، فلم تبصر في بصرى إلا قطعة من الظلام الرائد ، ولم تجد أثراً لتلك الطيف البراق الزاهي ، الذي كان يترامى لها راقصاً على أشعة الطفل ... فهجعت مكانها تنظر الصباح

نامت القافلة بحرسها الحراس ، ونام كليب نوماً عميقاً لا يطفو على وجهه حلم ، حتى أحس بأنفاس الفجر الباردة على خديه ففتح عينيه ، فرأى طلائع الفجر تضطرب تلقاء الشرق في خطوط ضيقة ، كأنها أضواء المصابيح الكليية ، فراقته وتعلق بها بصره وما شئ يمتلك لب الرائي ، وبأخذ عليه مشاعره مثل انبلاج الفجر في الصحراء ، حين يكون سفير النور ، ومهبط الآمال على هذه النفوس التي ملئت ظلام الليل ، وما يعيش في الظلام من مصائب وأوهام ... ولم يستطع كليب أن يحمل وحده كل هذا الجبال ، وأحب أن يجد صديقاً يشاركه حمل الشمر ، فكان باقى على رقيقه النائم ، من غير أن يحول وجهه عن المشرق :

فتنشر فيها مكبرة منقوطة مكسوة بأنواع المبالغات ، تصور له دمشق جنة كائى وعد المتفون ، لها من المنظمة والجلال ما تنضال أمامه عظمة (المدائن) التي كان يتحدث بها المعجزة من قومه عن المعجزة ، ونخبيل له من جلال الخليفة وسخامة سلطانه ما يصغر معه ملك كسرى ويهون ... ولم لا ؟ وملك كسرى كله عمالة من عمالات الخليفة ، وولاية من ولاياته !

— كان العلم الشاب بكدة ذهنه ليتصور دمشق ، ويتبين طريقه إلى النجاح فيها ، وكان يحسب لطول ما عنهم على السفر وتردد فيه ، ولمظم ما لاقى من الأهوال والمشاق ، أنه ليس بينه وبين المجد والولاية إلا أن يهبط دمشق ، فإذا هو والى أو أمير ...

وكانت القافلة قد علت نشراً من الأرض فأنكشفت أمامها دمشق العظيمة أقدم بلدان الأرض وأجلها ، وهى فى مثل حلة العروس بضحك فى أعطافها الجبال تيس بثوب العرس الأبيض الشفاف الذي نسجته أكف الربيع من زهر الشمس المبهتة تموج فى خديها دماء الشباب ظاهرة فى زهر الدراق الأحمر الفاتح ، وعبق أزهارها يطر الجوى كله ، الأرض والسما والجيال والمصارى المجاورة ... فأخذ كليب بها أخذاً ورقص لها قلبه ، وقتن بها فتوناً . ومنذ الذى يرى غوطة دمشق — وهى فى ثوب الربيع — ثم لا يرقص لها قلبه ولا يفتن بها فتوناً ؟ ومنذا الذى يقطع عرض الفلاة حيث يمتد ظل الصخرة القائمة جنة حادرة ، ويرى الحشيشة الخضراء روضة ناضرة ، ويرى البئر الآسنة مورداً صافياً ... ثم يطل على الغوطة جنة الأرض حقاً (١) وروضة الدنيا بأشجارها المزهرة ، وطيبها وعطرها ، وفتونها وسحرها ، ثم لا يمين بها جتوناً ؟ وهل عدّ العرب الغوطة إحدى

— الروائع الأربع (chef d'œuvre) فى متحف الطبيعة إلا بعد نظر وفكر ؟ كان كليب ساجداً فى أحلامه ، وهو أشد ما يكون بها استمتاعاً حينما ارتفع هذا الفبار من ناحية الشرق عالياً عريضاً . راع القافلة فوقت تنظر إليه مذعورة ، جفا أحلامه ووقف مع القافلة ينظر ، فإذا الفبار يملو ثم تضربه الرياح فيتفرق ، ثم يعود فيجتمع ... ويفزع رجال القافلة الكبيرة ، ويظنون الظنون ، ويصنى كليب إلى حديثهم فيفهم منه أنهم لا يدرون ماذا يراد بهم . ولا يعلمون ما هذا الفبار ، ويوغلون فى الحديث

(١) لا يعرف الحق إلا من رآها

ويتشقق بينهم ، فيكشف لكليب عن أشياء كثيرة لم يكن يعرفها وهو فى قريته المالبة ... يعلم كليب أن الدولة فى أزمة من هذه الأزمات الخطيرة التى تعرفها الدول حين تصبف بها عواصف الانقسام والحرب الداخلية ، وأن عبد الملك قلق مسهد لا بنام الليل إلا لماماً ، فإذا هجع رأى شبح ابن الزبير ينقض عليه فقام صراعاً يخشى أن يتزع منه الشام ومصر كما انزع الجزيرة كلها والمراق وخراسان ، وصار الحاكم المطاع فى شرق البلاد وجنوبها وطالت مدته وامتد كلمته ...

ثم تنقطع أحاديث القوم ، وينظرون إلى الفبار المانى وسيوفهم فى أيديهم ، ومقاتلتهم أمامهم مستمدون للقتال ، فينشق الفبار عن الراية الأموية التى يبعث مشهدها الطائفة فى نفوسهم ، ويخرج من تحتها بضع مئات من جند الشام يخالطون القافلة الكبيرة ويكشفون أمرهم على عجل ، فيعلم رجال القافلة أنهم حيال فرقة من حرس الصحراء ، خرجت من دمشق منذ أسبوع لتجول فى هذه الفلوات القرية ، تقيم الدواجم والمخافر ثم تعود لتفصح المحال لفرقة أخرى ، فتجاوزت حدها ، وأمنت فى الضرب إلى الجنوب حتى دخلت فى أرض ابن الزبير والتقت بهذه الفرقة الحجازية التى كسرتها وردتها على أعقابها ، ولحقها لتفنى عليها وهز هذا الحديث القصير رجال القافلة ، فاستطافوا للقاء الفرقة

الحجازية التى دنا غبارها ، وتلفتوا يفتشون عن الرجل الذى يقودهم إلى المعركة ويشق لهم طريق الظفر ، ويلزمهم طاعته إلزاماً ، ولن يكون هذا الإلزام إلا بقوة الشخصية ، وبلاغة اللسان ، وكبر النفس . وكانت ساعة انتظار وتردد توجهت فيها الأنظار إلى كثير من السادة ، نخبوا رجاء الناس فيهم ، وأوشكت الفرقة الحجازية أن تصل . وهم على جودهم وانتظارهم ، عند ذلك تقدم كليب الذى كان يغالب نفسه ويقصرها على السكون ويمسك بركان حماسته أن ينفجر ، تقدم حين عجز عن ضبط نفسه ، ففتح له طريقاً وسط الفرسان ، وقد رأى أمانيه أدنى إليه من أنفه ، ومضى فيه مضى السهم حتى صار فى رأس القوم ، وهم يمججون منه ، وينتظرون أن يقودهم كل رجل فى القافلة إلا هذا الشاب الذى أمضى طريقه كله صامتاً حالماً لم يتحدث بحديث ، ولم ينطق بكلمة ، والذى يظنونه عيباً لا يبين ولا يبرب عن نفسه . ولكن مجبهم لم يطل ، فان الفتى انطلق يخطب فيهم خطبة صارخة مبلجلة

كرة أخرى، يتحدر ويهدر هديرًا سائغًا عذبًا، وسط جنة دانية القطوف متشابكة الأفنان، قد أخذ فيها مجلس يقوم على سيقان من خشب الجوز العوش، منغمسة في بردى تغسلها أمواهه دائمًا وتذاعبها أمواجه الصنيرة، فتقرصها ثم ترد عنها ضاحكة مقهقهة، وسواء هذا المجلس أغصان الأشجار قد تماطفت وتماقت، رزبها الياسمين زهره الناعم المطر، وحول هذا المجلس إطار من الورد والنسرين والسيسنبر والترجس والبنفسج، فهو جنة تنعم فيها العين بهذه الأزاهير المزلتفة الألوان، المختلفة الأشكال، تتأيل وتهادى حين يحسها هذا النسيم الرخي، فيفوح من أعطافها هذا الشذا الطيب، الذى يتمم الأنف برتيه، كنسيم الأذن بهند (الاوركستر) الآلهية، التى تعزف ألحان الفطرة الجميلة الساحرة على حناجر البلابل والشجارير؛ وبردى فوق هذا كله يمزف لحنه السرمدي، وتنمكس على صفحته المتموجة ألوان الزهر، فيكون منها لوحة فنية تزدى بألوان الغروب فى لجة البحر.

والنصر طبقتان من الرخام الأبيض والأسود والمزجج، له رواق على باب، قائم على أساطين من المرمر قد استفرغ صنمها وتزينها عبقرية البنائين والمهندسين فبدت آية معجزة فى لفه البناء تحس لدقتها وأحكامها كأنها هى حية ناطقة تشوى بخمرة هذا الأريج العطر الذى يفوح من أشجار البرتقال والليمون المطلة بالزهر التى تنافس بمطرها الورد والياسمين، وأشجار المشمش التى تظهر زهرها الأبيض الشفاف كأنما هى فى حلة فى التاج الحى المطر، وأشجار الدراق التى تبدو زهرها الأحمر كأنما هى عجب ورد وجنتيه الخجل، وأشجار الجوز سكرى عيس بثوبها الجديد الذى خلته عليها أيدى الربيع ... يتوج هذا كله منارة المسجد الشاهقة فى السماء، تنشر فى الدنيا كلها العطر السابى الخالد، وتريق عليها السعد والجلال، فتظهر الأرض من الشوك والذائل، وتنطهر النفوس من الطامع والشهوات، وتهب على الوجود نسمة من نلمات الجنة حين يخرج منها النداء: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله»

كانت دمشق (وما تزال، وستبقى دمشق) جنة الأرض، ودرّة تاجها، وواسطة عقدها، ليس فى الأرض أجل منها

تلهب كلماتها التهايبًا، وتحرك مجلها الجلاميد الصم، وتدع الجبان المخلوع القلب وهو البطل الحلال. وكان صوته القوى يدخل إلى حبات القلوب فتصيبها منه رجفة كما يرتجف الرجل عسك بسلكة الكهرباء؛ وكانت إشارات يده ومحات وجهه تنطق بمعانيه قبل أن ينطق بها لسانه، فتحرك الناس وتقودهم حتى كأنهم مطلقون بأصبعه. ولم ينته العلم الشاب من خطابه حتى كان القوم قد خلعوا نفوسهم التى أضناها طول السفر، وأرمضها حر الصحراء، وأضعفها التردد والإحجام، ولبسوا نفوسًا جديدة ماضية لا تعرف التردد، قوية لا تعرف التعب، مؤمنة بالظفر لا شك عندها فيه. ولم ينته من خطابه حتى كان الجند الحجازيون قد وصلوا. فأطلق من فيه صرخة الحرب، وأغار كالفضاء النازل ينشد أنشودة الموت والجند ومسلحة القافلة من ورائه تردد النشيد فتמיד له اليد. فلم تكن إلا جولة واحدة حتى أتر الحجازيون السلامة، ففروا لا يلبون على شيء. واستراحت القافلة حينًا. ثم أخذت طريقها إلى دمشق يقدمها كليب (العلم البطل).

كانت دمشق فى زلزال شديد، وكان أهلها فى هيجان واضطراب، ينتظرون المركة الفاصلة بينهم وبين ابن الزبير، لينتجوا العالم الإسلامى من هذا الانقسام الذى ينكره الإسلام ويأباه أشد الأباه؛ وليعود إلى الوحدة التى جعلها أساس الحياة الدنيوية للمسلمين، كما جعل التوحيد أساس الدين ... ولكن أهل دمشق فزعون مشفقون على الخلافة الأموية أن تنهار وتنحطم وهم يبنّاها ومُحَامِنَاها، يرقبون الأحداث، ويسقطون الأخبار، ويعدّون نفوسهم للتضحية الكبرى فى سبيل المبدأ القويم، والغاية الساذجة كدأب المسلمين فى كل عصر وآن.

وكان (قصر الخضراء) مثنوى الخلافة، وسرة الأرض، فى حركة دائمة؛ فن جلس يجمع للشورى، إلى ألوية تمعد للدفاع. وكذلك كان قصر (مستشار الدولة روح بن زقباغ) الذى أمته كليب العلم الشاب صبيحة وصوله إلى دمشق، يفوده إليه زعيم الجند الذين أتقدم كليب، وأعطاهم على عدوم، ليلقى عند روح جزاءه.

وكان قصر روح قائمًا فى ظل المسجد، دانيًا من باب الفرديس بجري من تحته بردى متواريًا فى حى القصر، ثم يظهر

أن يسمع حديثهما أحد ، ثم يقول للأعرابي هاماً :

— اخفض من صوتك ... سألتك بالله !

— ولم ويحك ؟

— ألا تعرف من هو الحجاج ... ؟ أأنت من سكان هذه الأرض ؟

فيعود الأعرابي إلى الضحك وقد راقه ما يسمع ويقول له :

— بل أنا من سكان السماء ؛ هبطت الساعة من أعالي جبال

الطائف ؛ أما الحجاج فأنا أعرف الناس به : معلم صبيان أحمق !

— ويحك يا أعرابي ، هو والله أمير المراقين ، وقاتل ابن

الزبير ، وسيف الخلافة الأموية وثبت أركانها

— إنك تهزل !

— وهل في هذا هزل ؟ سل ويحك من شئت !

— كليب أمير المراقين ؟ يا ضيعة شيتك يا عقيل ! ...

ويحك يا هذا ، دلني عليه ... دلني عليه ...

—

—

— أدن يا عقيل !

— أو قد عرفتني ؟

— وهل يتكر الحجاج أصدقاء كليب ؟ كيف تركت صبياناً ؟

— ما أنت والصبيان ؟ أنت أمير المراقين ... ولكن خبرني

ويحك يا كليب ، كيف بلغت هذا كله ؟

— بلغت لاني (أردت) أن أبلغه

ولم يدرك عقيل ما شأن الارادة هنا ؟ فانطلق بضحك يحسبها

نكتة ، ثم سكت فجأة وقال :

— ولكنه شيء عظيم والله يا كليب ! أين هذا من ذاك في

في الطائف ؟

— وا شوقاه إلى دارى في الطائف ، وإلى أباي مع الصبيان !

لقد خلعت فيها ربيع حياتي يا عقيل ، لقد خلعت فيها ربيع

حياتي ... والآن يا صريحاً ، يا صريحاً برفيق الشباب ... (١)

عن الطنطاري

« بيروت »

(١) روى التاريخ أن الحجاج كان يدعى في صغره كليباً وكان معلم صبيان

في الطائف ، وهذا كل ما روى التاريخ !

ولا أحفل بكل محبوب ساحر أخاذ ، مما يشتم أو يرى أو يسمع ...

وكان قصر روح من أجل ما في دمشق ، وكان فوق الجمال جليلاً

نفوراً بسا كنيه ، يملؤه الحجاب والجند وذوو الحاجات ، فلا

ينصرفون إلا وافرين غائبين شاكرين . كان محط الجمال والجلال ،

ولكن كلياً (المعلم البطل) لم يحفل شيئاً من هذا ، ولم ينظر

إليه ، لأن من عادته ألا ينظر إلا أمامه ، لا يلتفت بجهة ولا يسرة

— لئلا يشغله عن غايته شاغل ، أو يعوقه معوق . وكانت آماله هي

غايته ، فضى إليها قدماً ، لا يبصر إلا ظهر الجندى الذى سبقه

ليدله على الطريق في هذا العالم الصغير ، حتى دخل على المستشار ..

ندع كلياً في حضرة روح بن زناح مستشار الدولة ، ونقفز

قفزة واحدة إلى واسط مدينة الحجاج ، تقطع في هذه القفزة سنوات

طويلة مليئة بالأحداث الجسام ، من قتل مصعب وعبد الله ابني

الزبير ، إلى عودة الوحدة الإسلامية على يد البطلين عبد الملك

والحجاج ... فنرى في شوارع واسط النسيجة شيخاً أعرابياً

جافياً يلفت تلفت المشدوه الذى لم يبصر في عمره مدينة كبيرة ،

يتوسم في وجوه الناس بفضول ظاهر ، فيفرون منه حتى زال

النهار ، وكنت رجلاه من السير تجلس في ظل دار من هذه الدور

الجديدة ، كشيئاً حزيناً

— مالك يا عم ؟

—

— مالك ؟ أخبرني ما شأنك ؟

فيرفع الأعرابي رأسه ويحدث في وجه الرجل ، حتى يطمئن

إليه ، ولا يرى فيه ما يريه ، فيقول له :

— أريد أن تدلني على رجل يدعى كليب بن يوسف الثقفي ،

من الطائف

فيضطرب الرجل ، ويسأله :

— أندري ويحك ما تقول ؟ ابن يوسف الثقفي ؟ أخو الحجاج ؟

فلا يسمع الأعرابي هذه الكلمة حتى يبرى عنه ، وينطلق

ضاحكاً بملء فيه ، ويقول :

— بل هو والله الحجاج ، كنا نسميه كلياً ، قاتله الله

ما أشد عقوقه ... ألا تخبرني أين هو هذا الخبيث ؟

— قبحك الله من أعرابي جاهل ، أبهذا تصف الأمير ؟

وتلقت إلى كل جهة ، وقلبه يكاد ينخلع من الرعب يخشى

خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَأَمِيرُكُمْ

رواية شعيرة في فصل واحد
بقلم السيد محيى الدين الميرزا

« قواد العرب المسلمون يجمعون المداولة في حرب الرومان »

أبو عبيدة:

أرى الرومان قد حشدوا جنوداً بضيق السهل عنها والفضاء
كان الليل زحف وهو داج ومحزن على جوانبه ضياء
ولولا الصبر والإقدام فازت

جيوش الشرك وانكشف النظام

عمرو:

صدقت (أبا عبيدة) ما وثينا ولم بفأل لضرمتنا مضاء
وكنا كالصواعق غانبات تميم الأرض منها والسماء
ولكن كان جمعهم عديدا فلم يوهن صفوفهم اللقاء
ولو أوتوا قلوباً لا تبالي لحاق بقومنا منهم بلاء
رأيت الجند بالزمات يسمو وحق له مع اليأس النقاء
(خالده) لم تأخر؟

أبو عبيدة:

لست أدري سأمبر عل يحمل الساء
أناني من (أبي بكر) كتاب فزال الكرب عني والثناء
يشرني بمقدمه نصيراً بروحي منه ذياك السناء
هو البطل الذي قهر الأعادي وليس له سوى التقوى وقاء
تمالي الله حين مضى سريماً ووجه الأرض تخفيه الدماء
رأينا كيف تُنتزعُ العالي ويرفع في السماء لنا لواء
(تسحجة)

ماذا؟ هتاف؟ ما الخبر؟

عمرو:

لعل (خالده) حضر

أبو عبيدة:

تيسنوا ماذا جرى لم يبق لي من مصطبر
(تهليل من الداخل ونشيد من قبل القادمين)

الجنود:

جردوا البيض وسيروا للكفاح فتادي الحرب بالأعراب ساح
إن نيل المجد في الدنيا متاح لشعوب زانها العزم الخطير

سوف يلق (الروم) أنواع البلاء من كاة نافسوا الشهب علاء
نحن سر المجد بل ومن الإباء لا نبالي ما حيشا بمسير

أنتم الأبطال آساد المرين من رأى الآساد يوماً تستكين
فاشحدوا العزم وليوامرعين لبناء المجد والعز الأثير

(خالده) قائدنا يوم اللقاء ولنا من سيفه أقوى مضاء
زول الفرس فقتلهم خلاء ومضى في نهجه غير حسير

خالده:

سلام عليكم ليوث المرين ونسل الكرام من الفاتحين
أبو عبيدة:

عليك السلام زعيم النضال وسيف الإله على الكافرين
أطلت علينا الغياب فأمت تسافر نحو (المراق) الميون
علام التأخر؟

خالده:

شأن عجيب وشك تغفل فيه اليقين
أبو عبيدة:

فديتك هات الحديث العجيب وأدل برأيك للملين
خالده:

الله أكبر تم النتج وارتفعت على (المراق) بنود النصر والظفر
خضنا معارك يرتاع الحديد لها حيث المنية لا تبق على بشر
فاهزت الأرض لما نارنا وأصبحت دولة الأوثان في سقر
رام الأعادي بنا كيداً وما علموا أن العروبة لا تخشى من الخطر
وعدت نحوكم بالجيش مرتقياً صخراء تزخر بالويلات والغير
لا ماء فيها ولا رعد يلوح بها

أبو عبيدة:

ماذا شربتم إذن؟

خالده:

أعطت أنيقنا ثم ارتوت علالاً وكنت أنحرها في وقدة السمر
سريت خمس ليال ما شكا تمباً منا أصرو

أبو عبيدة:

بالكم من فتية صبر

خالده:

أصليت (بهراء) حرباً فاستكان لنا

قوم سما مجدهم في سالف العصر
(مرج راحط) قد ريمت فوارسه
من بأسنا وكذا (بصري) على الأثر

أبو عبيدة :	خالد :
يحيى البطل سيف الله	أدخله حالاً لترى ما يرومه من شان (يدخل أمير حمص)
الجميع :	الأمير :
خالد :	أيهما القائد وفقاً يشجع إنني سيد (حمص)
نبتولي عن حالكم إن قلبي	خالد :
أبو عبيدة :	مرحبا بفتي (غسان) وضاح الجبين
— قد قهرنا الرومان في (أجنادين)	أوضح الأمر وقل لي ما الذي
داهمونا بجيشهم فنقدونا	صلة نجعلنا من (يعرب)
قد قسمنا جنودنا وصعدنا	الأمير :
خالد :	قد أتيت اليوم أشكو ملكا
ما أراكم قد أصبتم بأقسام	قصر الروم (هرقل)
أجمعوا أمركم وكونوا بناة	خالد :
إنما الفوز للقوى فيروا	ويله سيري في الفد عقي الظالمين
وامهروا المجد بالسماء تفوزوا	الأمير :
السلح السلاح يا قوم إني	قد بقي في (حمص) قصراً شامخاً
أبو عبيدة :	دوحة (المياس) تهفو حوله
يحيى القائد يحيى خالد	ومضى يعمى في آتاه لا يزال بانتقاد اللاتين
(يذهبون إلى الحرب وتنشب المعركة ثم يعود خالد بعد جلاء العدو)	فاستثارت (حمص) من أعماله
خالد :	كيف رضى (حمص) فعل الجاهلين ؟
لك الحمد رب الكون تم لنا النصر	إنما (حمص) منارٌ للآلى
وقام عمود الحق واقمع الكفر	لم يكن يدرى (هرقل) أننا
ورفع على الأكوان نور (محمد)	عرب من آل (غسان) لنا
فما د لنفسي زهوها ورجاؤها	أنتم إخواننا أهلاً بكم
تمت أن ألقى الشهادة راضياً	إن يفرق بيننا الدين فقد
وأوردت نفسي مورداً دونه الردى	قد أتينا اليوم نرجو عطفكم
فأخطأتى والفتنا ذلك الأجر	أنتم السادة
عجبت من (الرومان) هانت نفوسهم	خالد :
فلم يثبتوا عند اللقاء وهم كثر	لا تخشى الأذى
لئن هيمن الضعف المهن على امرئ	الأمير :
فأجدي لهذا المرء من عيشه القبر	خالد :
(دمشق) عمروس الشام دانت لحكمتنا	قد نهى الاسلام عن إيذاكم
وأرجو (بحمص) أن يظالمنا النصر	الأمير :
جندى :	سوف تمضى معكم عهداً على
سيدي قد أتى من الرومان	أن تصونوا دمتنا
برحمتي أن يراك	

خاله :	لنا نمين	هوى طود من الاسلام فابكوا	من الأخلاق والخلق الرزينا
شبيمة العرب وفاء بالذي	وعدوا لا در در التاكئين	أبو عبيدة :	
أى شأن لمهود قطعت	ثم أخت ترهات بعد حين	سند كره على سمر اللبالي	ونذرف بدمه الدمع السخينا
لا تفرغك قصاصات غدت	شرد تنصب للمستضعفين	وأى خليفة أضحى مديلاً	لخير الناس أخلاقاً وديناً ؟
إرجع الآن (لخص) إننى	قد تصبانى لمرأها الحنين	خاله :	
بشر الأقوام أنا فى عهد	سوف نبذو فى رباكم فاحين	هو الفاروق منصور السجيا	إمام لا يرى فى الحق ليناً
أبو عبيدة :	(يذهب الأمير ويدخل القواد)	أناط بك القيادة فاستلمها	فانك كنت فى الدنيا أمينا
سلام يا أمير المسلمين	له أرج يفوق الياحمينا	وأعلمه بأمر الفتح حالاً	
عمرو :		أبو عبيدة :	
لقد خضعت لمزتك البرايا	ودان لك الأعادى صاغرينا	معاذ الله أن أنسى الجهودا	
فكنت القائد الشدب المرجى	وكتت أماننا حصناً حصينا	و (خاله) غلاً الدنيا رعوذا	
قائد :		وسيف الله قد هز البنودا ؟	
وكيف نخاف للأعداء بأساً	وسيف الله والإسلام فينا ؟	فقد ذلت بالمزم الحديدا	
خاله ،		أشر للدهر يخضع للمعالي	وأوى للأمام تكن عبيدا
أراكم قد بلغت فى حدّاً	تساوى فوق وصف الواصفينا	وسر بالمسلمين إلى الثريا	فقد كنا ولم نبرح جنودا
ألتم عدنى عند الرزايا	ألتم فى الحوادث لى يمينا	خاله :	
حدث جهادكم والهول باد	وقد جنت براده جنودنا	(أبا عبيدة) ما حارب مرتقباً	طيب الثناء ولم أطمح إلى الرتب
وزلتم صروح الكفر لما	أنتم كالصواعق راعدينا	ولا صوبت إلى الدنيا وزخرفها	ولا سموت إلى مال ولا نسب
تفردت المروبة بالمعالي	سلوا الأحقاب عنها والسنينا	فى ذمة الله ما قدمت من عمل	بقى ما تراه دوماً على الحقب
ألم تملأ زمازمها البرايا	وتترك فى الزمان لهارينا	عساء بنفعنى إما قدمت إلى	
فويل للآلى غمزوا قناها	لقد سلكوا سبيل الجاهلينا	ربي وبمعنى من سورة الكرب	
إليك (أبا عبيدة) خذ كتاباً	أمانى من أمير المؤمنين	بذلت نفسى قبرالين متببطاً	حتى تعالى لواء العرب فى السحب
أمانى ناعياً		ولم أكن غير جندى أهاب به	إلى الجهاد يقين غير مضطرب
أبو عبيدة :	من ذا توارى ؟	والآن سيروا إلى (حصص) فان بها	
خاله :	(أبو بكر) إمام الصلحينا	هات العير وتم النصر للعرب	
		مضى الربيع الدرريرى	

إعلان مناقصة

مصلحة الأملاك الأميرية بشارع	وتقدم العطاءات داخل مظاريف	أى عطاء بدون أبداء الأسباب
منصور رقم ١٥ بالقاهرة تطرح فى	مختومة بالشمع الأحمر ومصحوبة بتأمين	ويمكن الاطلاع على المواصفات
المناقصة العامة الأعمال الترابية والصناعية	ابتدأ فى قدره ٢٪ (اثنين فى المائة)	والرسومات وجميع ما يلزم من البيانات
اللازمة لبرنامج إصلاح سنة ١٩٣٩/٣٨	من قيمتها . وستفتح المظاريف بديوان	بديوان عموم المصلحة كما يمكن الحصول
بمناطق السرو وكفر سعد وبرارى المنصورة	عموم المصلحة ظهر يوم ٢ مايو سنة ١٩٣٨	على قوائم وشروط المناقصة عن كل
ومزرعة القلعة والصبحية	وللمصلحة الحق فى إلغاء المناقصة	منطقة نظير مبلغ ٢٠٠ مليم للقائمة الواحدة
	وفى تجزئة العطاءات وفى قبول أو رفض	اعتباراً من ١٦ إبريل سنة ١٩٣٨ م